سند الطابو

(رحلة الى الصفر الوجودي)

رواية

محسن حنيص شوكت

ارقام لاتنام

(يستفيق سعدون الراهي من غيبوبته، ليجد نفسه في زنزانة انفرادية. الارقام تستفيق في جمجمته. اول عمل يقوم به هو قياس ابعاد الزنزانة)

بعين واحدة افاق من غيبوبة طويلة، فابصر سقفا كونكريتيا، يتدلى منه مصباح، يشع صمتا عتيقا باردا، وغبارا بلون الرماد. حاول ان يفتح العين الاخرى فلم تستجب له، كأن قفلا يطبق على جفنه. مد اصبعه الى كرة العين، فارتطمت بورم له ملمس الصمغ المتحجر، اضافت اللمسة جرعة اخرى من اليقظة.

لم يعثر على سطح صقيل ليرى ماحل به، فبقي يحمل عن نفسه صورة موظف حكومي محترم يراه في مرآة الحمام حين يحلق ذقنه. ترك وجهه هناك قبل ان يخرج الى عمله. لم يخطر بباله ان بضعة ساعات تفصله عن الامتحان العسيرالذي سيتعرض له جسده. حين بدأت جلسات تحضير الارواح غدت اليقظة جسرا عائما بين وحشتين، او لحظة فاصلة بين سوطين، او دائرتين مفرغتين من المعنى. وقد فقد احساسه بالطنين الزمني بعد ان جعلوا من اذنه منفضة لسجائرهم، واسفر هذا المزاح الثقيل عن عطل جزئي في جهاز الذاكرة ، فلم يعد يتذكر الا ماهو بعيد جدا. وفي مرحلة من مراحل العذاب، شعر انه حبيس لدى فرقة صوفية، تدفعه للوصول الى الذات الالهية، عبر سلاسل من حديد تهبط من السقوف لتؤرجح الجسد بالمقلوب. اما الاذكار والترانيم فكانت تخرج من افواه المحققين مصحوبة بايقاع القابلوات المحورية، وهي تنزل على الدفوف العارية الحية، لتخرج منها الاعترافات.

خطا نحو كوة صغيرة مغلقة، دفع مصراعيها فدخل خيط رفيع من الدنيا. مد انفه بين القضبان فلمح طرفا من نهر تضرب امواجه جدار السجن ثم تتراجع مدحورة.

هل هو نهر فعلا، ام ذكرى بعيدة ؟

هل هو امام كوة في زنزانة، ام ثقب في قبره لدخول النمل؟

وجد انه فقد الكثير من مزاياه. هناك اثنان اوثلاث من حواسه الخمس لم يعد يثق بها. كور فمه واطلق صفيرا ارتطم بالجدار وارتد اليه لكنه لم يسمعه. حفر في اذنيه فعثر على اعقاب سجائر مطفأة. انتبه الى ان السقف يحوي فرصة للانتحار. المصباح الكهربائي يتدلى بصمت كأنه حبل مشنقة. وقف لصق الجدار، وباصبع مبلول وضع اشارة لطول قامته، ثم تراجع خطوتين ليرى ماتبقى له من قدر. وجد انه لم يعد ذلك الموظف المحترم، بل كائن متهريء، ضئيل، ومعزول مثل بعير اجرب. رأى ان الوصول الى السقف يتطلب قامتين، اي دخول نزيل ثان يصعد على كتفيه كي يمسك بطرف المصباح، هذا السخاء في العلو هو التحوط الذي وضعته الادارة ازاء محاولة السجين تقرير مصيره بنفسه. لم تكن فكرة الانتحار راسخة تماما، بل كانت ردة فعل للعذاب الجسدي، تصعد وتنزل معه. وفي مرحلة لاحقة سوف يدرك ان العذاب منحة ربانية، قنطرة للعبور الى الضفة الاخرى من الوجود، وان الامتناع المطلق عن تذوقه هو الخطأ الفادح، والهروب منه يحرم الذات من فرصتها في السمو والشعور باللذة الخالصة. سوف يجد بديلا عن الانتحار في تحطيم البناء الفوقي لكيانه والابقاء على القعر، وهو شكل من الوجود يقترب من التلاشي، والعيش في درجة الصفر.

دار حول نفسه بعين مفتوحة واخرى مطفأة. مسح مصيره افقيا وعموديا. جدران اربع خرساء، وباب موصد بلون الصدأ.

هذا اذن هو المكان الذي خصص له من قبل الدولة ليقضي فيه بقية عمره.

وجد نفسه في قفص كونكريتي اضيق من الفضاء الذي تسبح فيه مخيلته.

ضرب كفا بكف، وساقا بساق ليضع حدا للتردد بين الحياة والموت. مثل حلزون اعور زحفت اصابعه لتسجل ابعاد المكان. شبرا شبرا راح يقيس مصيره. توقف عند عشرة اشبار طولا، وسبعة عرضا. حول الرقمين الى امتار وضربهما ببعض، فخرجت الزبدة: ثلاثة امتارمربعة، حصته من ارض بلاده.

قبل القاء القبض عليه، كان موظفا حكوميا محترما، ببدلة وربطة عنق. يكتب رسالة الى وزير الاسكان، يلتمس مئة وخمسين مترا مربعا تأوي عائلته. يحاول الى اقصى حد تصغير مطلبه، واضاءة المفارقة بين ما يطلبه وبين مساحة البلاد. وقد ذكر على استحياء وحذر شديدين حاصل القسمة بين مساحة البلاد ونفوسها. كانت رأسه معبأة برقم يشبه وجعا في الرأس، دخل مبكرا جمجمته، وتحديدا منذ اول درس في الجغرافيا. كان المطلوب منه وهو تلميذ صغير ان يحفظ رقمين: مساحة العراق (450) مليار متر مربع، ونفوسه (9) ملايين نسمة في ذلك الوقت. وحين وقف امام السبورة ليدونهما، طرأت في باله ان يضع احدهما فوق الآخر (بسط ومقام). كانت الفكرة غريبة، اثارت الدهشة في وجه المعلم والتلاميذ. لم تدم الصفنة الحسابية طويلا اذ سرعان ما خرج ناتج القسمة: (50.000) متر مربع. وضع الرقم في فمه، وتركه يدور مثل علكة، ثم نفخة في الهواء: خمسون الف متر مربع. ولكي يقربهم من مساحة الحلم فقد رسم على السبورة ملعبا للكرة بساحته ومدرجاته، وكتب اسمه في الوسط .

لقد طرأت تبدلات هامة على الرقم الطفولي(50.000) متر مربع، او مايساوي (20) دونم، المفترض لحصته من ارض بلاده. زحفت الواقعية تدريجيا لتحجم تلك المثالية المفرطة والمراهقة الثورية، فراح الرقم يتراجع تدريجيا. دخلت الزيادة السكانية، ثم طرحت الاراضي الزراعية والانهار والمسطحات المائية والمباني العامة ومعسكرات الجيش والمناطق المحضورة وغيرها. اما الهبوط الدراماتيكي في الرقم فقد حصل بسبب اكتشاف قانون الملكية المقدسة، وخضوع الدولة المطلق لها.

الملعب الكروي الذي يسع تسعين الف متفرج سوف يصغر مع كل اصطدام بصخرة الواقع، ليصبح بحجم الدائرة الصغيرة المحاطة باحجار صغيرة كسياج افتراضي في لعبة الطفولة (بيت بيوت). استغرق الوصول لهذه الخلاصة زمنا طويلا، اذ سبقها محاولات عديدة من سعدون الراهي لاثبات حسن نواياه وثقته بالدولة:

(معالي وزير الاسكان:

أرجو النظر بعين العطف الى رغبتي الملحة في مد جذوري في هذه الارض. هنالك حلم يراودني منذ الصبا، واود ان اراه قبل موتي: ان أرى اسمي مدونا في سجلات الطابو.

في المدرسة حفظت مساحة البلاد (450 مليار متر مربع) ونفوسها (9) مليون في ذلك الوقت، ومنهما وجدت ان حصتي خمسون الف متر مربع، حسب المادة الثامنة والثلاثين من الدستور: (المواطنون متساوون في الحقوق والواجبات). كنت طفلا، واقرأ ما مدون حرفيا، لكني حين كبرت ادركت ان هذا الرقم

غير ممكن، عدا انه اكبر بكثير من حاجتي. يكفيني مئة وخمسين مترا فقط، الحد الادنى لشعوري بالمواطنة. اريد ان انتمي الى هذه الارض، لا اريد ان اظل معلقا في الهواء.

لو كان الأمر يخصني لوحدي لطلبت ثلاثة امتار فقط، لزوم القبر، لكني احمل ستة خراف في رقبتي. ولا مجال للتخلص منها. أنا متزوج وأب لخمسة اطفال. نعيش في مدينة القاسمية – شرق دجلة، في غرفة على السطح، هي واحدة من ستة غرف تمثل بيت الأهل، وهي مشغولة بمتزوجين وأطفال يصل عددهم الكلي قرابة الخمسين نفرا في الليل. اما في النهار فالعدد يتضاعف، تماما كما يحدث في القاهرة او اسطنبول، أذ تبدأ موجات الأخوات وأطفالهن وأزواجهن بالقدوم في غارات شبه يومية. هذا البيت الذي تأبى زوجتي ان تسميه بيت وتفضل كلمة (معسكر) هو جزء هام من مشكلتي.

ونظرا للأحتكاك المتواصل بين الزوجة وبقية افراد المعسكر فقد حصل تنافر يومي. وكما تعلم سيادتكم ان تصادم الزوجة بالأهل أمر غير محبب، ولا يمكن تجنبه. ولا بد انكم على علم ايضا بالعلاقة السرمدية بين الكنة والحماة، والغيرة السوداء بين زوجات الاخوة. المشكلة أن الأطفال كبروا، والحياء يمنعني من سرد تفاصيل الصعوبات التي نعانيها في خلوتنا الشرعية. وادى شعار (العرض واحد) الى شطب تام للخصوصية، واصبح سطح الدار مقسما الى مقاطعات بين أخوتي المتزوجين، لكني انسحبت وتركته لهم، وهي نقطة خلاف بيني وبين زوجتي، حيث تتهمني على الدوام بانني لا أستطيع الدفاع عن حقي، وتتخذ من سطح الدار مثالا لمظلوميتها وجبني. كنت أجيبها بأن الحياء يمنعني من النوم على السطح، ذلك ان الشراشف الموضوعة كحواجز بين المتزوجين لا تكفي للعزل. وأحب ان اعترف لكم انني خجول. ان الاصوات التي تخرج في الليل لا تسمح لي بالمواصلة.لا حياء في العلم. كما ان اخوتي حيويون جدا. وحتى لو أغمضت عيني فلن أستطيع صم آذاني. وأذا استطعت ان اصم آذاني فكيف أصم آذان الاطفال. اعذرني ياسيادة الوزير ان اخبرتكم ببقية الاصوات المسموعة طوال اشهر الصيف، ولكم ان تتخيلوا ماذا يخرج من خمسين نفرا في سطح واحد لاتزيد مساحته عن مئة متر مربع: فهناك الشخيرالمتعدد النغمات، واصوات الغازات، ونوبات الربو، والسعال الديكي، واصوات الهرش نتيجة لعدم الاستحمام، والآلام المؤجلة الى وقت النوم، وهناك على الدوام رضيع يبكي جوعا، في تناوب يفوق في دقته حراس الوحدات العسكرية، اذ ما ان ينتهي مرضع من بكائه حتى يسلمها للآخر. ....)

الرسالة مطولة، وتخرج اكثر من مرة عن السياق الرسمي، لتكون اقرب الى البوح والشكوى، لا من ضيق المكان فقط، بل من مفردات ليس لوزير الاسكان اي دخل فيها، وقد حصل المحققون على نسخة منها.

***

في البداية كانت الحسبة بريئة وساذجة الى حد ما، لكنها صارت تزداد قسوة مع الايام حتى تحولت الى معول يحفر في النفق المظلم لنظام الملكية المقدس. الماكنة الرياضية لاتنام. الارقام تطوف مثل الكواكب، تشرق في جمجمته كلما ضاقت الامكنة. يتساءل حائرا:

هل الامتار الثلاث هي حصته من هذا الكون اللامتناهي؟

هل هو الجواب للتساؤلات الوجودية المبكرة التي احتلت جمجمته؟

الارقام تتلاقح، فتلد ارقاما جديدة. تصعد مساحة العراق (450 مليار متر مربع) لتكون في البسط، وتهبط نفوسه (9) مليون لتكون في المقام، فتلد حصته (50 الف متر مربع)، ثم تصعد مساحة البلاد من جديد لتكون في المقام ، وتمتطي رقم الزنزانة (3 متر مربع) ، فيخرج مولود يزن 150 مليار نسمة. يطلق

المولود صرخته مخاطبا السجين: لكي تقبل بالزنزانة ينبغي ان يصل نفوس العراق الى (150 مليار). هذا الرقم المهول بعيد جدا، ومن الصعب وصول الامة العراقية اليه، بل ربما لاتصل اليه البشرية في الافق الحالي.

وبينما يتمدد الكون كل لحظة حسب ادوين هابل، فان الزنزانة بخرسانتها المسلحة باقية على حالها تتحدى نواميس الكون. ولكن من يدري قد يتمدد جسده فتضيق الزنزانة لتكون قبرا تاما.

***

راح يتعقب الامكنة الضيقة التي حشر فيها قبل ان ينتهي عند هذه الزنزانة، عله ان يعثر على مسار ما لتردد الارقام : **.(3) ، (2) ، (1)**

قبل ان يخرج الى الدنيا سكن سبعة اشهر في رحم امه، وهو اضيق الامكنة التي مر بها حتى الآن، حيث تتجسد الواحدية بشكل تام، فحجم الجنين يكاد يكون هو ذاته حجم الرحم، وبذلك يكون حاصل القسمة هو الرقم واحد. وبسبب الضيق المفرط فقد خرج قبل موعده بشهرين، ودون ان تشعر به امه، فوضعوه مع الخدج. وحين نما ريشه قليلا رفض المهد، وقفز الى الارض ناشرا جناحيه في ارضية الغرفة. وعندما فتح عينيه تماما وجد نفسه ابنا لعائلة من **(12)** نفرا يسكنون غرفة من الطين تبلغ مساحتها**(36)** متر مربع، وسرعان ما ركب الرقمين فوق بعضهما واخرج منهما حصته: **(3)** متر مربع.

وحين اندلعت الحرب كان عليه ان يصعد قطار البصرة المكتظ بالجنود، ويتعلق مثل الخفاش في الفسحة المخصصة للحقائب، ويظل في كل رحلة على هذا الحال اربعة عشر ساعة.

الحرب وضعته ايضا في مواجهة مع الخندق الشقي. يمتد الخندق من المثلث الحدودي شمالا الى الفاو جنوبا، بطول يصل الى الف ومئتي كيلو متر، اما عرض الخندق فهو متر واحد. وهو في الحقيقة ثلاثة خنادق متوازية: الخندق الامامي المقابل للعدو، الخندق الاوسط (القوات الاحتياطية)، والخندق الخلفي (الاداري). في الخنادق الثلاث يعيش مليوني جندي. وبعملية حسابية بسيطة يظهر ان حصة كل جندي هي مترين مربعين فقط. وهو حجم القبر تقريبا. ولقد وصلت الى (مشرب صهيب)، وهو الوكر الذي كان السجين يتردد عليه ويرعاه رسائل موجعة، يصف فيها تفاصيل الحياة اليومية، حيث يمر على وصف المكانة السامية لصندوق العتاد، وكيس الخبز، ولامبالاة الجرذان، ووعاء التغوط، وبريمس النفط، وعلب الخضار، وارزاق المعركة الجافة. يتجاور الموت والحياة فيها لحظيا، وتصبح الارض الحرام فرضية غامضة، تعمل على تقريب الموت الى ادنى حد ممكن. ويحسد الجرذ الذي يشاركه العيش في الملجأ، فقد كان يتحرك بسلاسة ونشاط. الخندق قصر كبيربالنسبة لجرذ. الامر واضح رقميا. وسوف يظهر الفرق على الجرذ حين يضيق بيته. يضع سعدون طعما داخل قذيفة مفرغة من البارود، ويغرى الجرذ بالدخول، ويغلق عليه طريق الهروب. يبدأ الجرذ باطلاق صراخ لايحتمل، رغم وجود الغذاء والهواء. الجرذ لا يحفل بالطعام وربما سيضرب عنه. يواصل صراخه مطالبا بفضاء اوسع. لايريد ان يتنفس ويأكل فقط، بل يريد ان يتلذذ بالفراغ. قد لاتبدو فكرة الطابو واضحة بالنسبة للجرذ، ولكنها اكثر وضوحا بالنسبة للافعى في جحرها، او للاسد في عرينه، او اللقلق في عشه. من هنا راح يوصي الجنود بالتوقف عن وضع السم للجرذان، ومن الواجب التعايش معها و تفهم ضرفها الحياتي.

يرى سعدون الراهي ان اي مكان يقضي فيه يوما كاملا يصبح بيته، بشرط ان يكون له سقف. ولقد انتبه مصممو الحرب (او الملاكون) الى ان الخندق مفتوح من الاعلى، ولكي يقترب من البيت فلابد من وضع سقف، وهو ما جرى لاحقا. ولكن الخندق المسقف قريب جدا من الموت، ولذلك اكتسب خصائص

القبر، ولم تعد كلمة (ملجأ) تكفي لوصفه، فهو لايوفر الشعور بالامان، بل العكس، انه قبر الاحياء. وقد اثمرت هذه الرؤى عن شعور بالعدمية، واحتقار للذات، ورغبة في اذلالها. ورغم انه يكلم نفسه، الا ان كلماته كانت تعبر الى الملاجيء المجاورة وتحدث فيها ارباكا. فبعد مرور اربع سنوات على الاقامة في السواتر الامامية، وعدم وجود اية بارقة لنهاية الحرب، وامام الاقتراب المفرط من العدو، تحققت اطروحة الملاكين واصبح على يقين ان الملجأ الشقي هو بيته وحصته من هذه الارض، وعليه ان يدافع عنه حتى الموت. نظر بعينين حادتين، فوجد ان مطحنة الحرب ابعد ماتكون عن الاسباب المعلنة، وان ما يجري هو مرحلة الانتقال في نظام الملكية. الحرب هي آلية استبدال طاقم الملاكين. وان وظيفة الجنود في كلا الطرفين هو تعميد هذا الجسر بالدم . الدم هو الختم العقاري، وهو حبر السجلات الجديدة. ليست ارتال الجنود سوى جسر للعبور من حقبة عقارية الى أخرى. على جثثهم المعبأة بالرصاص سوف يسيرالملاكون القدماء في طريقهم الى النسيان، ليحل مكانهم ملاكون جدد في دورة تاريخية ابدية.

***

يواصل السجين النزول الى الامكنة الضيقة عله يصل الى الجذر. يتوقف عند المتر المربع الواحد، يمسك به من محيطه ثم يرفعه مثل طبق فخاري ثمين. بدأ يعتقد ان الواحد هو الغاية النهائية لنظام الملكية، حيث يصعب بعد ذلك تفتيت المتر الا بتفتيت الجسد البشري نفسه. من هنا يؤكد في رسائله ان الامكنة الضيقة (الزنزانة الانفرادية والخندق الشقي والقبر)، التي خصصتها الدولة لفئة من المواطنين، ماهي الا مقتربات من جذر الملكية، او المحطة ما قبل الاخيرة لقطار الملكية في رحلة العودة لنقطة الانطلاق (التي يطلق عليها الكهنة وراثة الارض).

وبموجب ذلك فان القطار سوف يواصل سيره ليشمل مستقبل العشوائيات المشيدة على هامش المحيط المقدس والشاسع للملكيات الخاصة. لا مفر لهذه التجمعات السكانية من الوصول الى تلك الغاية فقد شيدت اصلا ضد ارادة الملاكين . وكانت اشبه بشعرة من جلد خنزير.

كان السجين واحدا من سكان مدينة القاسمية - شرقي دجلة التي انشأها الزعيم عبد الكريم قاسم لتكون حلا للعشوائيين في العاصمة. هذه الواقعة اليتيمة في تاريخ الملكية، وجدها تسير حثيثا نحو مصيرها المحتوم. البيت الاول شيد على ارض مساحتها 144 متر، بطابق ارضي تسكنه عائلة من 10 افراد. بعد ثلاثة عقود تضاعفت العائلة خمسة مرات، ولم تتوسع المساحة مليمترا واحدة. اشتد النزاع بين المتوالية الهندسية للانجاب والجمود المطلق في المساحة. نزاع داخل كسر عددي، بسطه متحرك صعودا يمثله ساكني البيت، ومقامه متجمد عند الرقم (144) متر مربع. لامفر من الصعود عموديا و بناء طوابق جديدة فوق البيت القديم . المسألة مسألة وقت ليس الا ، ولن يتوقف النزاع الا بوصول البسط الى قيمة المقام ، اي يكون عدد سكان البيت الواحد 144 فردا، عندئذ تتحق الارادة الالهية او غاية نظام الملكية، حيث يصبح حاصل القسمة هو العدد واحد.

ورغم ظهور ملامح ذلك المصير، الا ان اهله مازالوا متمسكين بنشوة اختراق التاريخ، ويحتفلون سنويا بتلك الذكرى العطرة، ويعيدون تمثيل حفل توزيع قطع الاراضي السكنية، حيث استقبلوا اول مرة في التاريخ سندات الطابو بالدموع والخشوع، كأنهم يستلمون صفحة من كتاب مقدس، او يشهدون معجزة الهية. هذه اللحظات الشاذة التي تم فيها اختراق نظام الملكية هي التي تشغل فكره، ويحاول تفكيكها ومعرفة ميكانيكية صنعها.

في غصن متيبس من شجرة العشوائيين ظهر برعم شوكي. شيء يشبه نصل حاد، او لحظة شاذة. تحرك الجيل الثاني بطريقة سرية ومغامرة الى حد كبير. ادركوا ان المصير ليس بعيدا. لم تعد الغرف العتيقة تكفي للنساء والاطفال والعجائز، فطفح الفائض منهم وصعد الى السطوح. اما الشباب فقد كان هناك مليونين منهم يسكنون الخنادق الشقية. لم يعودوا مصلين ولا منتظرين مثل آبائهم، بل ملحدين وناقمين وفوضويين احيانا. لاينتظرون زعيما، ولا اماما غائبا، ولا نهرا يفيض. انتشروا في امكنتهم الضيقة. كتبوا رسائلهم على اسيجة المدارس. اضافوا لمسات من البول على جداريات الطاغية. سيروا بغلا في شوارع المدينة يحمل صورته. تسللوا الى مسجد قبل آذان الفجر، كتفوا المؤذن وكمموا فمه، ووضعوا شريطا صوتيا قبالة الميكرفون، وتركوه يدور، استيقظ الناس على أذان لايشبه الاذان، لاتوجد (حي على الصلاة)، بل (حي على العصيان). شهدوا انهم غير مستعدين للدفاع عن ارض لايملكون منها شبرا واحدا. فضحوا دواعي الحرب، وكثافة البؤس، وسريالية النوم في السطوح، حيث كل سبعة تحت لحاف واحد. تطرقوا الى المصير الذي تسير اليه المدينة، حسبوه بالامتار والسنين، كأنهم يقرأون رسائل السجين ووصاياه. وصل الى سمع الدولة صوت الآذان، فاستيقظت على خطر يشبه الفيضان. اطلقت على ماورد في ذلك الفجر(أذان الملحدين). وكلفت خطباء الجوامع بتكفيرهم، وعززت المنابر بالحماية. بدأت الدولة تعد نفسها لحقبة جديدة. ثم جاء احراق البناية المشتركة لدائرتي الطابو والتجنيد ليكون الفيصل. الاجهزة الامنية باغتت البيوت والاوكار وملأت الحافلات بهم، وجرتهم بعيدا عن انظار الفضوليين. وقد اعدت لهم سكنا لائقا. وفرت الدولة لهم نوعين من السكن: المقابر الجماعية (للمعدومين)، والسراديب الجماعية (للمؤبدين)، وكلاهما يحمل نفس المواصفات من حيث الموقع (تحت الارض)، والمساحة، وشدة الاضاءة. كان عليه ان يجيب على سؤال ملح: مادامت الدولة اوصلتهم الى الحد الادنى للملكية (متر مربع واحد)، لماذا لم تقتلهم جميعا؟ لماذا ابقت قسما منهم على قيد الحياة ؟

لا شك انه يواجه الآن السؤال الاخطر في حياته:

من اي صنف هو؟ هل سيسكن مع الاحياء ام الاموات؟ هل الامتار الثلاثة تعني ان امره لم يحسم بعد؟

تحوي رسائله من التساؤلات اكثر من الاجوبة، ثم يختلط الامر، فلا يعود هناك تمييز بين الزنزانة والقبر والخندق الشقي. ويضعهم امام احتمال فقدانه قواه العقلية، وكان يقفز من زمن الى آخر دون مقدمات، وكان هناك من يفتح قبره ويهز جثته كي يستفيق، ليعيده الى الزنزانة في جولة تحقيق جديدة، ثم ينقلوه الى الخندق الشقي لنشوب حرب جديدة، وبعد سطور ثلاثة تدخل رصاصة قلبه، فيعيدوه الى القبر. ثم تصل منه رسائل مربكة، يحث فيها على زيادة التمسك بالعبثية، ومضاعفة جرعات الخمرة، والحرص على العيش دون التماس بالارض، كي لاتنبت لهم جذورا. من كان يوصل تلك الرسائل الى الوكر؟ وهل هي صادرة منه فعلا، ام من جهاز الامن، ام من جهة اخرى مجهولة؟

بدا مصيره يضغط على طاولات الخمرة، ويزيد من مرارة الكأس، ويبث البرد في المفاصل. وبعد ان كانوا جميعا في مركب واحد، وشركاء متساوين في الجرم، فقد افضى تحمله الرهيب للعذاب الى اعفائهم من الامتحان العسير، وبقائهم خارج الزنازين. وماكان لهم ان يفلتوا من حبل المشنقة لولا القرار الداخلي الذي اتخذه سعدون الراهي بتحمل المسؤلية كاملة، فقد بقي مصرا حتى النهاية ان لا يشرك احدا. لقد وجهت اليه تهما خطيرة لم ينكرها، وكان يعترف على اي شيء ينسب اليه، حتى انه اعترف على جرائم لم يرتكبها قط، وكان شعاره : مادام المركب قد غرق فمن الافضل ان يغرق لوحده.

ولكي يخففوا وقع تلك الخسارة ، فقد تركوا كرسيه شاغرا، ولم يسلموا قط بنهايته. وكانوا يعيدون سرد الشائعات الاكثر اشراقا، ومنها تهريبه خارج البلاد بمساعدة موظف في احد السفارات الاجنبية. و شائعة عن هروبه الى ايران عبر خطوط التماس في الجبهة، فقد تردد انهم اعادوه الى الخندق الشقي فيما يشبه اعلان التوبة. وتسربت شائعة تشير ان السلطات اخلت سبيله، وسمحت له بالسفر بعد وصول قضيته الى منظمة العفو الدولية، وانه الآن لاجيء سياسي في غرب اوربا. كانت الاقاويل المتضاربة تتحرك جنبا الى جنب لتضع مصيره في خانة التكهنات. وربما تعكس قدرة جهاز الامن على فرض اللايقين والغموض حول مصيره.

***

شعرة من جلد خنزير

(يعود سعدون الراهي الى صباه، يتذكر فيضان نهر دجلة، وغرق دائرة الطابو، وقيامه باول عملية تزوير، من وراء ظهر ابيه)

من كوة صغيرة في زنزانته كان يتابع تردد النهر، في ان يفيض او لا يفيض. يعد اكياس الرمل التي وضعت لمنعه من عبور جدار السجن. وبينما كانت روحه حبيسة العلبة الكونكريتية الضيقة، كانت عيناه طليقتان، تعبران الكوة لترافق طيور النورس، وهي تنقر صفحة الماء، قبل ان ترتفع من جديد باجنحة طليقة.

منذ زمن طويل والنهر يجري في واديه دون صخب. في الماضي كان اقل تعقلا. تاريخ النهر مليء بنوبات الانفلات. هل صار شيخا هرما؟ هل غير طباعه؟ ام فقد ذاكرته؟ يقلب السجين محنته. عجزت الوسائل ودب اليأس. يتضرع الى النهر ليكون منفذا للخلاص، ان يرفع منسوب الماء الى جدار السجن، يقتحم غرفة الملفات، ويذيب الحبر من الاوراق، يفتت الاعترافات ووثائق الادانة، ويحول الجرائم الى ماء ملون. لا يبق اسماء لمشتبه بهم ولا مدانين. واذا كان السيل عارما فقد تتهدم الجدران، وتنساب قافلة (المتسترين والجواسيس والعملاء والخونة والمتخاذلين) مع مجرى النهر، ويكون الخلاص النهائي.

صار يكلم النهر، يذكره بفورة شهدها له في صباه، يهمس له ان يعود الى سابق عهده: متهورا ومخربا ومنقذا في ذات الوقت. يرتد به الى ليلة محفورة في الذاكرة.

يتضرع اليه ان يقترب، يمد ذراعه من الكوة، يحاول ان يصافحه، يقبل صفحته، او يغرق فيه.

هكذا ينقضي نهاره، وحين يجن الليل تذبل الجفون وهي تثقب جدار الظلام. ولكي لا يفقد جذوة الامل ينام معانقا القضبان. تتوسد جبهته برودة الحديد، وكفه مدلاة في الفراغ، مبسوطة ككف شحاذ، كيما يلامسها الماء عند صعوده، يستبق الامل، حتى ولو بمسافة ذراع.

ثم غفا فتدلى. فصعد النهر من زمن غابر، ورؤيا من قعر المحنة، وشعر النائم بموجة باردة تسري في عروقه، تمسح ذراعيه، ثم تداعب خده، وتغمر بالبلل الناعم عينيه لتطرد عنهما النوم.

فتح عينيه فرأى وجه ابيه وكفه، الاصابع الدقيقة لموظف السجل العقاري وهي تضع قطرتين من الماء البارد على عينيه. تضغط برفق على كفه المفتوحة، وتمسح جبينه بقدر من الحنان الابوي:

(انهض يا ولدي، اريدك ان تكبر هذه الليلة، اترك احلام الصبا ليوم آخر. لقد فاض النهر وغرقت دائرة الطابو. الدولة كلها مستنفرة، اعلنت حالة الطواريء. هناك خطر ان ينهار كل شيء، فلا يبقى حتى مكان لابيك. انهض لتشارك في انقاذ السجلات)

فاضت دجلة وغمرت شرعية الدولة، سحبت في مجراها كل ما تحويه من ملح الهي. ذابت الاختام والمناصب والرتب العسكرية وجداول الالقاب والمنح والشارات. اولى الضحايا كانت دائرة التقاعد العامة الملاصقة للنهر. واجهت مصيرها لوحدها، وقبل ان يصل اليها موظفيها، وسرعان ماذابت تلك الرواتب الهزيلة للمتقاعدين، ولم تترك حتى اثرا في الماء. ثم هاجم الماء دائرة النفوس، والمحكمة الشرعية، ودائرة الصحة، وبعض دوائر وزارة التربية والتعليم. ذابت سجلات النفوس، وعقود الزواج والطلاق، والتقارير الطبية، ونتائج امتحانات البكلوريا. خسرت تلك المؤسسات ارشيفها وسير منتسبيها، ولولا هيبة الدولة لعمت الفوضى. غضب النهر كان اقوى من تلك الجهود المتناثرة، وكان على الدولة ان تزج وحدات من الجيش، وتركز جهودها لانقاذ السجلات الحساسة. ركب رئيس الوزراء قارب الشرطة النهرية، يرافقه وزير الداخلية ووزير العدل، وعبروا الى دائرة الطابو(التسجيل العقاري). تسلق النهر مبنى الدائرة العتيدة. كان غاضبا كأنه يطلب ثأرا. دخل قاعة السجلات فحولها الى بركة زرقاء، ثم سحب في جريانه حبرها. اختفت حدود الاقطاعيات. ذابت الملكيات، الاسماء والارقام، التواقيع والاختام، تاركة السجلات بيضاء خالية من اي حق شرعي. واصل النهر فورته وهو يصارع اذرع المنقذين. هاجم سجلات الدولة العباسية، والدولة البويهية، ودولة الخروف الاسود، فامر الوزير بالانسحاب والتوجه لتحصين السجلات العثمانية .

شهد سعدون الراهي وهو صبي نهر دجلة في فورته وغضبه، وشهده في تراجعه وهدوءه وتعقله. شارك في عمليات الانقاذ الى جانب والده، وما تلاها من اعادة تنظيم. بعد هبوط منسوب النهر، اعلنت الحكومة البدء في الحملة الوطنية لاعادة السجلات الرسمية، وطلبت متطوعين للمساهمة فيها. جاء دور الخطاطين وحملة الاصابع الذهبية التي تحمل في اناملها لذة انحناءات الحروف العربية ورسمها. وكان الولد قد ورث حسن الخط عن ابيه. استطاع ان يخط حروف العربية قبل ان يبلغ الرابعة. لم يصبح خطاطا محترفا فهو لايجيد سوى نوع واحد من الخط يسمى الثلث. هذه العطية الوراثية سمحت له بالعمل اجيرا في دائرة الطابو لسنوات عديدة قبل ان ينتقل الى وظيفته في دائرة الكهرباء.

خدم والده اربعين عاما موظفا في دائرة الطابو. تدرج من كاتب بسيط حتى وصل الى منصب أمين السر. كانت رغبته ان يرى ولده وريثا له في هذه المؤسسة العريقة. حاول منذ البدء ان يغطسه في ادق التفاصيل ويطلعه على اكثر السجلات خصوصية ليعيد بخط يده الحياة اليها. وكان للأب ما اراد، سوف يشق الأبن طريقه ويتوغل في عمق سجلات الطابو، و سيكون ضمن طاقم اعادة الحياة الى تلك المملكة التي محاها الفيضان، سوف يكون عضوا فعالا في حملة كبرى لاعادة الملكيات الى وضعها المعتاد، وسيساهم في جعل العالم القديم يقف من جديد على قدميه. ومع تواصل الحملة الكبرى كان الابن يتقدم سريعا ليكون واحدا من ابطالها، فتلقى التهاني وكتب الشكر، وأهداه مدير الطابو قلم حبر وحضي بمصافحة وزير العدل.

دائرة الطابو لم تتخلى عنه بعد انتهاء الحملة، كانت هناك جرودات واحصاءات وعمليات تجديد دورية. ورغم صغر سنه فقد عين على الملاك المؤقت بصفة كاتب. هذا الارتباط الرسمي سمح له بالدخول في عمق السجلات وملامسة الكثير من الاسرار. وكان منصب والده يوفر له ثقة شبه مطلقة.

كان المطلوب من اصابعه الدقيقة ان تعيد ماتم محوه باناقة خط الثلث، حتى ليبدو سند الطابو وكأنه صفحة من كتاب مقدس. ولكي يقدر حجم المهمة التي يتولاها، يتوجب الادراك ان سجل الطابو ليس رزمة اوراق بين دفتين، بل كتاب مقدس فعلا. واي تلاعب فيه هو عمل يساوي الكفر، يشبه الى حد ما تحريف القرآن. ومسألة كون القرآن محفوظ (انا خلقنا الذكر وانا له لحافظون) تنطبق بدرجة ما على سجل الطابو. ولكي يثبت له والده هذا التناظر، فتح له خزانة في الارشيف، مليئة بألواح طينية سومرية، مازالت معتمدة كسندات ملكية رسمية لأراض في محافظة ذي قار. كانت الألواح بحوزة الورثة ابا عن جد. وقد تمت ترجمتها من السومرية الى العربية. وحررت لهم سندات ورقية مقابلها. وهناك الواح معدنية يحتفظ بها الارشيف: حديد ونحاس وفضة وذهب.

ينبغي النظر الى دائرة الطابو كمعبد مقدس. الموظفون والكتاب هم سدنة موكلون بحفظ الحق الألهي. هذه المكانة لمسها بيده وشاهدها بعينه، فالملكيات الشاسعة لها سجلات خاصة مخطوطة بماء الذهب. وهناك يوم يتمنى ان يشهده، يفتح فيه الارشيف التحتاني (السرداب)، للتحقق من سلامة الحق الألهي في الملكية العقارية. يوم يضاهي فتح خزانة الحضرة الحيدرية او القادرية، يحضره الملك ووزير العدل و كبار الملاكين وممثلون عن رجال الدين وشيوخ العشائر، والموظفون الكبار في الدولة ، وثلة من المؤرخين، ورؤساء الجامعات.

وقبل ان يبدأ سعدون عمله في السجلات قدم له ابوه بضعة نصائح: ان لا يثرثر فيما لا يعنيه. ان يكون متفرجا لاحكما. ان يستخدم اصابعه للكتابة، لا ان يشير بها الى ما لا يعجبه. ان يكون ابنا لأبيه، وبما ان ابيه يشغل منصب امين السر، فمن المفروغ منه ان يكون هو امينا ايضا.

لكي تعاد الحياة الى السجلات الورقية لابد من العودة الى النسخ التي لاتبلى بالماء، ولا تتغير مع الزمن. عندئذ بدأت مرحلة التعرف على اكبر اسرار دائرة الطابو. قاد الاب ولده عبر نفق طويل الى سرداب تحت الارض. وضعه امام كم من الاحتياطات لحفظ الملكية. دخل في اقفاص كونكريتية مغلقة تشكل مستودعا للسجلات الصخرية. وجد اسماء الملاكين في كل عصر، منقوشة على الواح بازلتية ضخمة مع اسماء ورثتهم وحصصهم وحدود اراضيهم. هناك نسخ من الفخار (السيراميك) لنفس السجلات محفوظة في قفص كونكريتي آخر، ونسخ اخرى محفورة على النحاس. فيما عدا ذلك، وضع ابنه امام خرائط دقيقة لكهوف في جبل(حصاروست)، نقشت عليها اسماء الملاكين في كل العصور، وبواخر وضعت في داخلها نسخ من السجلات واحكم اغلاقها واغرقت في عرض البحر.

لم ينته الأمر عند ماهو صلب. يتطلب الحفظ الابدي تبني اشكال جديدة لاتتأثر حتى بالزلازل. الايمان بقدسية الملكية العقارية دفع أمين السر (السيد شبيب الراهي) الى استحداث قسم للسجلات الصوتية. قام بتكليف موسيقيين معروفين (احمد الخليل، رضا علي، ناظم نعيم) بوضع الحان شجية لسجلات الطابو تصلح لجميع الاصوات. تعاقد مع مقرئ عراقي (الحافظ خليل أسماعيل)، ومصري (ابو العينين الشعيشع) لترتيل السجلات، ثم تعاقد مع بعض الشعراء على تحويلها الى قصائد على غرار ألفية ابن مالك. هذه الجهود والافكار الخلاقة حضيت باعجاب كبار الملاكين والموظفين في وزارة العدل، ونال الوالد على اثرها شهادات تقديرية وكتب شكر من الوزارة .

اما الابن فقد بدأ يرى صورة اخرى، صورة تتشكل على مهل، وكلما قرب السجلات من بعضها، كأنه امام لعبة لم الفتات (بوزل)، حيث المطلوب تجميع اجزاء صورة مفتتة للحصول على الصورة النهائية.

وحين نجح في وضع الفتات في اماكنها الصحيحة ظهرت له صورة مفزعة، وفتح عينيه على حقيقة اكبر من عمره :

(من يملك الارض في كل عصر هو عدد ثابت. تتغيير الاسماء لكن العدد لايتغير).

وقد امسك بعنق هذا الرقم فوجده (**227**) ملاكا.

ولكي يتحقق منه راح يتابعه في كل العصور، فوجده محفور في الالواح الطينية التي تركها السومريون والبابليون، وفي الواح البازلت للاشوريين، ومخطوطات الخراج للدولة الاموية والعباسية والدولة البويهية وعصر المغول والمماليك، انتهاءا بسجلات الطابو للعهد العثماني النافذة المفعول حتى هذا العصر.

مع كل تبدل في العصر او السلالة الحاكمة تتبدل الاسماء ويعاد توزيع الارض، فيطلع الرقم (227) كنبتة جذورها في السماء. بمرور الزمن تتفرع الى ورثة، حتى يصعب متابعة اغصانها، ثم تهرم فلا تقوى على حماية نفسها، فتأتي الريح لتطيح بها، لكن الجذر الالهي لايموت، كلما زاد عدد الورثة، وصغرت الحصص، كلما عجلت في نهاية النظام القديم، وعادت الحياة الى الرقم (227) عبر طاقم جديد من الملاكين. العملية تشبه ضخ دماء جديدة لسنة من سنن الكون. قد يتسرب بعض الملاكين او ورثتهم من عصر الى عصر، لكن العدد لا يزيد ولا ينقص. تأمل الرقم طويلا وتساءل: ياترى من يقف وراءه؟ هل هو من صنع الاله، المالك الاصلي للارض، ام من قوة خارج ارادته؟

***

هناك صفحات في السجل الرسمي يصعب هضمها. النصائح التي وضعها ابوه في اذنه تطلق طنينا. يشك انه قادرعلى الالتزام بها. اثناء عمله في السجلات وجد ملفا لتحويل ملكية ارض من انسان الى حصان، مازال عالقا في ذاكرته، ويحضر في كل الامكنة الضيقة التي عاش فيها.

الشيخ (دحام النجرس) واحد من اكبر مربي الخيول في محافظة الانبار. قبل ان يتوفاه الله استدعى محاميا ليسجل وصيته. كانت اراضيه تمتد على طول الطريق بين الصقلاوية والفلوجة. كان مغرما بالخيول العربية الاصيلة، ويملك مئتي رأس منها، يعرفها واحدا واحدا، بل انه يعرفها اكثر من ذريته. ولكي تظل معززة مكرمة بعد مماته فقد اوصى لكل منها بقطعة أرض لتكون مربضا وميدانا للعب. وحين وصلت اوراق الوصية الى دائرة الطابو، كان لابد ان يطلع عليها والده قبل ان يحولها اليه ليسجلها بخط يده. لازال الابن حتى الآن يتذكر الكثير من اسماء الخيول. خط بيده أسماءها وارقام الاراضي ومساحاتها وحرر سندات رسمية لها. لازال يتذكر (كحيلة النجرس)، المهرة التي اوصى لها الشيخ باربعمئة متر مربع، و(أسد دحام) الذي سجل بأسمه ثلاثمئة متر مربع، و(شهلاء) و(ورقاء) و(غيداء) و(ساري) و(درعم) و (خطاف) , كلها مقرونة بأسم الشيخ دحام. حرر بيده مئتي سند رسمي، وبمعدل ثلاثمئة مترا مربعا للفرس الواحدة . وهناك ارض مشتركة مساحتها عشرة دونمات(ملكية مشاعة بين الخيول وغير قابلة للفرز) جعلت مضمارا لركض الخيل وركوبها فوق بعضها.

كان هذا الملف اشبه بعفطة بلا انتهاء. اللامبالاة التي ابداها الاب حيرت الابن ودفعته الى النظر خلسة الى وجه ابيه والتفتيش في ملامحه.

فتح السجل العقاري على صورة السند المسجل باسم الفرس (كحيلة النجرس) ووضعه قدام عين ابيه.

هل يرى الاب مايراه الابن؟

الا يرى المفارقة، بين غرفة الطين العشوائية، التي يتقاسمها عشرة من اهله، وبين روث الخيول في مرابضها الفارهة، حيث لكل فرس غرفتها الخاصة؟

يواصل الابن رمي سهامه في الفراغ، ترتد لتصيبه في القلب. يسمع صهيل الخيول الخارج من السجل كأنه عفطة. لايجرؤ ان ينظر في وجه ابيه، قد تفضحه عيونه. ينظر الى قفاه. يراه مثل الجمل الذي (يحمل ذهب ويأكل عاقول). يعيد النظر في نشوة ابيه، وهو يتلقى التكليف الوزاري بالاشراف على اعادة السجلات، وبث الحياة مجددا في الدائرة، التي حطمها الفيضان. يفتح الخطاب امام عيني ولده ويشير الى الاختام وامضاء الوزير.

كيف يمكن لوالده ان يكون امينا للسر وهو لايملك شبرا من الارض؟ كيف تجتمع السيرة الوظيفية العطرة ومرفقاتها من الشهادات التقديرية، وكتب الشكر، والنياشين واقلام الحبر، مع حقيقة كونه يعيش خارج السجلات التي افنى عمره للحفاظ عليها وصيانتها.

(الا يعي ابي غضبة النهر؟)

لقد انتفض على تلك الحدود والممالك وسجلاتها. وبدل ان يبارك غضبته فقد صب عليه لعنته، ونعته بالبلاء؟ وكاد والده ان يغرق وهو يحاول منع النهر من الوصول الى سندات العثمانيين، بينما هو نفسه لايملك سندا.

هناك مشهد رآه بعينه، ويخجل ان يرويه لأحد. بعد سنوات على وفاة الاقطاعي دحام النجرس، راجعت فرسه المفضلة (كحيلة النجرس) دائرة الطابو. دخلت على ايقاع الخبب، بكامل شموخها، ورشاقة قوائمها. وقفت قدام مكتب والده، وطلبت فرز حصتها من المضمار المشترك، لأنها تريد ان تركض لوحدها.

في تلك اللحظة سقطت فكرة الملكية العقارية على الطاولة، وراحت تتقلب مثل عملة معدنية. ينتظر ان تسفر عن وجه ما. ففي الوقت الذي كان الاب يراها بوجه واحد، صورة لقضاء الله وقدره، كان الابن ينتظر وجها آخر، لايستطيع ان يحدد معالمه، ولايعرف سوى ان فجوة باتت تفصله عن ابيه.

***

عندما فرغ من مسح سجلات الملاكين وورثتهم، جاء دور احصاء الذين يعيشون خارج سجلات الطابو. لم يكلفه احد بهذه المهمة، لكنه وجد نفسها في صلبها. لم تكن الشواهد تعوزه. وجد في أهله عينة ممتازة. رسم تفاصيل المكان الذي تذوب فيه اعمارهم. طاف على سكان الصرائف والعرصات وبيوت الطين والشكوص والخيام . هذه العينات تتكرر في مدن البلاد. بدأت الملامح تتضح: هناك شعب كامل يعيش معلقا في الهواء. منذ الازل وهم خارج السجلات الرسمية. يحملون القابا رسمية تبرر الهامشية:

(عشوائيون، متجاوزون، اهل التنك (الصفيح)، كاولية (غجر)، نازحون، عربان، معدان، شروكية).

لم يجد لهم أسما ولا سندا رسميا يسمح لهم بالتغلغل في الارض، لا ابيه ولا أمه ولا اجداده، حتى تختفي السلالة ويتعذر متابعتها.

كان اهله (الجد وذريته) يعيشون في حوش من خمسة غرف طينية تتوسطها باحة. العدد الكلي ثلاثة وثلاثون نفرا (ستة اخوة مع زوجاتهم وثمانية عشر طفلا وثلاث عمات). لايوجد مايدل على الخصوصية في هذا الأطار الطيني. النوم والطبخ في مكان واحد، حمام واحد، ومرحاض واحد.

يتساءل احيانا كيف استطاعوا تفريخ هذا العدد من الاطفال في مكان يفتقر الى الخلوة؟ وكيف انهم مازالوا محتفظين بشيء اسمه الحياء؟ فلكي تخمد اصوات الخلوة كانوا يلجأون الى خنق نسائهم او عض اصابعهم . وكانوا مضطرين في الحالات المستعجلة (التقبيل او القرص) الى استخدام المرحاض او الحمام. لقد ظل موضوع الخلوة الشرعية مرتبكا حتى تكاشف الاخوة فيما بينهم فتوصلوا الى تخصيص زاوية للجماع يلتقي فيها المتزوجون وفق جدول اسبوعي.

رغم الصورة التي ظهر فيها وجه الدولة الا ان البعير واصل سيرته الوظيفية وهو (يحمل ذهب ويأكل عاقول). بقي الاب متمسكا بشرعية هذا القول والدفاع عنه: لقد خلق الله الجمل لأكل العاقول، فاذا ادار رقبته وأكل الذهب الذي يحمله فسوف يصبح ظهره عاريا وبلا وظيفة، عندئذ يحق ذبحه واكله. ان نقل الذهب يجعله مجديا ويسمح له بالبقاء حيا.

***

لم يدرك الاب وهو يستعين به في نسخ السجلات انه يضعه امام اشرس الحقائق، ويجره بعيدا عن البراءة المعهودة. سيقوده الى البداية المبكرة لغربته، وانفصاله التدريجي عن نفسه وأهله والمجتمع الاكبر.

غير ان الوعي المبكر له مستحقاته، ففي لحظة عامرة بالتهور اقدم الابن على ارتكاب فعل من وراء ظهر ابيه. خان الأمانة والثقة الممنوحة له. عبر الجدار الابوي وامانة السر، مستسلما لوسوسة قرمزية، فقام بعملية تزوير خطيرة.

كان المزاج العام يسمح بالكثير من الشطط، فقد دخلت الافكار الثورية لتهاجم كل ماهو سرمدي وسائد. واستوطنت في مناطق هامشية لا تثير انتباه احد. هناك حبلت فولدت جمرة مخبأة تحت قشرة من الرماد.

حاول في البدء ان يكشف لوالده قدرا من ذلك الجمر، يجره الى عالم الارقام، لكنه لم يحصل منه سوى نظرات استنكار، وتحذير من مغبة السير في هذا النهج.

(من وضع هذه السموم في رأسك؟).

غضب الاب لن يمنع اندفاع الارقام عميقا، واحتلالها عقل الابن وقلبه وحتى خصيتيه. سوف يؤجل مراهقته ليغرق في كتب سميكة تطفئ شهوته، تأكل مزاجه، وهشاشة طبعه. لن يبق وقتا للنهود المدورة، والعيون المكحلة. سوف يغدو مرجلا ثوريا تغلي بداخله الارقام. ومع تقدمه بالعمر تتضخم حواسه. سوف يرى ما لايراه الأب، ويشم روائح لايشمها، ويسمع اصواتا لايسمعها. وسينفصل بالتدريج عن المسميات السائدة. ويضع علامات الاستفهام فوق كل ماهو متفق عليه.

وجد ارضا محاها الفيضان، تقع بين سدة بغداد القديمة وسدة ناظم باشا. تابع اسماء الملاكين في السجلات خلال خمسة عشر قرنا، فوجد عشرين اسما: (جمشيد منوشهر) احد ضباط الحامية الساسانية في المدائن، (ذؤيب بن معد التميمي) قائد الميمنة في جيش سعد بن ابي وقاص، وفي عصر

العباسيين كانت الارض ضمن ممتلكات البرامكة، ثم ورد اسم مغولي (ارطغاي خان)، ومملوكي (ابو بكر الغزنوي)، وجلائري (حسن بوزرك)، ثم سلسلة من السلاجقة والصفويين، واستقرت اخيرا بيد ورثة الشيخ عبد القادر الكيلاني، حتى جاء الفيضان، فوضع حدا ومحا الاسماء كلها. كانت مساحة الارض (30) كيلومتر مربع. خططها بنفسه، شوارعها وساحاتها وحدائقها ومستشفياتها ومدارسها وملاعبها ومرافقها الاخرى. خصص للسكن ثلث المساحة، موزعة على تسع وسبعين مجمعا (قطاعا)، في كل قطاع الف دار، مساحة كل دار 144 مترا مربعا. سوف يدون تلك الفنطازيا في اكبر السجلات جدية (سجل الطابو). خط سعدون الراهي بيده سجلا عقاريا كاملا. خط اسماء العشوائيين في ارجاء العاصمة، سكان الصرائف والعرصات وبيوت الطين واكواخ القصب والصفيح في العاصمة. اعطى لكل من تجاوز الثامنة عشر من العمر ارضا. لم تكن الوثائق تعوزه، فقد عثر في ارشيف امانة العاصمة على سجل مفصل باسماء المهمشين، يحوي تضرعاتهم ورغبتهم الدفينة في مد جذورهم في هذه الارض. كانوا يكتبون (عرائضهم) بلغة اقرب الى الاستجداء. وكانت (الاذن الطرشة) هي الرد الاوحد لخطاباتهم. رأى قاماتهم تنحني مع كل سطر، و بحذر شديد يعبرون عن رغبتهم في الدخول الى سجلات الطابو، تلك اللذة العارمة التي حرم منها اجدادهم، فاورثوهم اياها. كانت اسماء المهمشين مكدسة في في خانة الحفظ الابدي. البعض من التضرعات يعود زمنها الى خمسة آلاف عام. اعاد تدوين الاسماء في سجله الخاص، وضع جميع الاختام الرسمية، ومررها على الموظفين المسؤولين بما فيهم والده. لم يبق له سوى الختم والامضاء الاخير. عليه ان يواصل السير الى مكتب المدير العام حاملا سجله المزور، متسلحا بالثقة المطلقة الممنوحة لوالده، والتي تعفيه من اي تدقيق. وحين يخرج من غرفة المدير يكون قد ارتكب اول جريمة (مخلة بالشرف)، ولكي يخفي معالم جريمته، كان عليه ان يدس سجله بين تلك الغابة الكثيفة من السجلات الصحيحة، تاركا امره الى الزمن.

كانت تلك اول النزوات الثورية، وفاتحة الاماني، ومبتدأ اللذائذ، واول احلام اليقظة. هكذا اعترف لجلاديه . السجل المزور اول تجربة جنسية في حياته، هو القذفة الاولى، ولكن لم تكن في جسد بشري. فلقد تأخر كثيرا لقاؤه بالانثى، وجاءت النزوة الثورية قبل لثم الشفاه و الخدود وعصرالنهود. وكانت حصيلة ارقام متلاطمة في جمجمته، وجدت طريقها الى خصيته. وكان لابد من مهبل سماوي. كان التعرق واللهاث الاول في رؤية الجسد العاري لآلهة الطابو المفتوح امام عينيه. وكلما اعاد رسمه باصابعه كلما زادت شهوته. لم تكن العدالة سوى عاهرة ربانية تحرس نظام الملكية السرمدي. ولقد وصف رغبته الجامحة في اختراق هذا الجسد بادق الاوصاف واكثرها الحادا وجمالا وشناعة. كانت الكلمات والصور تتداخل في بعضها وكان على المحققين ان يفككوا تلك المنظومة المتشابكة من الحقد واليأس والكفر والوعي المفرط والرغبة الجنسية المنحرفة.

يحتاج السجل الى بركة دم لكي يصادق عليه ويكتسب الدرجة القطعية. هكذا يكشف تاريخ الملكية عن نفسه. فلكي تنتقل ملكية الارض الى التميمي كان لابد ان يجز عنق جمشيد في القادسية. ولكي تؤول الى البرامكة كان لابد ان يجلس ابو العباس السفاح فوق جماجم الامويين، ويرفع نخب بزوغ سلالة جديدة. ومع كل نقلة كان المشهد يعيد نفسه وصولا الى احفاد الكيلاني.

حين دسه بين السجلات شعر بالخوف، ان مجاوريه سوف يبلغون عنه. سجل مفرغ من اية قوة غاشمة، نتاج الارقام وليس السيوف، يحتاج ان يغطس في بركة دم قبل ان تعترف به السماء، وترفعه الى مصاف السجلات المقدسة. السجل المزور رسالة صبيانية معنونة الى سن الرشد، الى اياد تخرج من الغيب. لم يكن بباله احد. شيء اشبه برمي حجر في بركة راكدة منذ آلاف السنين.

كادت تلك النزوة الثورية ان تمضي في طريقها الى عالم النسيان لولا حدوث انقلاب عسكري، عمد من الايام الاولى على مهاجمة نظام الاقطاع. تولى ادارة الدولة ضابط برتبة زعيم مولع بالمهمشين. شكل لجنة على عجل لوضع حل سريع لمشكلة العشوائيين في العاصمة. قامت اللجنة بجرد سجلات الطابو، فعثرت على سجل يحوي اسماء العشوائيين، ويحدد الارض، ويقسمها الى شوارع وقطاعات وبيوت، لايحتاج سوى الشروع بالتنفيذ. ظنت اللجنة انه واحد من المشاريع المؤجلة لمجلس الاعمار المشكل في (العهد البائد).

خرج من تلك التوليفة الثنائية (سجل سعدون وقرار الزعيم) مدينة جديدة بأسم (القاسمية)، سوف تكون مستودعا هائلا لكل المهمشين في العاصمة. وسيمنح كل واحد منهم سندا رسميا يسمح له بأشباع غريزة دفينة منذ قرون اسمها (ملك صرف).

لن ينسى ابدا نشوة امه وهي تستلم صورة سند الطابو، تضمه الى صدرها مثل جنين خرج توا من رحمها ، تحرص عليها اشد الحرص، تسميه حجة الارض، تحتفظ بها في علبة فولازية. بهذه الطريقة تحاول الاحتفاظ برائحة كف الزعيم وهو يسلم السند اليها في حفل جماهيري. هذه المدينة هي شعرة من جلد خنزير. وقد شاء القدر ان يكون حفيد الكيلاني هو الخنزير الذي سيفقد احدى شعراته. وهو الحادث الاول من نوعه على مدار التاريخ. ترتج الدنيا، وتخرج الافاعي والعقارب، ورجال الدين الافاضل والاقطاع. يحاولون الدفاع عن الخنزير ومنع ذلك الهلس الثوري. يرتفع صوت المآذن محرما هلس الخنازير، والتحرش بالسنن الربانية، وتحذر من موجة الكفر والألحاد. تلتقط صورا للخنزير وهو ينوح، مطالبا بأعادة الشعرة الى جلده. يبدو ان انتزاع الشعر بهذه الطريقة مؤلم جدا. يحاول الملاكون تهدئة الخنزير الحزين وطمأنته ان واقعة الهلس لن تتكرر، وان استعادة الشعرة امر يحتاج الى حقبة من الصبر. تتضخم الكواليس، وتتحرك الاشباح في الظلام، وقبل أن تحدث نوبة جديدة من الهلس تنقض الذئاب على وكر الزعيم في وزارة الدفاع، تقتاده الى دار الاذاعة والتلفزيون، وتفرغ هناك ثلاثة عشر مسدسا في فمه. وللمزيد من الاذلال سوف يرفع احدهم رأسه ويضع بصقة في وجهه. وستقف الكاميرة ثلاثة ايام على جثته المتكئة على كرسي وفمه الفاغر للسماء، فتوضع نهاية سريعة لتلك الفترة الشاذة في تاريخ الارض.

كان من الصعب اعادة الشعرة الى الخنزير، فقد تم تقسيمها الى تسعة وسبعين شعيرة، وكل شعيرة الى الف، فتشطرت الى تسعة وسبعين الف وحدة سكنية. وتحولت الى مستودع بشري هائل. ولجبر الخواطر يتقدم (عبد الرحمن السلوم) احد كبار الملاكين في ديالى ويقدم لبيت الكيلاني بستانا عامرا مساحته 200 دونم وقفا ابديا لمقام الباز الاشهب، وسيمنح الكيلانيون من اراضي الدولة لتعويض مافقدوه. وسيعاقب (الرعاع) في (مدينة القاسمية) عقابا جماعيا، وذلك بتركهم يتناسلون في داخل تلك الشعرة. خلال ربع قرن ظلت ال (30) كيلومترامترا مربعا كما هي، لم تزد ملمترا واحد، بينما عبر الساكنون حاجز المليونين. وبقيت مساحة البيت الواحد(144) مترا مربعا بينما كبرت عائلة موظف الطابو خلال هذه الحقبة من (12) نفرا الى (50) نفرا. كانت مساهمة الابن في هذا المعسكر البشري سبعة انفار (هو وزوجته وخمسة اطفال)، يعيشون في غرفة واحدة فوق السطوح مساحتها (21) مترا مربعا. اي بمعدل ثلاثة امتار للفرد الواحد.

***

مشرب صهيب

(في هذا الفصل يحدث اول اتصال بين سعدون الراهي ووكر للتزوير وايواء الهاربين من الحرب. يستيقظ صبي الامس مجددا في داخله)

لم يحقق الابن رغبة الاب في دخول كلية الحقوق والعمل في دائرة الطابو. وظيفة الجمل الذي يحمل ذهبا ويأكل عاقول لاتروق للابن. المعدل العالي الذي حققه في امتحان البكلوريا يسمح له ان يكون طبيبا او مهندسا. اختار ماهو قريب من عالم الارقام. وبعد اربع سنين تخرج مهندسا كهربائيا. وعين في دائرة كهرباء بغداد، فترك صيانة السندات، وانتقل الى صيانة المحولات وشبكة التوزيع. عاد صوت ابيه يبث باذنه نصائح الامس: (ان يكون متفرجا لاحكما، ان لايثرثر فيما لايعنيه، ان يسخر اصابعه للعمل، لا للاشارة الى ما لايروق له)، وكأي موظف في الدولة كان عليه ان يكون جزءا من النظام العام، وكمهندس ان يوصل التيار الكهربائي الى اية نقطة يؤمر بتزويدها بالطاقة، لا ان يكون له رأي في جدواها. النزعة النقدية لم تفارقه، دخلت في صلب عمله، فقد كلف بأنارة صروح الموت والحرب: نصب الشهيد وقوس النصر والجندي المجهول وبانوراما القادسية. في تقاطع تلك السيوف والتروس والقباب المشطورة وجد جثثا وجماجم تتدلى مثل ثمار متعفنة. هؤلاء هم الجسر الذي يعبر عليه الملاكون لتصفية حساباتهم. كان المطلوب منه تسليط انارة كافية عليها. وتم تكليفه بتسليط انارة قوية الى اكثر من خمسين جدارية للسيد الرئيس في القطاع الذي يتولى مسؤوليته في العاصمة. وكلف بتأمين خطوط الضغط العالي لشقق حلمية شيدتها (بويجز)الفرنسية على دجلة. كانت صدمة كبيرة. لم يكن يجرؤ حتى ان يحلم بها مسكنا. ويرى من الافضل ان لاتكون سكنا، بل تترك للفرجة، للعيون المتعطشة للجمال والأناقة ورؤية الشمس وهي تشرق من باطن دجلة، بحيث يقضي هو وعائلته فيها يومين فقط، ثم يخليها لمواطن آخر. بعد ان اكتملت وزعها السيد الرئيس على جميع القرويين الذين لعب معهم في صباه، وكانت الابواب تحمل اسما واحد (ابن عم الريس).

امام استمرارية الحرب كان لابد للرئيس من ابتداع امتيازات جديدة للضباط. لم تعد سيارات (الماليبو) و(تويوتا سوبر) مغرية، فمنحهم ضفاف الانهار، من رتبة (مقدم) فما فوق، لكن الضفاف سرعان ما امتلأت، فاقتطع للبقية من النهر نفسه. انتقل الجهد العسكري الهندسي (شفلات وحادلات وناقلات تراب) من جبهة الحرب الى بيوت المتعة. امتدت ألسن ترابية وجزر صناعية على عجل، وشيدت عليها مشتملات لأجازة نهاية الاسبوع. وحين ينتفض النهر يكون واجب المهندس ملاحقة المواقع البديلة، وايصال التيار اليها. وكان عليه ان يهب مع كل هبة للنهر. يسحب اعمدته واسلاكه، ويوصلها من جديد الى تلك الاقطاعيات المتقهقرة. وقد نال كتب شكر وشهادات تقديرية بعدد الممالك الخاصة لكبار الضباط والحزبيين ورجال الأمن، التي وفر لها الطاقة الكهربائية بزمن قياسي.راح يتعبأ من جديد، هذه المرة ضد نفسه. كان دور ابيه حفظ الملكيات، اما دوره فايصال النور اليها. الجمل يعيد نفسه.

***

نجحت الدولة بشكل مطلق في قمع السكن العشوائي، ولم يعد هناك متر سكني واحد خارج سجلات الطابو. بالمقابل وفرت للمواطن سكنا من نوع آخر هو (الخندق الشقي)، يجمع بين فكرة المكان والشرف الوطني، والذي يتوجب الدفاع عنه حتى الموت. ومادام هنالك عدد كاف من هذه الخنادق فلا توجد مشكلة سكن اصلا. وفي مرحلة لاحقة من الحرب اضيفت ميزة اخرى للخندق: اصبح مفتاحا للدخول الى سجلات الطابو. فاذا مات المدافع عن خندقه فسوف يعد (شهيدا)، عندئذ يستحق قطعة ارض تسمى (ارض الشهيد). وللوهلة الاولى وجد المهندس شيئا ضد المنطق، ذلك ان الشهيد لم يعد له وجود. هناك الكثير ممن رفضوا السكن في السواتر الامامية. هذا الرفض يعني شيئا واحدا هو(الفرار) وتحمل التبعية القانونية للقب (فار) اي هارب، والتي تجمع بالعامية العراقية (فرارية). وكان عليهم ان ان يجدوا حلا لوجودهم في البلاد المغلوقة الحدود والمزروعة بالاعين في كل مكان. اصبحوا خارج التغطية، ولايوجد قانون يحميهم. على العكس، هناك قانون يجرمهم ويوصلهم الى الموت. من هنا نشأت الاوكار السرية، لا للمحافظة على بياض الكف، بل للحفاظ على الكف نفسها. لقد حدث فراغ كبير في القوى العاملة في دائرته، بسبب الحاجة اليهم لسد النقص المتواصل في الجبهات، وتم استدعائهم للسكن في الخطوط الامامية.

يواجه المهندس مشكلة تتعلق باحتمال فقدانه السيطرة على القطاع الذي يؤمن له التيار بسبب نقص القوى العاملة لديه. جاء قرار تقليص العمالة المصرية وخفض نسبة العملة الصعبة في رواتبهم ليضيف ازمة جديدة. الله وحده يعرف في تلك الايام مايجري على الصعيد المالي، فمصاريف الحرب اكلت الاول والاخير. وكانت الكتب الرسمية تحث المهندس على انهاء عقود المصريين، وتعيين عراقيين من كبار السن او متقاعدين او معوقين او حتى نساء.

يعمل في القطاع الذي يشرف عليه المهندس عشرون مصريا واربعون عراقيا، وست عراقيات. وخلال ستة اشهر من المعارك تم انهاء عقد عشرة من المصريين وسحب عشرين عراقيا الى الجبهة دون تعويض. وفي احد الايام دخل عليه ثلاثة جامعيين يعملون في قسم الشكاوى ليلا. طلبوا ان يتحدثوا معه قبل انهاء عقودهم. لم يبق على اجلهم (هكذا يسمون يوم تخرجهم، الذي يعني زوال اعذارهم، وسوقهم الى الحرب) سوى بضعة اسابيع. كان المهندس معبأ اصلا، وضد فكرة اسكان المواطنين في الخنادق الشقية، ناهيك عن تعريضهم للموت. ولذلك فقد اصغى للشبان الثلاثة وهم يقطرون حذرهم وخوفهم. الكلام على درجة عالية من الخطورة. ولا يدري كيف وثق بهم وثقوا به. انهم يكادون ان يسلموه واحدا من اخطر الاسرار في تلك الايام. لقد وصل حديثهم شيئا فشيئا الى مركز قلق الدولة وجهازها الامني، عندما رجوه ان يبقيهم. اجاب ان بقائهم لابد ان يتم (بشكل اصولي). ينبغي ان تصل اليه ورقة رسمية بتأجيلهم، موقعة ومختومة من قبل المدير العام. قالوا سوف نسلمك الورقة باليد وعليها توقيع مديرك، وحتى وزيرك اذا ما تطلب الامر، فسألهم وكيف؟ قالوا: كل ماعليك هو ان تسمح لنا باستعارة بعض الاوراق من ارشيف الدائرة، لغرض عرضها على خبير. اصبح واضحا انهم يريدونه ان يسمح لهم بتزوير الوثائق. (حياتنا بيدك، ولن يمسك سوء، لان الاوراق ستكون صورة طبق الاصل، ولن يميزها اعتى شياطين الجن). حدثوه عن حسن باشية ومايصنعه هذه الايام، وعجز السلطة عن تحديد هويته ومعرفة اماكن عمله. (ولكي ترى بعينك فاننا ندعوك لالقاء نظرة على العالم الخفي. لن تصدق عينك. اننا نحمل دعوة مفتوحة لك من صاحب المكان الذي سيكون ممتنا لو قبلتها). انهم يدعونه لمقابلة مزور تروى عنه الاساطير. الشبح المطارد، الذي يطلق عليه في التقارير الحزبية (العقل المدبر). قبل المهندس دعوتهم. صعدت على الفور تلك المرحلة الذهبية من حياته ومراهقته، وهو امام نموذج لايقل خطورة عما فعله هو نفسه في صباه.

امام بوابة الجامعة المستنصرية سوف يقف المهندس بانتظار من يوصله الى حسن باشية. في الساعة المحددة تقف سيارة الاجرة جنبه، ويهمس سائقها كلمة السر. وسيركب المهندس ممتئلا بشعور انه يعود الى صباه، تصعد السيارة الطريق السريع ، ثم تهبط الى ساحة الاندلس والنوفوتيل، تمر من أمام المسرح الوطني، ثم مفرق الكرادة الشرقية.

في منطقة العرصات وفي أحد الدور المسيجة بأشجار النارنج تقبع حانة صغيرة منزوية يصعب رؤيتها او الاستدلال عليها تسمى (مشرب صهيب). ليس من السهل العثور على هذا الاسم. لا يوجد سهم يشير اليه. تحتل الحانة بيتا عتيقا بطابقين وستة غرف. وتشكل حديقة النارنج الجزء الاكبر من البيت. وللعثور على أسم الحانة ينبغي عبور هذا البناء والنبش جيدا بين الاغصان المتسلقة. سوف تواجه القادمين بشكل لافت للنظر لوحة كبيرة في الواجهة: مكتب دلالية صهيب. هذا المكتب وسياج النارنج يحيطان الحانة من كل الجهات بحيث تحجبها عن الشارع ولا تسمح برؤيتها. وللدخول الى الحانة يتوجب المرور أولا على مكتب الدلالية الذي يمثل بوابة خارجية للتمويه. وهنالك باب صغيرة في الخلف مغطاة بشجرة تين.

والحقيقة ان صهيب لا وجود له اطلاقا، وهو واحد من الاسماء المستعارة لملك التزوير في ذلك الزمان والمغامر الاكبر (حسن باشية). ومكتب الدلالية وهمي، وواحد من عدة مواقع لنشاط هذه الشخصية الاسطورية التي سببت أرقا لأجهزة الأمن.

يملك حسن باشية عذرا مشروعا في انشاء هذا الوكر. لم يدخل الحرب لكنها دخلت عنوة الى بيته فهدته. في الايام الاولى عاد أخوه الاكبر (مزهر) من المحمرة على شكل كومة لحم مبعثرة ملفوفة بالعلم الوطني. بعد سنة واحدة فقد ماتبقى من اخوته (كامل وحازم)، فلم يبق له سوى ثلاثة اخوات، اضفن السواد والحزن الى العنوسة. بعد هذه الثلاثية الدامية قرر حسن باشية، ومن طرف واحد فقط، ان لا يشارك في الحرب. وان لايسمح للتوابيت ان تمر ببابه. لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد رأى ابن باشية ان الحرب بدأت تطرق أبوابا أخرى ليست بعيدة عنه.

الدخول الى الحانة شبه سري، فهو مأوى للهاربين من الحرب. هنا تلتقي حفنة من المغامرين تتضامن بطريقة خلابة وطوباوية. سيمر بين الحين والآخر موظفون مدنيون وجنود وضباط وتجار وفنانون ليقدموا خدمات جليلة، ودعما ماليا جديرا بالفخر. هذا اللعب فوق حبال المشانق سوف يثمر عنه هامش رائع للمناورة أوالانفلات من دولاب الحرب.

أكتشف حسن باشية ان تزوير الوثائق الرسمية لا يتطلب شهادة عليا، بل شرطا واحدا هو الجرأة. وهو نفس الشرط الذي يحتاجه حامل هذه الوثائق.

في وكر صهيب يتم تزوير كافة الاوراق الرسمية اللازمة للبقاء على قيد الحياة: هويات الموظفين والطلبة، دفتر الخدمة العسكرية، الشهادات الدراسية، اوراق العمل، الأجازات الدورية، أوامر النقل، البطاقات الشخصية، التقارير الطبية، التقارير الحزبية، وغيرها.

فتح له الباب فوجد نفسه داخل صالة فسيحة تملؤها طاولات الخمر، وحوارات الندماء ودخانهم. لاحظ حضور (العرق) كمشروب مفضل. هنالك ما يكفي من العلامات الدالة على (براءة) المكان: شهادة الفندقة والسياحة، تأييد وزارة الصحة، كتاب شكر من بلدية العاصمة، صورة مكبرة جدا (80 في 50) سنتمتر لحسن باشية مع السيد الرئيس في القصر الجمهوري، صور عديدة للسيد الرئيس بالزي العسكري، صورة للعاملين في الوكر بالزي العسكري وهو يستلمون انواط الشجاعة من يد السيد الرئيس، خارطة للبلاد و للوطن العربي، شعار الحزب وأهدافه، صورة للأمين العام للحزب الاستاذ ميشيل عفلق، الوجوه

والاسماء الشفافة للنادلين، الصلبان على الصدور والاسماء. وصل حسن باشية الى ذروة جرأته في تصميم هذا الوكر. حتى الزيارات التفقدية لرجال الامن لم تكن تقلقه. بعد بضعة زيارات توقف وكلاء الامن، معتبرين المكان واحدا من قلاع الحزب والثورة.

السائق الذي يرافقه قاده الى طاولة فارغة. ما ان جلس على مقعده حتى وجد من يضع امامه صحنا من الباقلاء مع ليمون مقطع الى شرائح، وربعية عرق. لم يدم انتظاره طويلا، بعد اول كأس، نزل حسن باشية من ورشته في الطابق العلوي ومد كفه ليصافحه.

يصعب القول ان لقاء الاثنين هو اتفاق محض، هناك قدر منه يمت الى الصدفة. حضر المهندس وهو يحمل رغبة كبيرة في رؤية صباه، عبر وجه جديد سمع عنه الكثير من الاساطير. لقد تبدل المهندس كثيرا بعد زواجه ومجيء اطفاله الخمس. كاد ينسى ذلك الصبي المراهق المشبع بروحية الفيضان. هل سيلتقيه في هذه الحانة؟ يتقاسم الطاولة وجهان ينتظر كل منهما الفرصة للبوح بسره للآخر. حين يتعذر وقوع المصادفة، فلا مفر من صنعها. في لحظة صعد خاطر مشترك. يستطيع المهندس سعدون ابن القاسمية ان يفعل الكثير للوكر المهدد بالافلاس. حدثه ابن باشية باقتضاب عن المعضلة التي تواجه المشرب: هناك صعوبات مالية تهدد باغلاق المكان، اكثر من خمسين هاربا يعيشون هنا بلا دخل، فهم عاطلون عن العمل. هناك صعوبة في دفع الأيجار وتوفير المشروب والطعام ودفع اجور الماء والكهرباء. المساعدات التي يقدمها المحسنون لاتكفي لسد النفقات واعالة هذا الفصيل من المغامرين. خصصت الدولة خمسة أجهزة للبحث عنهم. أنهم مهددون على الدوام. اذا فلتوا من وكلاء الأمن تتابعهم وكيلات الأمن. الدولة جندت حتى بائعات الخضار. اذا بقي الرجل اكثر من سبعة ايام في بيته يتم التبليغ عنه. المنظمة الحزبية تتابع سير المعارك، وقواطع العمليات، والاجازات المقطوعة، وتعرف موعد الالتحاق بالوحدة العسكرية. العدادات تبدأ بالاشتغال منذ لحظة الوصول. كل من لا يرتدي اللباس الخاكي فهو مرصود. اين ينام وكم يوم يلبس ثيابه البيضاء.

لم يبق في البلاد سوى بضعة اوكار تأوي من لايريدون السكن في السواتر والملاجيء. قرأ في وجوههم تفاصيل المحنة، فخجل من همومه الشخصية. كان عليه ان يتخذ خطوة جريئة.

لابد ان يعود المهندس على صباه، حيث القوة الدافعة المتهورة، الغائبة عن الوعي الى حد كبير. سوف يمزجها بالخمرة .في ذلك الركن سوف يجد آذانا ربانية، اصغاء من النوع الذري، حيث تسمع ادق التأوهات، وشكاوى القلب الجريح. هنا يختلط السمع بالخمر، فيتقهقر اليأس، وتفيض النفس مثل قدر مغلي.

هنالك رغبة عارمة للتذكر وللشرب. كلما فرغ كأسه يملأه حسن من جديد. الخمرة دواء الألسن المتخشبة والاصابع المترددة. منذ زمن طويل وسعدون الراهي يسير الى الوراء. كل يوم يخسر قدرا من ذاته. الفرصة مواتية لتعديل المسار. بشخطة قلم سوف يحقق قفزة يمسح بها كل هذا التراجع. تقول الخمرة: (افعل ما يعيد النار الى موقدك). سوف يبوح بسره لحسن باشية. هل ترى هذه الاصابع ياحسن.

(لمن هذه الاصابع الناعمة؟) سأله حسن بروحية الخمرة ذاتها.

(انها اصابعي، عندما كنت صبيا، انها لا تقل جرأة عن اصابعك) اجابه المهندس وقد لاحت تباشير افق جديد في محياه. ثم اضاف وقد شع نور في مقلتيه ولثم اصابعه: (لقد عادت الي اصابعي، لا ادري، يا حسن، من اين أتى السحر: منك ام من خمرتك؟).

كشف سره بنشوة خالصة، بهذه الاصابع خط سجلا مزورا، ودسه بين سجلات الطابو الرسمية. اعاد تفاصيل الفعلة وما رافقها من قلق وترقب: كيف مر من وراء ظهر ابيه، كيف تسللت كفه الى مجرات الاختام في الوقت المناسب، وكيف طبع في ذاكرة الاصابع تواقيع الموظفين، الذين يصعب الالتفاف حولهم، بعد ان رسمها لألف مرة، قبل ان يصبها في السندات. امسك حسن بكف نديمه ووضع قبلة على كل اصبع من اصابع الكتابة (السبابة والوسطى والابهام)، فازدحم اللهب في الانامل واضاءت من جديد. جاءت اللحظة المنتظرة ليقدم حسن مخلوقاته المهددة بالانقراض. تقدم اليه الندماء الواحد بعد الآخر ليحيوه ويقرعوا كأسه. اعيد ترتيب المكان ليكون طاولة واحدة. وجدهم كأسا وفما واحدا. وكان بينهم ثلاثة جامعيين يعملون معه. عانقهم وشكرهم على هذه المفاجأة. الهاربون من حتفهم ليس لهم سوى هذا المأوى.

امامه فرصة ليكبر من جديد، فتصغر الاشياء من حوله. الغول يفتك بألطف المخلوقات، وليس لهم سوى هذا المأوى. نظر في العيون والافواه المليئة بالحرمان. هل يتركهم وحدهم يخاطرون.

استيقظ صبي الأمس في داخله، يتوجب ان يشارك في تزوير وثائق رسمية، هذه المرة سيفعلها من وراء ظهر دولة بوليسية تماما. في طاولة خمرية يرتفع فيها اكثر من خمسين كأسا، يقرر تشغيل هؤلاء الهاربين من السكن في الملاجيء الشقية ومشاركة الجرذان يومياتهم.

هنالك هامش اقتضته الحرب، يسمح بتشغيل المعوقين على الملاك المؤقت. استخدم المهندس الصلاحيات الممنوحة له فعين اعضاء الوكر عمالا أجراء غير ماهرين. وضع لكل منهم أجرا يكفي للخبز والخمر والسجائر، ويفيض منه شيئا للتكافل في المشرب و للجيوب المسكونة بالعناكب، والافواه الفاغرة في البيوت، والزيارات الشهرية لبيوت الأغاثة الروحية (الهوى). كان عليه ان يسمح بتزوير الكثير من الاوراق. في ورشة صهيب فتح ملف لايبعد شعرة واحدة عن حبل المشنقة. حرر أبن باشية وثائق صحية للعمال تفيد انهم نصف معتوهين، ولهم سجلات في مستشفى الرشاد للامراض العقلية (الشماعية)، وان جميع حواسهم مختلة ما عدا حاسة السمع. وارفق معهم تقارير صحية تفيد انهم غير قادرين على تمييز العدو من الصديق، بسبب خلل في شبكية العين. في ذات الوقت يؤكد التقرير على سلامة أكتافهم وقدرتها على حمل سلالم الكهرباء المزدوجة. سجل كل منهم بعنوان عامل درج.

خاطر المهندس بوظيفته، وربما حياته من اجل المشرب وروداه. كان عليه أن يتستر على هروبهم من الحرب. بعد ان يضع المهندس أمضاءه، سوف يضع نفسه على اعتاب مواجهة مع اشرس اجهزة الدولة، ويربط مصيره بحسن باشية. سوف يتحول الى الراعي الرسمي لهذا الوكر وأحد دعائم ديمومته.

***

قبل دخول الحمامة

(زواج سعدون الراهي من سمية الحلي، وتحوله الى أب لخمسة اطفال، بالضد من رغبته)

قبل دخول الحمامة المرتقبة، نثر سعدون الراهي بعضا من ريشاته في زوايا العش. وضع اشارة دالة على ذاته، يعلن فيها موقفه من مجيء الاطفال الى الدنيا. ثبت لوحة على الجدار الذي يتكئ عليه سرير العرس . كان قد كلف مصورا محليا بعمل كولاج داخل اطار خشبي. وضع في الوسط صورة لقبر ابي العلاء المعري، تبرز الشاهدة (هذا ما جناه علي ابي، وما جنيت على أحد)، تحيط بها صور فوتوغرافية لوجوه يشتركون مع ابي العلاء بنفس المصير (انهم بلا ذرية) وهم: المسيح، بيتهوفن، تشيخوف، سلفادور دالي، مظفر النواب، عبد الكريم قاسم، الشاعر اليوت، ادغار الان بو، اسحق نيوتن، تيسلا، دافنشي. المجموع اثني عشر معصوما من الانجاب، يراهم رمزا للشجاعة وجديرين بالحب والتقدير.

يريد ان يفضح بشكل شبه علني عن اعجابه بهذا الصنف من البشر، الذين لم يرتكبوا (خطيئة التكاثر)، ولم يساهموا في تقليص الفراغ اللازم للأبداع، وراحة البال.

لوحة الأثني عشر هي اول شيء وضعه في عش الزوجية. ثبتها فور انتهائه من صبغ الحيطان، وقبل أن يركب سرير العرس. بعد ذلك وضع مخططا لتوزيع حاجياته الخاصة ومتطلبات مزاجه. كان حريصا على تثبيت بعض المقتنيات التي يفصح فيها عن لونه وطعمه ورائحته، اشارات تساعد الزوجة على الدخول اليه والتزامن معه دون عناء. ترك في العش فراغات كبيرة لريش الحمامة. وضع في الحسبان ان مقتنيات المرأة تفوق الرجل. كانت اشياؤه محدودة للغاية. في خزانة الملابس حجز لنفسه خانة واحدة من الخانات الست. لم يكن لديه سوى بدلة جديدة، هي ذاتها التي لبسها يوم العرس. وهنالك سروالان يستخدمهما عند الذهاب الى العمل، اما الباقي من الملابس فمعظمها قديمة وترتبط غالبا بذكرى ما: كنزة الصوف التي حاكتها اخته، حذاء (فان هاوزن) اشتراه من اورزدي باك عند مباشرته بالوظيفة. كان يعتز بثلاثة ازواج من جواريب الجيش الخاكية، رغم انه ليس من عشاق الجيوش. ومن والده ورث قميصين وجاكيتة (بصفين من الازرار) كان يرتديها في آواخر ايامه في دائرة الطابو، اسطوانات قديمة لام كلثوم وجهاز غراموفون، طاولة صغيرة للكتابة، خزانة خشبية للكتب برفين، ماكنة يدوية لقص الشعر يضعها بيد اخته كلما غطى الشعر أذنيه.

هنالك قلم حبر (باركر) هدية من مدير الطابو لمساهمته في نسخ السجلات التي أتلفها الفيضان، وهو ذات القلم الذي سيخط به سجله المزور، مازال يحتفظ برعشات اصابعه وعرق القلق المصاحب لفعلته. سوف يخرجه من غمده كل مرة يكتب فيها شيئا فاصلا في حياته: توقيعه على عقد الزواج، ملأ استمارة الدخول الى الجامعة، وطلب تعيينه في مديرية كهرباء بغداد. وسيكتب لاحقا كافة المراسلات مع السيد وزير الاسكان للحصول على قطعة ارض.

قبل ان يوقع عقدالزواج مع الآنسة سمية الحلي، اتفق معها ان لايكون بينهما اطفال الا اذا توسعت الغرفة. بمعنى ان يحصل على سكن اكبر .يعلل المهندس ذلك بان العش الذي اعده هو لطيرين فقط، وأن السرير للنوم وللحب، وليس للتفريخ.

ولكن يبدو ان قصة آدم وحواء تعيد نفسها، كما في بدء الخليقة: من السهل نقض المواثيق، واسهل من ذلك أختراع الاعذار. عش الزوجية لم يتوسع ملمترا واحدا، ولكنهم توسعوا من نفرين الى سبعة انفار. بقي الزوج وزوجته لحقبة طويلة يؤنب كل منهما الآخر، ويحمله المسؤولية: جاء المولود الاول والثاني بسبب قلة الخبرة : تأخر الانسحاب و انفجار اللغم قبل الخروج من الارض الحرام، والثالث بسبب

الخمرة، والرابع خطأ في الحساب، اما المولود الخامس فقد جاء بعد الرابع بدقيقتين، دون سبب يذكر الا ليكون توأما.

بعد ان اخذ الاطفال الخمسة مكانهم في الغرفة (خمسة في خمسة متر)، رسم مخططا، وحسب حصة كل فرد منهم. شمل التوزيع: الارضية والحيطان والرفوف والخزانة. مع كل طفل كانت اشياؤه تنقص، لم يعد هناك مكان للطاولة ولا للمكتبة، وفي خزانة الملابس لم يبق له سوى خانة واحدة. امتلأت الجدران برغبات زوجته: صورها قبل وبعد الزواج، صور امها وابيها وبقية اهلها. لم يبق في الجدار سوى صورة (ابي العلاء واصحابه)، التي تسميهما صورة الاثني عشر عاقرا. بعد عشر سنوات ازيلت من الجدار، ووضعت محلها صورة بنفس الحجم للاطفال الخمسة وهم يبتسمون، ومكتوب تحتهم (الاطفال احباب الله). بقي المهندس لفترة طويلة يكلم نفسه، او يسأل الندماء في الحانات التي يرتادها: ان كان الله يحب الاطفال فعلا؟ وغالبا ما يسمع منهم الانكار: هذا ليس صحيحا؟ الله يحب الكبار فقط، او بالاحرى ينتظر الاطفال حتى يكبروا ليحبهم. امتد الحديث الخمري الى بدايات الخليقة. وصل الى غضب الرب وطرده آدم وحواء من الجنة. قدم المهندس تعليله لغضب الله. عب كأسه، لم تكن الخمرة مغشوشة، وكانت لها القدرة على اطلاق اللسان: ((شخصيا لا اعتقد ان غضب الرب يعود الى ممارسة الجنس في الجنة. الله ليس ضد الجماع. الاحتقان الالهي يرجع الى ان آدم وحواء اصبحوا خالقين للبشر. الله يشعر بالاحباط من المخلوقات التي ينتجها الجماع البشري. حيث يمكن لأي اثنين في مكان منعزل، ومهما كانت درجة تفاهتهم، ان ينتجوا شخصا ثالثا، بمجرد وضع ساق على ساق)). تحدث عن تجربته الشخصية. خلقت زوجته ، بارادة وتصميم مسبق، خمسة من البشر دون اذن منه، ولا حتى من الرب نفسه. وهذا يعني خمسة اسرة في غرفة لا تزيد عن خمس وعشرين متر مربع، وخمسة مقاعد مدرسية، ومثلها في الباص العمومي، وخمسة حقائب، ودفاتر، واقلام، وحقن الامراض المتوطنة، وسراويل، وملاعق، وصحون، واكواب حليب، ووووووووو ، من كل شيء في الدنيا. حسب حصته في الغرفة قبل دخول الزوجة وحصته بعد الطفل الخامس، وجدها (3) متر مربع.

***

الورقة البيضاء

(جلوس المهندس لكتابة رسالة الى وزير الاسكان، وتحذيرات زوجته من خلط الخمرة بالحبر)

(ما الذي يشغلك؟)

حين تسأل زوجته فالقصد هو التصفير، للتأكد من عدم وجود شيء مخفي. تريد ان تذكره بأنها شريكته حتى في الخواطر. تدور من حوله: ترى طاولة الكتابة، القلم المتردد، الورقة البيضاء، النظرة الحائرة، لكنها لاترى مايدور في الرأس.

قال: أريد أن أكتب خطابا.

لا تبدل، لازال العالم كما هو. تمط شفتيها وتهز رأسها. تجيد سمية رسم ما في داخلها في نظرة واحدة. لا يعرف كيف توصلت الى هذا الفن. رمقته بنظرة رأى فيها ثلاثة معان: السخرية والامتعاض واليأس. مرت بطريقها على كتبه المبعثرة والمفتوحة على آخر الصفحات. كتب سميكة توحي بالكسل والميل الى الأفلاس. تكره سمية ثلاثة أشياء: الكتب والخمرة وجيوب زوجها.

سألته: لمن تكتب؟

أجاب: الى شخص مهم جدا؟

وجدتها فرصة للتحرش به: هل ستكتب الى سارتر؟

شيء تريد ان توصله له على الدوام، تريد ان تعبر عن وجعها ويأسها منه.

تواصل تذمرها باضافة توابل جديدة : لا تنس أن تطلب من سارتر حذاءا شتويا لمريومة، وعلبة حليب للرضيعين، وآخر ما كتبه عن (الافلاس والعدم). يحاول ان يتلافى هذا النوع من التذكير بالمطالب المؤجلة. التوأمان هما آخر العنقود. لم يتلقيا رضاعة طبيعية. لأسباب شكلانية توقفت زوجته عن هذا الواجب. استهلاكهما الغير متوقف للحليب جعله يفكر بالأستعانة بأثداء خالاته. يعود الى موضوع الكتابة.

قال لها: اعتقد انني سأكتب الى شخص تثقين به اكثر من الله.

وجدت العبارة استفزازية، تخفي قدرا من الغمز مع مسحة من الكفر لاتسمح بتداولها في البيت. ينبغي ان لا ننسى ان سمية ترد الصاع صاعين: انا مؤمنة ولست كافرة مثلك. لا تفتري علي. حاول كعادته امتصاص تلك الصدمات: لا تغضبي، أقصد انك لو عرفت لمن سأكتب فسوف تطيرين من الفرح. تغيرت نبرة صوتها، أصبحت اقل حدة وأقرب الى العتاب: أطير من الفرح؟ لم أتعود سوى الزحف على البطن. حدق فيها طويلا. بحث في وجهها عن شيء قديم. أين أختفت تلك الضحكة العذبة ؟ ما الذي يعيدها الى وجنتيها؟ أخبرها أنه مصمم هذا اليوم ان يجعلها سعيدة. طوقها بذراعيه، فانزلقت منه:

قل ماعندك بلا لف ولا دوران. عندي خمسة اسرة، وخمسة عفاريت على ان اجبرهم على النوم.

قال لها: سوف اكتب خطابا لوزير الأسكان.

دخلت مفردة (الاسكان) بصيوان الأذن، تردد صداها في الجدران. تبدلت وقفة سمية، ارتخت قليلا. الفم المتردد انفرج الى أبتسامة وردية. الوجه المتجهم تغيرت معالمه. دبت الحركة في العينين الضامرتين، وأقبلت اليه : ماهو المطلوب مني؟

طلب منها ان توفر جوا للكتابة. أن تكون معه لطيفة لساعتين فقط. أخرج قنينة خمرة (عرق) كان قد أخفاها وراء الكتب. يحتاج ان يشرب لكي ينجز هذا الخطاب.

لاتخفي سمية نفورها من الخمرة في الاحوال العادية، فكيف تقبل له ان يشربها وهو يكتب لمسؤول كبير في الدولة. اعترضت طريقه، فحاول ان يوضح لها الفرق بين ان يكتب للوزير وبين ان يجلس معه على طاولة خمرية واحدة. لكن سمية لم تقتنع.

قالت: هل ستخاطب الوزير وانت سكران؟

قال : وما ادراه ؟

قالت: سوف يشطح قلمك.

قال: لا تخافي انا اعرف حدودي جيدا.

تركته وشأنه قبل ان يقلع عن الفكرة، لكنها حملته المسؤولية قائلة: لاتنسى انني حذرتك.

هذه هي المرة الاولى التي يكتب فيها خطابا للدولة في أعلى مستوياتها. يفتش في حيطان غرفته عن نقطة البدء. يفتش في عيون سمية. في قلقها ورواحها ومجيئها. يبحلق في عنق الزجاجة قبل ان يفتحها لعله يعثر على البداية. يفتش في الورقة البيضاء عن منفذ.

تخرج سمية فراش الصغار وتنشره على السطح. تدفعهم الى النوم مبكرا. يحتجون على مساواتهم بالدجاج، لكنها تعرف كيف تلوي أعناقهم و تجعلهم دجاجا بالقوة.

يحاول أن يمضغ الفكرة. ينظر في سقف الغرفة ليعثر على كلمة. يخرج الى السطح. يخطو بضعة خطوات. يتطلع في الحي، ضجته، دثار الفقر، تل القمامة، الحيطان المتلاصقة، تراكم الاجيال فوق بعضها، وصعوبة فك الأشتباك. كيف يمكن ان يتنفس العقل وهو مدفون تحت أكوام الزبل واسراب الذباب؟ ينتظر نومة الاطفال علها تفرج عنه.

انتبه الى الهدوء المخيم على القسم التحتاني من البيت. استفسر من زوجته عن قطار العائلة، فقالت انه تحرك ظهر هذا اليوم ونزل ركابه في مستشفى الولادة. وصفت الهدوء الفجائي بالسكون الذي يسبق الغارة: الزيارة المتوقعة وغير المتوقعة للأهل والاقرباء. دخول فجائي للقطار العائلي بكافة عرباته، ثلاثة اجيال. احيانا يتجاوز العدد خمسين راكبا. من المتوقع ان يعود القطار بعد ساعات. (قدرية) زوجة اخيه تنتظر مولودها الثاني عشر في مستشفى النعمان بالأعظمية، والكل ينتظر معها.

هو :هل تظنين ان الغارة ستحدث هذا المساء ؟

هي: ألله أعلم، يعتمد ذلك على الولادة.

هو: كيف تنجب قدرية وقد أجريت لها عملية عقد الرحم؟

اجابت زوجته بنبرة جادة تماما، لقد ذهبت معها الى العيادة، وشهدت الفحوصات التي اجرتها الدكتورة (ضمياء)، والتي كانت هي الاخرى محتارة، ولا تعرف من اين دخل الحيمن، لقد سدت جميع المنافذ. هل يمكن ان يكون قد دخل من الفم؟

يتمنى ان لا يأتي المولود قبل ان ينهي الخطاب. هنالك حزمة اوراق بيضاء. راح يفتش عن سبب لهذا التلكؤ. دفع قلم (الجاف) بعيدا. تذكر قلم الباركر العتيد، ارث دائرة الطابو، لابد أنه يحمل ألهاما. أخرجه من الصندوق القديم. غطسه بدواة الحبر، وشفط كمية تكفي لسرد قصة أيوب. نزيف من الكلمات. خمن انه سوف يكتب ويمزق. تسلح بالخمرة وقلة الحيلة وانسداد الآفاق. وضعت سمية الثلج أمامه، وتركته لوحده. فتح زجاجة الخمر. عمر له كأسا وبدأ بالتحرش بالورقة البيضاء. نقرها بأصبعه. خط بضعة كلمات لا رابط بينها. يخربش هنا وهناك. وضع بدايات تقليدية ثم مزقها. (تحرص الثورة على توفير السكن اللائق لجميع المواطنين، وبما انني واحد من المواطنين، فانني أطمع ان يشملني هذا الحرص). هذا البداية قائمة على القياس الارسطي . المقدمة الكبرى: الثورة توفر السكن للمواطنين، المقدمة الصغرى : انا مواطن، النتيجة: انا استحق السكن. تحتاج هذه البداية الى أيمان وزير الاسكان بأرسطو، وهو احتمال ضعيف. لم تعجبه البداية فاقلع عنها.

راح يضاعف جرعات الخمر للتغلب على موجات الضآلة التي تحاصره. سوف يشربها (سادة) بلا ماء. البيت ساكن وسعدون وحده، فقد نام الجميع. بعد ساعات سوف يضاف الى المعسكر نزيل جديد. مازال صراخ المولود باطنيا والصخب بعيد. يريد ان يتعجل السكر قبل ان تداهمه الغارة. دفع الكأس الى جوفه. سكبه مثلما يسكب التيزاب. انتفض لسانه وارتطم بسقف فمه. حاول تهدئته بالنفخ. بتهويته باصابعه. اطفأ حرقة لسانه بشريحة ليمون مالحة. وبدأ بالكتابة.

(معالي وزير الاسكان:

أرجو النظر بعين العطف الى رغبتي الملحة في مد جذوري في هذه الارض. هنالك حلم يراودني منذ الصبا، واود ان اراه قبل موتي. ....)

بين للوزير رغبته القديمة في رؤية اسمه في سند الطابو محاطا بالاختام الرسمية. ذكر في خطابه رقمين هما مساحة البلاد ونفوسها. ثم وضع احدهما فوق الآخر ليحسب حصته النظرية. وكانت رقما هائلا يتجاوز العشرين دونما، لكنه لم يطلب من الوزير اكثر من مئة وخمسين مترا مربعا له ولعائلته. كتب عن متاعب يخجل ان يصفها، وعن منغصات الصيف على السطح حيث ينام خمسون نفرا. وكتب عن غارات الاقارب النهارية، وعن متاعب اخرى شخصية.

***

المواطن الخارق للعادة

(وزير الاسكان يشرح لسعدون الراهي كيفية الصعود في سلم العطايا للوصول الى سند الطابو)

وصله رد وزير الاسكان.

وضع الظرف الرسمي امام عيني زوجته: احزري ممن؟ رأت الابتسامة على وجهه، فحزرت دون ابطاء.

عاد يسأل: وماذا تتوقعين؟

اجابت: لست متفائلة، ولا اخفيك انني خائفة. حين مسحت خزانة اوراقك، وجدت النسخة الكاربونية من رسالتك الى الوزير، قرأتها مرارا.

غمرته بنظرة عتاب، غطتها بابتسامة غفران شعت على خديها. سوف تتغاضى عن الكلام الذي قاله عنها، فهو اهون مما قاله عن اخوته واولادهم، وما يخرج عنهم كل ليلة من ليالي النوم على السطح، وهذا بدوره اهون بكثير مما ادلى به عن حصته في البلاد، كيف تجرأ ان يخط ذلك:

(لابد ان الخمرة هي الحبر الذي يسيح من قلمك. لقد ذهبت الحروف بعيدا، وكتبت كلمات لا تصلح لمخاطبة المسؤولين. بدأت بالدستور والمساواة بالحقوق، ثم وضعت مساحة البلاد فوق نفوسها واستخرجت منهما رقمك المدوي(خمسين الف متر مربع)، والمحت على استحياء انه حصتك النظرية. بدأت منتفخا مثل بالون، ثم سرعان ما انكمشت، فطالبت بمئة وخمسين متر، ثم واصلت الانكماش فطلبت لنفسك ثلاثة امتار (لزوم القبر)، انك حتى لم تفكر بقبري. سوف اغفر لك ماقلته يا حبيبي، ولكني لا اعتقد ان الوزير سيقبل بتلميحاتك تلك، كأنك تضع الدولة في قفص الاتهام).

طبع على خدها قبلة اعتذار، معللا ذلك بالغرض الاخير من الرسالة.

بعد ان لانت قليلا سألها: ولو كنت مكاني، فماذا ستقولين للوزير؟

اجابت: في هذه الحالة، سأذهب الى جارتنا الارملة (ام مجيد)، واسألها ان تضع نفسها مكاني.

فسألها: ماذا تتوقعين من (ام مجيد) ان تقول؟

اجابت: الارامل افضل منك ومني في هذا المجال، لن تقول مثلك: معالي الوزير، بل ستكتب:مولاي، او سيدي الوزير، لتشعره انها تخاطب ولي الأمر. ولن تقول انها موظفة في الدولة، فالوزير ايضا موظف في الدولة، بل ستقول انها ارملة حتى لو كانت موظفة، اذ تتحاشى اية مساواة، وانها مكسورة الجناح، بلا ناصر ولا معين. ولا تقول انها تريد ان مد جذورها في الارض، بل تريد ما يستر عليها، وعلى اطفالها اليتامى. وسوف ترفق مع الرسالة بضعة دمعات.

فقال سعدون بطريقة لاتفصح عما بداخله: معك حق، الفرق واضح. في الرسالة القادمة سوف استعين بارملة حتما.

قالت: هل تسخر مني؟

قال: بالعكس، واعدك انني سأصحح الخطأ.

قالت: وهل بقي مجال للتصحيح. لقد وصل الرد، ولا اتوقع ان يكون ايجابيا، اذا لم يكن مليء بالغضب.

قال: انت تبالغين في خوفك؟ الوزير ليس بعبعا، انه بشر مثلنا.

فقالت: اتمنى ان اكون مخطئة.

ثم اخرجت زفرة من صدرها، واضافت: لم يبق سوى لطف الله، توكل عليه وافتحها.

رد السيد وزير الاسكان

الى: سعدون الراهي، الموظف في دائرة الكهرباء:

(تم الاطلاع على رسالتك. ونحن اذ نعرب لك عن تفهمنا وتعاطفنا الشخصي مع معاناتك، الا اننا نحب ان نعلمك ان الاسباب المذكورة في خطابك لا تكفي لوحدها للحصول على قطعة الارض. بل اصارحك بالقول: انها ربما تأتي في الدرجة الدنيا في القائمة. وعليك في هذه الحالة البحث عن اسباب اخرى هامة، ربما تملكها وانت غافل عنها. الاجابة على السؤال التالي يسهل عليك الكثير:
هل انت مواطن عادي؟
بمعنى: هل انت انسان بسيط، بلا مزايا فريدة، وتريد ان تعيش مثل بقية الخلق؟ اذا كان الجواب نعم فعليك ان تضع نفسك في قعر السلم.
ينبغي ان تكون صريحا مع نفسك، والا سوف يسحبك الوهم بعيدا، فتفشل في تقدير مكانك في السلم، و الزمن اللازم للانتظار.
هنالك سلم للعطايا (ومنها الارض) مصنوع من مناسبات الثورة والحزب. والصعود والنزول يعتمد أساسا على فكرة الحضور والغياب. الحصول على العطايا يتطلب ان يكون لك حضور في نشاط الحزب والثورة، وغياب في نشاط أعدائها.
لقد وفرت الثورة المناخ اللازم لنمو المزايا الفريدة، ولابد انك اكتسبت شيئا منها، ولكنك بسبب العادة او ربما التواضع لم تذكرها في خطابك. سوف اعطيك امثلة تساعدك في التقرب من هذا الأمر.
حاول ان تتذكر مثلا حين كنت طالبا. هل سبق وان حضرت في احتفال عيد الحزب؟ واذا كنت رساما هل خطر في بالك ان ترسم السيد الرئيس؟ هل شاركت في نشاط طلابي سابق؟ مسرحية، مهرجان، سفرة للاتحاد الوطني لطلبة العراق؟ هل سبق ان غنيت للحزب، او في واحدة من الاعراس الوطنية التالية: الثامن من شباط، السابع من نيسان، او السابع عشر من تموز، الثامن والعشرين من نيسان؟ واذا كان صوتك لا يصلح للغناء، هل حاولت ان تكون في الكورس او تمسك طبلا مثلا؟ هل سبق ان رقصت؟ هل راودتك هذه الرغبة وانت ترى جنودنا البواسل يقتحمون مدينة المحمرة؟ هل بكيت من الفرح وانت تراهم يمزقون فيالق الفرس المجوس ويحيلونها رمادا؟ الرقص ليس عيبا هنا، بل العيب هو ان لا ترقص.
كل هذه المشاعر والتعبير عنها يمنحك نقاطا تجعلك قريبا من غرضك . ...).
يواصل الوزير مسح الممكنات لتقريب سعدون الراهي من طلبه، يحاول بأمانة ان يهديه الى الطريق الاقصر. يؤكد له على وجود فرص كافية للمواطن كي يخرج من خانة العاديين. ان كان سعدون الراهي نفسه غير قادر، بسبب عوق ما او خلو من الموهبة، فهل ان اطفاله غير قادرين ايضا؟ هل الاطفال الخمسة ينتسبون الى منظمة الطلائع؟ الا يملك اي منهم موهبة من نوع ما، يمكن ان تتفتح في الاعراس الوطنية، فتعوض عن الاب، وتعينه على الخروج من حالته العادية؟ هل ربى المهندس أطفاله على عشق السيد الرئيس، وانتظار عيد ميلاده ؟ هل رباهم ان يراقبوه مثل هلال عيد الفطر، ويتمنوا تقبيله؟.

هناك طبعا وسائل تعبير اخرى ليست ممنوعة على اية حال: من لا يجيد الرقص يستطيع ان يصعد فوق سطح داره حاملا رشاشا ليفرغ في الهواء شريطا من الرصاص. هذا النوع من الاشهار سوف يدفع المتشككين والهاربين والذين يضمرون رأيا آخر الى الخجل، وسوف يعودوا نادمين ليلتحقوا بأخوتهم في جبهة القتال.

(كل طلقة في الهواء نقطة لصالحك، وهناك من يعد الطلقات، ربما كان جارك واقفا فوق السطح، متطوعا او مكلفا، وسيعد الدقائق التي بقيت فيها اكتافك تهتز طربا).

وهناك حوادث تجعل الصعود في سلم العطايا بشكل قفزات.

يشير الوزير الى حادثة وقعت في القاسمية، ويطلب منه ان يعود بذاكرته ليحدد نوع المشاعر التي انتابته:

(اين كنت عندما تم تنفيذ حكم الشعب بأحد الهاربين من حربنا العادلة؟ هل انتبهت الى تزاحم الرفاق في الحزب لنيل شرف الرصاصة الاولى في الصدر الجبان الخائن).

يضعه الوزير امام ذلك اليوم بكل سطوته. هل يتذكر (ساحة 55) في جانب الرصافة؟ حيث سمح للناس ان يتفرجوا عليه. ترك معلقا هناك ثلاثة ايام، حتى غدا معيارا للنقاوة الثورية، وفرصة لصعود سلم العطايا مرة واحدة. وضعت الدولة عيونا تراقب عن بعد. هناك شيء يدعو للفخر. مرت الايام ولم يتقدم احد لانزال الجثة. وحين بدأت تتعفن صار الناس يغيرون طريقهم.

يحاول الوزير ان يدفعه الى لحظة الذروة التي يسميها (الانفلات) من اسر الخصائص العادية. هنا تبرز الفكرة بقوة ويلمع معدن الرجال بوضوح اكبر. ماذا سيفعل سعدون وهو على مقربة من جثة المتخاذل؟ هل سيغلق عينيه ام يفتحهما على مصراعيهما، هل يتقرب منه ام يتراجع الى الوراء؟

رغم ان الوزير يضع خيارين امام المهندس الا انه يفترض ضمنيا ان الامر محسوم باطنيا، ولا يحتاج سوى قدحة بحجم بؤبؤ العين ليدرك انه امام لحظة الانفلات، امام فرصة وفرتها القيادة الحكيمة للمواطن كي يقفز من العادي الى السوبر. سوف اترك الوزير بنفسه يوضح ذلك لسعدون الراهي :

(وبدل ان تبتعد عن الجثة المدلاة توجهت اليه بقدمين واثقتين، أصبحت قريبا من وجهه، عليك ان تعلم انه كان معلقا بالمقلوب، مما يعني ان وجهه سيكون في متناول يدك. تخيل انك تكور في فمك كمية من البصاق، وتضعها في جبينه، ويصادف في تلك اللحظة ان تراك العيون المكلفة برصد لحظة الانفلات، ويسجل موقفك الشجاع هذا. هل تدرك ان القيادة وضعت هذه الجثة كفرصة ذهبية امام فئة المواطنين العاديين كي ينتقلوا ببصقة واحدة الى فئة المواطنين السوبر. ببصقة واحدة يكونوا في قمة سلم العطايا؟ ولو افترضنا انك اخذت زوجتك معك، واتفقت معها ان تطلق زغرودة مدوية في لحظة البصق. ماذا تتوقع ان يحدث؟ هل يخطر ببالك ان البصقة والزغرودة كفيلتان بحل مشكلة السكن؟)

يؤكد الوزير في رسالته ان الفرصة مازالت قائمة امام المهندس للخروج من الدائرة العادية: لازال هناك الكثير من لحظات الانفلات في مسيرة الثورة. هناك الكثير من التخريبيين ينتظرون دورهم: مزوري الاوراق الرسمية، ومصدري الاجازات المرضية المزيفة، ودفاتر التسريح من الخدمة، وصناع العوق للتهرب من حربنا العادلة. يتجولون في المدن، ويختبئون في الحانات ومعامل الحجر والورش المنزوية في عمق المدينة، جاعلين من انفسهم انموذجا يحتذى. يبثون سمومهم ويروجون لجبنهم. قد يكون بينهم من يقرب لك، او تربطك به معرفة او صداقة قديمة. هذه علامات فارقة للحظة عبور من العادي الى الخارق للعادة.

(هل فكرت باختراقهم، او تنبيههم الى خطورة مايفعلون؟ هل فكرت بالتبليغ عنهم؟ اذا كنت قد مررت بحالة من هذا النوع فاذكرها دون تردد).

عند هذه الفقرة شعر سعدون الراهي بمطرقة تنهال فوق رأسه. هل يحاول الوزير استدراجه، هل هي كلمات عابرة ام تلميحات؟ قد لا يكون الخطاب مرسل من الوزير اصلا، بل من جهة اخرى تراقبه. الاصابع التي تمسك بالورقة دب فيها الفزع. وبدأ شريط زيارته الى وكر صهيب يمر امام عينيه، بموازاة كلمات الوزير. حاول جاهدا ان يخفي قلقه عن زوجته، شعر بعطش الى الماء، وحين جلبت الماء لم

يشريه، بل ظل يحدق فيه باحثا عن وسيلة يبدد بها القلق. تركته يواصل صفناته الغريبة، واكملت قراءة الخطاب، دون ان تفصح عن رأي بشأنه، ثم انسحبت الى المطبخ لتعد الطعام.

★★★

ختم الوزير رده بالحديث عن كتاب ممنوع تداوله في السوق بعنوان (حلقات الغنيمة) للدكتور سالم مهاوي، المدرس السابق في جامعة بغداد، ووضع على اثره في لائحة المطلوبين، غير ان الكتاب دخل سرا الى البلاد، ووصلت نسخة منه الى المهندس، ووجدت في غرفته بعد تفتيشها، عقب القاء القبض عليه. يبدأ االكتاب بتعريف (اقتصاد الغنيمة) كنظام وحيد لتوزيع الثروة والارض عرفته المنطقة منذ اكثر من اربعة عشر قرنا، وربما قبل ذلك. وان فكرة الحقوق لاوجود لها، لا في الدين ولا في النظام القبلي، بل يوجد مكانها فكرة الغنيمة. ينتزع الدكتور مهاوي من هذا الشكل تفسيره لتوزيع الارض في العراق، حيث يخضع لمخطط لاعلاقة له بوزارة الاسكان، سماه (حلقات الغنيمة). وضع في قلب مخططه السيد الرئيس وعشيرته، وفي الحلقة الثانية جهاز الحماية الخاصة، ثم الاجهزة الامنية، يليها الحزب، ثم ضباط الجيش، وآخر الحلقات هي الحلقة المدنية (المواطن العادي). يعتقد الدكتور ان هذه الحلقات سرمدية، طالما بقي نظام الغنيمة. وان عدد الملاكين الكبار في كل عصر لا يتجاوز الرقم (227). وهو صورة مستنسخة من مبدأ توزيع الغنائم الذي تبدل اسمه الى (ديوان العطاء) في عهد عمر بن الخطاب. ويستنتج ان المؤسسات الرسمية ومنها وزارة الاسكان ليست سوى مظاهر شكلية لاكتساب الاعتراف الدولي.
بعد دمغه بالعمالة يقدم الوزير اطروحة مهاوي: (هراء بين دفتي كتاب، وبمساعدة اللوبي الصهيوني تم الترويج له، وتسهيل دخوله الى جامعة اوكسفورد ليدرس فيها، في محاولة جبانة لتشويه مسيرة الثورة) لاينكر الوزير وجود الامتياز في توزيع الارض، ويراه اكثر فاعلية في النهوض من فكرة الحقوق. الحقوق تخلق التراخي، وتعرقل ظهور المواطن الخارق للعادة. الشعب ينقسم الى دائرتين مركزهما واحد : الدائرة الصغيرة للامتياز (المواطن الخارق للعادة او السوبر)، والدائرة الكبيرة للمواطن العادي. وبين الدائرتين هناك ممرات كثيرة تسمح بالعبور في الاتجاهين. الحضور والغياب في مسيرة الثورة هو الذي يحدد مكان المواطن في الدائرتين. هدف الحزب الستراتيجي هو دفع اكبر عدد ممكن من المواطنين للعبور الى دائرة الامتياز.

★★★

اجبرت سمية الصغار ان يناموا مبكرا، وضعتهم في فراشهم، واغلقت عيونهم، عادت الى الغرفة، وجدته يستعد للرد على الوزير. امامه ورقة بيضاء، قلم حبر، زجاجة حبر، وزجاجة خمر. واضح انه مازال يفتش في السقف عن مدخل لرسالته. كيف ومن اين يبدأ، حتى انه لم يشعر بوقوفها الى جانبه. حاولت بلباقة ان تبعد الخمرة عن طاولة الكتابة. رغم خطوط العطش العتيق، الا ان ظلها كان خفيفا. ارخت صوتها الى ادنى حد، وغمزته بسؤال:

هل ستملأ القلم بالحبر ام بالخمرة؟

(سوف اخلط الاثنين معا)، هكذا اجابها.

جرد القلم من سرواله. فتح زجاجة الخمرة. غطس فوهة القلم فيها، وشفط قدرا منها. لن يخذل سمية. هكذا وعدها. يؤكد لها محبته مع كل قطرة. انتقلت الفوهة الى المحبرة وشفطت منها. انه مصمم ان يجعل زوجته سعيدة هذه المرة.

سألته: هل ستخاطب الوزير وانت نصف سكران؟

قال: سوف اجرب هذه الخلطة؟

قالت: الامر لايحتمل التجريب، سوف ينزلق قلمك مثل المرة السابقة.

قال: لا تخافي، بهذه الخلطة سيعرف القلم حدوده جيدا. الخمرة تجعله يكتب بلسان الارامل، ولو اضفت قدرا اكبر فربما سيكتب بلغة السبايا.

ضحكت وبكت. سقطت دمعتها على كتفه. رفعت عينيها اليه، وقالت انها لن تصدق ما يقوله، حتى يخط بقلمه اول عبارة (سيدي الوزير)، وسترى ان كانت تثبت، او تسيح على الورقة. فوافق على طلبها، بشرط ان تتركه بعدها لوحده.

دشن له كأسا، وبدأ بالتحرش بالورقة البيضاء. نقرها بأصبعه، خط اولا: (سيدي الوزير)، ثم توقف. حدقت سمية في العبارة، انتظرت ثباتها على الورق، ثم ذهبت الى المطبخ لتحضر له المزة. لم تدم طويلا، عادت اليه بمزيد من مكعبات الثلج، وصحن من الحمص، وليمونتين. وحين اطمأنت قليلا ذهبت لتنام. لازالت الخمرة تدور في معدته، لم تصعد الى رأسه، بينما القلم العتيد (هدية مدير الطابو) معبأ بالخمرة والحبر، وقد وصل السكر الى نبلته.

الهدوء يخيم على البيت. قطار العائلة الكبيرة متوقف في محطة مستشفى الولادة. ينتظر مولودا جديدا سيخرج من بطن وداد (زوجة اخيه)، يحمل الرقم اثنين وخمسين في قائمة المسجلين في بيت الاهل. من الممكن ان يعود القطار في اية لحظة.

سكب الكأس الثانية الى جوفه مثلما يسكب التيزاب، انتفض لسانه وارتطم بسقف فمه. حاول تهدئته بالنفخ ، بتهويته باصابعه، بلا جدوى، اطفأ حرقة لسانه بشريحة ليمون مالحة ثم امسك بالقلم العتيد .

)سيدي الوزير ....

كوني انسان عادي فهذا شيء اكاد ألمسه مباشرة. احيانا اشعر انني اقل من عادي. ويصل بي الشعور بالضآلة لدرجة انني اخجل من وجودي على الارض. لا اعرف بالضبط كيف وصلت الى هذا الحال. اشعر في كثير من الاحيان ان الضعف بدأ في اللحظة التي تحولت فيها الى اب، حين برزت امامي فجأة خمسة مخلوقات حية، يحتاج كل منهم الى فراغ كاف ليتحرك فيه. الغرفة التي اعددتها لنفرين لم تتوسع ملمترا واحدا لكنها في النهاية اصبحت لسبعة انفار، ....)

يضع القلم جانبا، ليستحضر على مهل تلك النقلة في حياته. تحوله الى أب هو اندحار للرومانسية التي طوق بها كيانه. في اللحظة التي وقعت عينه على الفتاة التي سوف تكون زوجته كانت هناك تفاصيل بالغة الصغر هي التي شدته: الزغب الاصفر المحيط بالاذنين، ورد الخدود، ارتباكه اللذيذ، وتلك الغلالة التي تخفي الأسرار، الضمأ اللامحدود للعناق، الرغبة الدفينة في التلاشي والدخول الى اقصى حد في الآخر. لم يكن هناك اي ذكر لذرية واجناس بشرية تحمل اسمه. كان الحب يطير بجناحين من لهب، وكان العالم اوسع كثيرا مما هو عليه الآن.

كان الحب يطوف لوحده بلا ذيول. الزغب الزيتوني يتعاظم ليغدو عطشا مالحا ينبغي اطفائه. كان الفم يدنو ليقطر عسلا ويزداد حلاوة مع كل توغل. يعيش لأول مرة لذة فقدان الوعي. تذوق طعم الاغشية المخاطية واوعية اللعاب. يريد ان يصل الى تلك الثقوب التي تخرج منها الحروف والآهات والاصوات الداعرة، التي تحيله الى حصان بري، كلما طرقت سمعه. يفتش بلسانه زوايا الفم وفضاءه، يمسح القبة الوردية التي تحوي الاسرار كلها، والتي عندها تبدأ وتنتهي آخر طقوس العشق. كان يرى الفم هو الباب الوحيد للحب، اما ماعداه فهو عمل يشترك فيه مع الحشرات التي لا تعرف الحب.

وبينما كان يخطط لكي يبقى عاشقا حتى آخر لحظة من عمره، كان هناك من يخطط منذ البداية لتحويله الى أب. وكان يقرأ بنهم، مثل جمل الصاحب بن عباد، حاملا كتبه على ظهره. منذ ليلة الزفاف بدأ العد التنازلي لهذه العادة، ومع كل ولادة جديدة تتناقص الكتب، ويحل محلها اقدام بضة مدلاة على جانبي رقبته. احيانا كانت زوجته تزيح بعض الكتب بيدهاعن ظهره، لتضع مكانهاعلب الحليب المجفف. بعد الطفل الخامس اختفت الكتب كليا عن ظهر الجمل، وحل محلها الحفاظات وعلب نيدو.

سوف يفتش في زوايا عمره باحثا عن ماهو خارق للعادة، يذهب الى زمن ما قبل المطب الذي وقع فيه. ربما يكون قد أنجز اعمالا ذات قيمة ولكنه لا يستطيع ان يراها.

شارك في الحرب لفترات متقطعة. خدم في القاطع الاوسط، وكان فوجه يتخندق على مشارف ديزفول لايبعد عن الموت سوى بضعة دقائق سيرا على الاقدام. اطلق الرصاص دون حماس، فقد كان ممتلئا بشعور مر وخوف من الموت في ارض ليست له. وفي تطور لاحق، بدأ فصل (حرب المدن). دكت منظومة الصواريخ العراقية مدن طهران واصفهان وكرمنشاه بصواريخ ارض-ارض . ردت ايران بستة صواريخ مماثلة على بغداد. وجد نفسه صبيحة احد ايام شهر كانون الاول يسلم عهدته الى رئيس عرفاء الوحدة، ويعود من جديد مسؤولا في دائرة الكهرباء. لقد تم انتدابه بطلب من المديرية العامة.

وقف قبالة المدير العام السيد زيد الشيخلي. كان واحدا من ضمن المنتدبين. أبقاهم المدير واقفين لساعة ونصف في وضع استعداد حتى انتهى من توصياته. كان الشيخلي يرتدي البدلة العسكرية الزيتونية ويضع مسدسا في خاصرته، ليفهم الجميع انهم مازالوا جنودا. وبدل قاطع ديزفول سوف يكون هناك قاطع الرصافة. نصحهم ان ينقلوا يطغاتهم (اليطغ، مصطلح عسكري، ويعني فراش الجندي) الى مكاتب العمل. كانت مهمة المهندس سعدون الراهي هي: المحافظة على سريان التيار الكهربائي في رقعة جغرافية تعادل خمس بغداد، وابقائها في حالة اضاءة دائمة، حتى لو ارسلت ايران مئة صاروخ في اليوم. في الختام نقل المدير العام آخر أخبار حرب المدن بطريقة لا تخلو من الغطرسة والتشفي:

(عاشت مدينة اصفهان في ظلام دامس بسبب ضرباتنا الموجعة. العدو يتربص للرد بالمثل. وصلتنا اخبار من المدينة ان سعر الفانوس ارتفع الى خمس اضعاف. المهربون الاكراد سعداء جدا، جمعوا كل الفوانيس في السوق وارسلوها الى المدينة المطفأة، وبعثوا معها بتحية امتنان الى نسور القوة الجوية العراقية، وبطاريات الصواريخ ارض- ارض، وتمنياتهم بالوصول الى طهران ومشهد)

حتى الآن لا يعرف ان كان هناك اجزاء (خارقة للعادة) في حياته.

بعد كل ضربة جوية يبقى مرابطا في القطاع اياما بلياليها. لا يعود الى بيته الا بعد ان يعيد التيار الكهربائي لكل المرافق. هذا التعهد الاخلاقي يفوق اكثر الطوائف الارثوذوكسية تشددا. لم يقلد اي وسام، ولم يزاد راتبه فلسا احمرا. وحتى الايام والشهور المتواصلة من العمل لم تحسب له عملا اضافيا، مما يعني انه يؤدي واجبه فقط ولايحسب له عملا خارقا يستحق الذكر.

سجل حضورا مهما في الحملة الوطنية لمحو الامية في الحي الذي يسكن فيه. ما زال يتذكر ايام (راشد يزرع، وزينب تقطع)، حيث كان متحمسا جدا، واستطاع خلال تسعة اشهر محو امية خمسة وعشرين من بائعي الخضار في القاسمية. وكان امتنانهم لا حدود له، وظلوا طوال اعوام يمتنعون عن اخذ ثمن الخضار منه.

شارك في الاحصاء السكاني، واخذ على عاتقه مسؤولية شرح وملأ الاستمارات في مدينة القاسمية. وكانت تلك من اصعب واشق المهمات. طوال السنين الماضية يحاول تناسي هذا التكدس البشري وملأ الفراغ بالاطفال، فكيف يذهب بقدمه ليعدهم. لقد عاش ايام الاحصاء بكل ارقامها. كان عليه ان يعد كل طفل وحصته في الغرفة، وعدد الاسرة وحصته في فراش النوم واللحاف، والمقعد الدراسي، والتغذية والاستحمام وما الى ذلك. كان عليه ان يمرعلى مناظر البؤس والضيق في الامكنة ويسجلها بدم بارد. كانت مبادرة خطرة. لقد اخطأ حين قدم نفسه متطوعا في التعداد السكاني. انه يعاني أصلا من هذا المرض، فكيف يذهب اليه بنفسه. لم يدرك ذلك الا بعد ان قطع ثلاثة ارباع الشوط، وكان عليه تقديم الاستمارات في موعدها الذي حددته وزارة التخطيط. بعد انتهاء الاحصاء اصيب بمرض غريب، وتطلب معالجته الى تحويله الى مستشفى الجملة العصبية قرب الباب الشرقي. تم هناك تشخيص المرض: احتقان عصبي حاد عند رؤية الاطفال، يتفاقم عند عدهم. وحين استفاق من الغيبوبة، ابلغه الطبيب المعالج (الدكتور طالب المحسن) انه كان يعد وهو نائم من الواحد الى المليون: طفل .. طفلان ... ثلاثة ... مليون طفل. كتب له علاجا طبيعيا، يقضي بالعيش لمدة ثلاثة اشهر في دار المسنين، مع منع زيارة اي شخص يقل عمره عن ثمانية عشر عاما.

تبرع بالدم ثلاثة مرات، ومازال يحمل هوية مصرف الدم، وحصل على كتاب شكر.

شارك في بناء دور العمال في منطقة (7 نيسان) ضمن حملات العمل الشعبي. وحين تم تسليم الدور الى هؤلاء الفقراء شعر بسعادة غامرة. وكان وهو يحمل الطابوق على ظهره يتخيل اليوم الذي سيأتي من يبني له بيته.

بحث في عمره عن يوم بكى و رقص فيه لاسباب وطنية. حدث ذلك مرة واحدة ولم تتكرر. لم يلعب سعدون كرة القدم يوما ولم يعط من وقته الكثير لها. غير انه بكى ورقص على هدف كروي سجله احد اللاعبين العراقيين برأسه. فاضت عيناه بالدمع العذب ثم انفجر في حالة من الفرح الهستيري. تحرك كيس الخجل، الذي لايجرؤ على النظر في المرآة الى صدره العاري، مزق قميصه ليتحزم به مثل اية راقصة شرقية.

كان الوطن قد تحول خلال ساعتين الى مقهى تكدس فيه خمسة عشر مليون مشاهد من كل الطوائف والاديان والقوميات، امام شاشة صغيرة واحدة، وهم يتابعون لحظة مكونة من خمس ثوان او اقل سوف توحد ذاكرتهم والى الابد. مكان اللحظة هو ملعب (اريا مهر) في طهران. لم يبق الا ثوان معدودات ويطلق الحكم صافرته. كانت النتيجة هي التعادل بثلاثة اهداف. لكن قوانين اللعبة تحتم تنفيذ الضربة الحرة. يثبت المدافع اليمين(اياد محمد علي) الكرة، يعود الى الوراء ابعد مسافة ممكنة كي يستطيع رفع الكرة وايصالها الى هدف الخصم. لم يكن خصما في كرة القدم وحدها، بل في حقوق الملاحة في شط العرب، وفي ترسيم الحدود البرية، ورؤية هلال عيد الفطر. في تلك اللحظة يضع اياد قدمه على كرة من الجلد المضغوط تحمل بداخلها تاريخ نزاعات تمتد لاربعة قرون، يرفعها من العشب الاخضر لتأخذ مسارا مقوسا يحبس الانفاس. سوف تصعد الى فوق مثل عنقاء وترتفع معها العيون. سوف تطير وترتد الى

ازمنة سحيقة، وتقطع آلاف الأميال الممتدة بين بغداد وطهران. وسوف ترتفع العيون تتابعها في كل جزء من الثانية. سوف تمتد الى السماء عنقا شعبين غير متساويين بالعدد، لكنهما متكافئين في الجبروت والعصيان وعبادة القوة. سوف تهبط الكرة شيئا فشيئا، لكنها قبل ان تحط على العشب مرة اخرى تظل عالقة في السماء لمدة واحد من الف من الثانية في مستوى مستحيل لا تصله اساطين الجن.

من الذي امسك بها؟ هل هو الله ام الشيطان ام قوى اخرى لم تولد بعد؟ من هناك تبدأ الاسطورة. كان ظهر رأس الحربة (حسين سعيد) يواجه مرمى الخصم، وكان عليه ان يجترح معجزة، لا تحدث الا لبعث الروح في جسد مبعثر. كأن ماحدث لا يمت للكرة، بل بعالم غنوصي مملوء بالرسائل الصوفية، حيث الحوادث الصغيرة هي جفر لمعان اخرى سوف تعرف في زمن لاحق. كان على حسين سعيد ان يمتد الى ضعفي طوله كي يصل الى الموضع الذي تجمدت فيه الكرة، وان يجعل كفي حارس المرمى تعجز حتى الى الوصول الى خصره، وان ينقل مقلتيه خلال زمن ذري ويركبهما في قفاه، كي يضع الكرة في الهدف ويصنع اسطورته الخالدة.

انتبه سعدون الراهي الى القلم الذي يكتب به، وجد فيه ذكرى ليست عادية. لقد اعاد بهذا القلم الحياة الى الكثير من سجلات الطابو التي محاها الفيضان. كان والده موظفا في تلك المديرية العريقة. لقد مضى زمن طويل على هذه الحادثة، وهي تنتمي الى عهد ماقبل الثورة، فهل ستحسب له؟ اما ماهو خارق للعادة ولا يجرؤ ان يرويه حتى لزوجته، فهو السجل المزور، الذي خطه بقلمه الباركر ونتج عنه مدينة تعدادها مليوني نسمة.

وفي محيط عمله كتب بذات القلم تقريرا يفترض ان يكون تقنيا، وغير خاضع للمزاج الشخصي، ولكن انغماسه في العمل الميداني افقده الحس الرسمي ولغته. ارسل الى مدير المشاريع المهندس (سليم الراوي) تقريرا اقرب الى الادب الروسي. لم يعتذر عن الكثير من الشطط المصاحب له. ولحسن الحظ اخذه المهندس العجوز المهدد بتشمع الكبد على محمل الجد، ووافق على ما جاء فيه. لقد كتب عن قرية محرومة من الكهرباء منذ نصف قرن أسمها(شنينة)، بغية تزويدها بالتيار الكهربائي خلافا للقوانين واللوائح. هل يحقق هذا التقرير شرط الوزير في الخروج من العادي الى الخارق للعادة؟



قرية شنينة

(دخول سعدون الراهي الى قرية عشوائية، ونشوء علاقة متينة مع اهلها، وحضوره مع عائلته لعرس فيها، ورؤية بارقة امل لحل مشكلته)

تعيش قرية شنينة منذ نشأتها (قبل نصف قرن) خارج سجلات الطابو. هذا النوع من الوجود جعلها طوال هذه المدة محرومة من الماء و الكهرباء، رغم انهما ليسا بعيدين عنها. لاتقع القرية في قلب البادية، ولا في عمق الأهوار، بل في الطرف الجنوبي للعاصمة، تجاورها قاعدة جوية تنعم منذ ولادتها بالماء والكهرباء، وتبعد بضعة كيلومترات عن حي الزعفرانية وجسر ديالى. تتألف القرية من خمسين بيتا.

ولكي لاتموت من العطش، وفرت العناية الألهية لها ساقية، على بعد كيلومترين، تخرج من نهر ديالى وتعود اليه. وكان على النساء ان يقطعن المسافة يوميا بمصاحبة الحمير لتأمين الماء، قبل ان تكتشف القرية ان انبوب الماء المغذي للقاعدة الجوية يمر من تحت بيوتهم. وبمعونة احد المغامرين البواسل من عمال مصلحة أسالة الماء تم احداث ثقب في الانبوب يكفي لأرواء عطش القرية.

فتحت عملية السطو على مياه الدولة أعين القرية على حاجة أخرى ملحة هي الكهرباء. فتشوا من حواليهم فوجدوا اعمدة الكهرباء تبعد عنهم مسافة كيلومترين ايضا، غير انهم اكتشفوا ان حمل الكهرباء على ظهور الحمير هو شيء غير ممكن، فسلموا أمرهم لله. اكتفوا بالفوانيس ومصابيح الزيت التي ورثوها عن اجدادهم في العصر العباسي .

بعد جرد لعدد بيوت القرية وسكانها، توصل المهندس الى تفسير خمري لمأساة القرية: ان بقاء شنينة بلا ماء ولا كهرباء، كل هذه المدة، مرده المزاج الاجتماعي، الذي يجد في ذلك شعورا بالامتياز. يشمل هذا الشعور الساكنين من حولها والمارين بها، بما فيهم موظفي الدولة. انارة القرية سوف تطفئ لذة طبيعية يومية يتمتع بها المتفرجون على القرية. شيء يشبه لذة السائح وهو يمر باحياء الصفيح في الهند. منظر

القافلة اليومية لجلب الماء من الساقية، يوفر سعادة مجانية للواقفات وراء الشبابيك، حيث بأصبع واحدة يفتحن صنبور الماء العذب، ويتركنه يتدفق بلا انتهاء.

هذا بعض ماكتبه المهندس سعدون الراهي لمدير المشاريع المهندس سليم الراوي عن القرية. وقد عبر عن شعوره الدائم بالضآلة كلما مر بشنينة (المظلمة) في طريقه الى الاحياء الاخرى (المنورة). انها جزء من القطاع المسؤول عنه، لكنه لا يملك الصلاحيات لتبديد الظلمة.

حين يتوقف سعدون الراهي عن الكتابة يعني ان كأسه قد فرغ. الخمرة تشتعل في رأسه، فتنير له دربه. يتقدم هادئا سلسا مثل نهر فياض بالعطاء. في الجانب الآخر هناك سليم الراوي، المستلم لتقاريره، وربما المتفهم الوحيد لها. انها تنعشه وتضيف نكهة لايامه الاخيرة في الوظيفة. لم يبق له سوى بضعة كؤوس ويودع المديرية والدنيا معا. يضع هامشه بنفس القدر من العبثية. ومن المؤكد انه سكران، فهو لايشرب الا في وقت الدوام الرسمي.

سليم الراوي المهندس الوحيد في مديرية الكهرباء القادر على اتخاذ قرارات حاسمة دون الرجوع الى احد. مهندس أرتجالي بدون منازع. مع بلوغه سن التقاعد بدأت الأمراض تنهال عليه مثل المطر. ويبدو أنه أختار من بينها تشمع الكبد ليختم به سيرته. تتألف عقيدة الراوي من النساء والكحول وتجاوز الروتين. وبعد فقدانه قواه الجنسية، وفشله في محاربة البيروقراطية في المديرية، تحولت العبادة كليا الى الخمرة. لم يعد يخاف من تشمع الكبد، ولا ينظر أليه كداء، بل دليل على الأخلاص للخمرة.

طلب سليم الراوي تقريرا تخمينيا عن المشروع، مرفق به عريضة باسم اهل القرية، يوضحون فيها حاجتهم الى الكهرباء، مع قائمة باسمائهم وتواقيعهم. وهو اجراء احترازي قد يحتاج اليه عند المساءلة. ينوي سليم الراوي تجاوز ثلاثة أو اربعة موظفين متكلسين في الادارة والحسابات والمخازن، يسميهم الصحو المطلق، مشيرا الى خلوهم من الضمير والخمرة. وهو لايشك ببراعتهم في وضع العراقيل، والتضامن لوأد المشروع.

طار المهندس سعدون من الفرح. ارسل الى السيد الراوي تقريرا مفصلا. حسب فيه بعد القرية عن الشبكة الكهربائية، طول الاسلاك النحاسية، عدد الاعمدة اللازمة، وسعة المحولة، وتخميناته الطبقية للحمل المحتمل سحبه للخمسين بيتا. انتهي من صياغة العريضة مع تواقيع أهالي شنينة: أربعمئة وستين اسما، ومعها الاسباب التي تدعو لطلب الكهرباء:

(أستاذي العزيز: علمت ان الطبيب منعكم عن الخمرة، وهو امر له علاقة مباشرة ببقائكم على قيد الحياة. لقد شربتم بما فيه الكفاية. واتمنى ان تطلعوا على هذا التقرير مع آخر كأس لكم في الدنيا.

تجدون طيا، طلب اهالي شنينة بالتحول من الظلمات الى النور، مع بعض الاسباب الموجبة. بعد ان اجمعوا على حاجتهم الى النور، ومتابعة المسلسل البدوي (ساري العبدالله)، جاء دور الاسباب الخاصة:

تحدثت الامهات عن صبية يبولون في فراشهم، يخافون الخروج الى المرحاض. هنالك عقارب طيارة سوداء تخرج في الليل. الشيء الوحيد الذي يجعلها تهرب هو الضياء القوي.

ذكرت سيدة انها شاهدت عند أختها (في حي الأمين) صندوقا حديديا يعمل بالكهرباء، يحول اللبن السائل الى دمى تجعل الصغار يرقصون من الفرح.

اما التلاميذ فقد اعلنوا بشكل موحد ان يومهم قصير جدا، ولا يريدون ان يشبهوا الدجاج.

وكتب احدهم: (اخبرنا المعلم ان توماس اديسون هو مخترع الضياء، لكنه لم يخبرنا من هو مخترع الظلام). آخر التعليقات جاءت من شاب أعمى: (انا غرفة مظلمة بلا مصابيح)

اؤكد لك استاذي العزيز ان أهل شنينة، وبسبب عطل في الكون، لن يعرفوا الرفاه ابدا. لقد مضى عليهم خمسون عاما وهم يستعملون مصابيح الزيت، التي ورثوها من عصر الخليفة المأمون.

استهلك مدير المشاريع زجاجة ويسكي في دراسة المقترح والرد عليه:

(الى المهندس سعدون الراهي: اطلعت على مقترحك بمد خطوط التيار الكهربائي الى قرية شنينة، التي تقع خارج سجلات الطابو على حد قولك. واضح تماما انك تخالف اللوائح، واكثر منه التحرش بواحدة من اعظم المتع في ثقافتنا، الا وهي متعة الامتياز. لو عرف المسؤولون بنيتك، فسوف يزعلون كثيرا، وربما يجردونك من صلاحياتك. ولكني اطمئنك، مادمت في الوظيفة، ومادام الخمر متوفرا في البلاد، فلن يحصل لك مكروه، وسوف تجدني غطاءا لك. مبدئيا انا موافق)

اهل شنينة ينحدرون من جد واحد، وهم فخذ من عائلة اكبر يعيشون في الضفة الاخرى من نهر ديالى. الفرق الوحيد بينهم وبين اولاد عمومتهم هو الكهرباء.

عبود الزامل هو شيخ القرية والناطق بأسم أهلها، يعمل سائقا في معمل الجلود، ولديه قطيع اغنام يتولاها احد الرعاة من ابناء القرية، وهو شاب لم يتجاوز الاربعين، بلحية خفيفة وشارب دقيق مائل للأحمرار، لا يخلو من وسامة يؤطرها بأبتسامة تكاد لاتفارقه، يلبس كوفية وعقال، ويشرب (العرق) هو وعائلته دون اي شعور بالذنب.

في أول جولة لمعاينة القرية، أكتشف المهندس ان الضمير الميت لموظفي الدولة هو العائق الأول امام تحولها من الظلام الى الضياء.

احدث التصريح وقعا طيبا وفوريا في نفس الشيخ. وضع كفه بكف المهندس وراح يطوف معه في القرية. خرج الأهالي من بيوتهم ليحيوه. مسح المكان بيتا بيتا. توقف عند بيت قيد الانشاء، وعرف انه ل(رحاب) ابنة الشيخ التي ستتزوج قريبا. لم ينس ان يبارك، وستكون هديته مصباحا يضيء بابها. في طريق العودة تحدث الشيخ عن تاريخ الغبن والخوف الدائم من الترحيل.

(هنالك اكثر من جهة تريد ترحيلنا. كل يحمل اوراقا فيها نسور واختام وامضاءات. بين الحين والآخر يقضون مضاجعنا. يقرعون الباب ليذكرونا اننا غير مقيدين بسجلات الطابو، يعني اننا (متجاوزون) على أراضي الدولة)

وحين اطمأن الى المهندس بدأ يشتم الدوائر الحكومية، وصف موظفيها بالبلادة وروحية العبيد. شتم المحافظة وأمانة العاصمة، لكنه تردد في شتم قيادة القوة الجوية. الجار الذي يخشى ان يتمدد ويطالب بترحيل القرية.

(بأمكان القرية أن تصمد، وتواصل الحياة طالما ظلت تواجه موظفين مدنيين، بالامكان التفاهم معهم وحتى اهمالهم. قلنا لهم وفروا لنا سكنا آخر وسنرحل، فسكتوا، قالوا لابأس، سوف تبقون ولكن دون خدمات).

قطع الشيخ حديثه بترطيب لسانه، ثم اطلق زفرة تحمل اكبر مخاوفه:

(لكن الأمر سيكون اصعب لو دخل العسكر على الخط. سمعت ان هناك نية لتوسيع القاعدة، يقولون ان الحكومة تنوي شراء طائرات حربية من فرنسا).

المهندس لايتابع اخبار الحرب، لايعلم الكثير عن لقاء السيد الرئيس بجاك شيراك، وحديث العالم عن صفقة الميراج التي تعمل بالليزر.

حلت لحظة صمت، قطعها الشيخ بالقول (الله يستر)، بصوت خافت كأنه يكلم نفسه. لم يكن يملك سعدون الراهي اي شيء ليقوله، واراد الانصراف، فلم يسمح له الشيخ بالعودة الى مكتبه. ادخله عنوة الى بيته.

من يدخل بيتا في شنينة لن يخرج منه دون تناول الطعام و شرب الخمر. الكرم في هذه القرية مدعاة للتأمل. اذا لم تأكل عندهم فانهم يبكون، حتى تنزل عند رغبتهم، يبدأ البكاء من الاطفال، فاذا رفضت تبدأ النساء بالعويل، ثم يأتي دور رب الاسرة فيقسم بالعباس ابو فاضل، فينقض الصغار على اذيال ثيابك ليقيدوك. قبل تقديم الطعام يفتح الشيخ لضيفه زجاجة عرق محلي. يقرع معه بضعة كؤوس.

اصبح كبير القرية الشيخ عبود الزامل قريبا منه. كان عذب المزاج، بديع الاصغاء، جميل المحيا، مبتسما احتفائيا، ذو هيبة في تواضعه. لا يحرم الخمرة على نفسه، ولا على اهله. ويسكر بسرعة فائقة.

سأل سعدون: ماهو أكبر حاجتكم للكهرباء؟

أجاب الشيخ دون تردد: مسلسل ساري العبدالله.

توقف لحظة ليعب كأسه، تناول بضعة حبات من الحمص، ثم اضاف: الكهرباء تعني التلفزيون، وهذا يعني للقرية شيئا واحدا: مسلسل ساري العبدالله.

المهندس يود ان يسأله ان كان ساري العبدالله اهم من اخبار الحرب، لكنه وجد ذلك مدعاة لصحو مفاجيء، فسأله: وأنت ياشيخ، هل تتابع مثلهم المساسل؟

اجاب الشيخ: انا شيخهم، كل خميس اعبر بهم جسر ديالى، واقودهم الى ديرة عمومتنا التي تنعم بالكهرباء، فيتوزعون هناك على ثلاثة اجهزة تلفاز، ويتابعوا بصمت مطبق قصة (ساري العبدالله) و(ريمة). تبقى بيوت القرية خالية، بعهدة الظلام وعيون حراس القاعدة الجوية.

يروق للشيخ الحديث عن المسلسل، يصف بنشوة الاستعدادات ليوم الخميس (موعد بث المسلسل). يستحم الجميع، ويلبسون احسن الثياب. يتحرك الموكب الراجل حاملا لهفة عارمة لرؤية الحلقة الجديدة، مع كم من الاطايب، ولوازم الجلسة المرتقبة بعد انتهاء الحلقة. تتزاحم المشتركات، توقعات: هل يخرج ساري من محنته؟ مات الكلب الوفي (شير) وهو يدافع عن صاحبه. مزقته الذئاب. الكثرة تغلب الشجاعة. بكاء العشيرة رجالا ونساءا. الى اللقاء في الحلقة القادمة. يا جماعة الخير استهدوا بالرحمن. لن يترك الله ساري لوحده في الصحراء. احدهم ينذر خروفا للامام العباس اذا خرج ساري من شدته. يجفف دمعته بثيابه. كرزات، مزات معمولة باليد، وخمرة محلية وفيرة، الى ساعة متأخرة من الليل. لقد اعاد المسلسل تلك الرابطة، واضفى عليها ديمومة. من في البلاد من لا يتابع ساري؟ يقولون ان مديرية الأستخبارات العسكرية منعت صنف مقاومة الطائرات من متابعة المسلسل بعد نجاح الايرانيين في اختراقين اثناء وقت البث.

***

بدأ العشق برغيف خبز. رائحة التنور ومذاق الخبز الطازج اوجدت تواصلاً يوميا بين جندي الحراسة وبنت القرية. وجهان من طين حر. تراه من شباك غرفتها، ويراها من برج الحراسة. يقولان بالأعين مالايقدر عليه اللسان. يتلفتان كل بضعة دقائق لأطالة أمد اللقاء. كان هدف الجندي نسيان صمون الجيش. اقترب الاثنان الى ادنى حد، ولم يعد يفصلهما سوى سياج القاعدة الجوية. ناولته (رحاب) رغيف الخبز فسلمها كيسا مليئا بصمون الجيش. لمس كفها فاشتعلت اصابعها. سحبتها وعادت مسرعة الى البيت وهي في حالة انفراط وخدر. اول شيء فعلته في حجرتها انها مصت اصابعها ثم قضمت صمون الجيش. شعرت ان له خصائص ذكورية، الصلابة غير المعهودة مقابل رقة خبز التنور.

عقب كل نوبة حراسة يجلس الجندي البدوي على تلة ترابية يمسك ربابة، ويغني العتابة. تعبر السياج وتدخل اذن صبية من صبايا القرية، فتحرمها النوم، وتنبت في داخلها حقل من زنابق البر. في النهار تراقبه وهو يلاعب جروا مثل طفله، يحمله على اكتافه، ويغني له. تجرأ يوما. استلم الخبز منها، وناولها الجرو، فضمته الى صدرها، ورآه يلعق بلسانه الصغير رقبتها، ويصعد على اكتافها، ويقبلها في وجنتيها. حين اعيد الى صاحبه، اشبعه قبلا مماثلة، وغدا جسرا للغرام. كان لابد للام ان تلاحظ النقص في ارغفة الخبز، وعزوف البنت عنها، وعثرت على كميات من صمون الجيش في حجرتها. لم يكن صعبا على الام معرفة الفرن الغرامي الذي يخرج منه الصمون. شيئا فشيئا سكبت الطمأنينة في قلب ابنتها، حتى اندلق لسانها. كانت خائفة، فحبيبها من ديرة بعيدة جدا. اهله يسكنون البادية. وحين يذهب في اجازة يحتاج الى ثلاثة ايام للعثورعليهم. ولكن هذا الترحال لن يشملهما، لانهما ببساطة سيعيشان في شنينة. تلألأت دمعة على طارف جفنها، وخفق قلبها بفرحة غامرة، وهي تسمع كلمات امها:

(نحن ايضا نحب صمون الجيش. قبل ايام وجدت كيسا منه فخلطته مع الخبز وصنعت منه (تشريب باميا) لابيك، اكل منه ولعق اصابعه، لم يسألني كيف دخل الى البيت، ابتسم وتكلم بعينيه، وترك الامر لي. اطمئني يا بنيتي، قولي لمن يناولك الصمون ان يجلب اهله. ومادمت تثقين به فنحن ايضا نثق بك).

هذه اللحظة الفائقة في حياة رحاب لايمكن الدخول اليها ومعرفة تفاصيلها فهي ملكها وحدها.

ذهب شاهين في اجازة لجلب اهله ليوم الخطبة، فلم يعثر عليهم، وعلم انهم عبروا مع مواشيهم الحدود بحثا عن الماء والكلأ. انتدب ثلاثة من جنود الحراسة ليرافقوه في الخطبة (مشاية). كان الشيخ وابناء عمومته في انتظارهم. دخل شاهين حاملا حقيبة على ظهره، وجروا في يديه. وجه حاد الملامح، ذو سمرة تأسر العيون ونظرة حالمة مرحة. السعادة الغامرة واضحة على محياه، اصغى الحاضرون اليه وهو يقدم نفسه: (شاهين غازي العجيل الفاضل)، وصعقوا عندما علموا ان جده الثالث هو عم (ساري العبدالله الفاضل). كانت مفاجأة من العيار الثقيل. نقلت على الفور الى جمع النسوة فصدحت حناجرهن بالزغاريد. وكانت المفاجأة اكبر بالنسبة لرحاب واهلها. تكلم عن (شير)، الكلب الوفي، الذي بقي مع ساري بعد اصابته بالجدري، وعلاقته السرية بكلبة (ريمة)، وانجابهم جرو، سوف يكبر ويتناسل ويخرج من ذريته هذا الجرو (شير الثالث). رفعه امام الحاضرين فهز ذيله وابتسم، فحيوه جميعا. وكانت المفاجأة الاكبر حين فتح حقيبته واخرج ربابة ورثها عن اهله، وهي من بقايا ساري العبدالله، وجدت مع ثيابه وغترته وعقاله ونعله. عزف شاهين عليها، وقرأ اشعارا(عتابات) جديدة، فاغرورقت العيون. ثم نهض وسط الديوان، وتقدم نحو الشيخ المزعل حاملا مهر رحاب: ربابة باليمين وجرو في اليسار، فقبل منه، وطاف الشيخ بدوره حول عمومته ليلمسوا بايديهم تلكما الاعجوبتين. انتقل الجرو والربابة من حضن الى حضن واشبعا قبلا. امر الشيخ ببناء دار لشاهين ورحاب. وحدد موعد العرس مع وصول التيار الكهربائي الى القرية.

لم يستغرق بناء البيت وقتا طويلا ولا حتى كلفة تذكر، فقد كان اشبه ببناء معبد، حيث اشترك اهالي القرية صغارا وكبارا، رجالا ونساءا في اعداد البلوك وبنائه. شارك سعدون الراهي رمزي.، لطخ يديه بالاسمنت. وكان من اوائل الداخلين الى البيت بعد اكتماله: غرفتان للنوم ،غرفة للضيوف، فناء للصيف، حديقة للخضار، ومخزن للمؤن، وتنور للخبز، وركن للدجاج .

***

لايعرف سعدون الراهي متى برقت في رأسه فكرة السكن في القرية. هل فلتت من لسانه في جلسة الخمر. ام اخترقت قلبه حين امسك صغار الشيخ بطرف سرواله كي لايخرج قبل تناول الطعام. انه ضعيف جدا ازاء الود. تكلم بحزن عن نفاذ صبر زوجته، والضيق الفاحش الذي يعيشه في غرفة السطوح، ومراسلاته مع وزير الاسكان، ورغبته العتيقة في الدخول الى سجل الطابو. فكان رأي الشيخ ان غياب السند لايوقف الحياة. (نحن نعيش منذ خمسين عاما بلا سند، كما ترى، لم يعد يهمنا ذلك، كل ما نريده هو ان لانتشتت، حتى لو بقينا بلا كهرباء ولا ماء). ثم صعد الشيخ الى طبقة عليا في سلم الانعتاق، فكشف قدرا من اعماقه قد يكون مخلوطا بالخمرة، قال انه لايفضل سند الطابو، هذه الورقة تقيده، بل وتشل حركته، فهو قادر بدونها ان يبني بيتا متى يشاء، يحدد سعته وموقعه. وهو قادر على اعادة رسم القرية مثلما يشاء.

حين دخل خطيب رحاب كان يحمل الى البيت زجاجة عرق مستكي من قرى الموصل. صافح سعدون الراهي، ثم تناول كف عمه، قبلها ووضع قدامه زجاجة العرق. خلع بسطاله وبيريته ووضعهما بعيدا، وجلس دون تكلف. كان قد انتهى توا من حراسته. دخلت رحاب، وضعت قدامه كأسا، وصحنا من الليمون، فامسك بكفها. بعد اذنك يا عمي. طبع قبلة على كل اصبع من اصابعها، فاحمر وجهها، اراد ان يقبل ركبتيها، فانسحبت، وهربت تاركة اياه يرفرف مبتهجا مثل زنبور العسل.

ارتفعت حرارة اللقاء، فهذا البدوي العاشق يسكر بطريقة خلابة، يقول اشعار العتابة التي يصنعها بنفسه، ثم يغنيها بطور السويحلي مع قدر كبير من الخضوع لسلطة الحب. غير ان عقل المهندس كان موزعا بين السويحلي والسجلات العقارية. فما ان توقف البدوي عن الغناء حتى وجد من يسأله ان كان اهله يملكون ارضا مسجلة في الطابو. اجاب البدوي ان الامر لم يخطر بباله، فقد ورث عن اهله الربابة والجرو وديوان العتابة ولم يرث سندا للطابو. لايملك اهله شبرا من الارض، فبادية الشام كلها ارض لهم. ولو خيروا بين قطعة سكنية (طابو صرف) وبين البادية، فلن يقبلوا بغير البادية، ولولا تعلق رحاب باهلها لاخذها معه، وحولها الى بدوية تعيش في ثلاث بلدان دون ان يعترضها احد.

جاءت المبادرة من الشيخ. اختصر عليه الكثير من التردد. اعتصر كفه بحرارة. كل ما مطلوب منه ان يعين مكانا في القرية، و(تترك الباقي علينا. وبدل العرس سيكون لدينا ثلاث: رحاب والكهرباء ،ومسكنك بيننا. سوف نبني بيتا يليق بك، فتكون بجوارنا، وسنشرب سوية كل ليلة).

عرض هائل، لكن هنالك عوائق تحول دونه: اولها موافقة زوجته، ثم نظرة سليم الراوي اليه.

يحاول سعدون الراهي ان يبتعد عن ملامسة الطبقة السفلى من رغباته الدفينة، يريد ان تظل شنينة عملا خالصا من اية شائبة. اذا صارت اعمدة الكهرباء جسرا لغرض شخصي، فسوف يتزعزع شيء هام في قلب معلمه ومديره المبجل سليم الراوي. كيف سيستقبل خبر انتقاله الى شنينة فور وصول التيار الكهربائي؟ هل سيظن ان المشروع مبيت؟ واذا تجاوز هذه العقبة دون ضرر، هل ستكون شنينة نهاية المطاف؟ هل يستسلم ويتخلى عن رغبته العتيقة في رؤية اسمه مؤطرا باختام الدولة.

بدأت أعمدة الكهرباء تقترب من القرية. كلما انتصب عمود تطير الزغاريد لتحط على اذنيه، فتزيده طربا وسكرا. مشروع شنينة يتقدم الى الامام، يخترق الشارع الوحيد، ليتزامن مع تحضيرات العرس. ركب العمال قواعد لانارة دائمة في الشارع، واخرى في ساحة الحفل. وانارة للبيت الجديد. وصلت جرافة لتسوية الشارع ومحيط القرية، ورفع الانقاض والازبال. بدأ وجه القرية يتغير كلما أقترب اليوم الموعود.

في ذلك اليوم أخذ سعدون عائلته ليشهدوا العرس ويروا شنينة لاول مرة. كان قلقا بشأن نظرتهم الى هذا العالم الضيق والمعزول الى حد ما. هل تقدر سمية ان تمس تلك السطوح البالغة العفة؟ بأي وجه سوف تخترق بساطة الطين وشبابيك العاقول وسقوف النخيل وحصران القصب؟ بأي عين سوف ترى واحة من الود، تحيط بها نفايات المعامل واسيجة الحديد المشبك ومهددة بالازالة؟

استقبلت القرية عائلة المهندس مثلما يستقبل الامراء. لا يعرف بأية طريقة تلاقفوا اطفاله وزوجته. لم تعرف سمية كمية من الحب والقبلات مثل تلك الليلة. تقدمت نساء القرية في طابور اليها. قبلوها جميعا كأنهم يعرفوها من قرون. وقبلوا اطفالها واحدا واحدا. سحبت النسوة سمية الى الداخل. صبغوا قدميها واصابعها بالحناء، والبستها اخت الشيخ عباءتها المطرزة بخيوط الذهب. فوطوها بالبريسم المؤطر بالكلبدون، وكحلوا عينيها بحجر الاثمد، ووضعوها امامه مثل اميرة هندية فلم يصدق عينيه، وضمها الى صدره على الفور. انفجرت الافواه بالزغاريد. دار دولاب الدنيا. اخذه الى ضفاف حب قديم، عصفت به الايام، فرمته كقارب مكسور في جزيرة مجهولة. نظر الى الوجه الذي احبه كما لم يحب احدا. اعادت شنينة له الحنو والضعف القديم، فوجد نفسه يدفن قلبه في راحة كفها.

بعد عناق الزغاريد تفتحت الأعين فوجدت خمسة حمير تحيط بهم. اطفالهم يمتطون حيوانات القرية دونما خوف. لم يعرفوا السعادة تلك من قبل. كانوا يطوفون ووراءهم جوقة من المنشدين.

دخلت فرس الشيخ ساحة العرس، ترقص مختالة ببياضها الناصع، قبل ان يزحف الظلام على شنينة، ويخفي تدريجيا بريق الفرس ونشوته. أخرج كل بيت فانوسه لينير العرس. بعد ساعات سوف يودعوا هذه المصابيح بسخامها وزيتها. لقدت ادت ما عليها لخمسين عاما، وآن لها ان تتحول الى ذكرى. سوف تخرج مدخرات القرية ليشتروا بها سلعا تعمل بالكهرباء. اعدت مائدة طويلة لوليمة العرس. زحف اليها الظلام، فاختفت افخاذ اللحم وتلال الرز. وضع المهندس مساعده ليحرس المفتاح الرئيسي. مع اول اشارة سوف تنتقل شنينة من الظلمات الى النور.

امر الشيخ مزعل بأطفاء الفوانيس. غاب العرش واختفت العروس وعريسها. اختفى الحضور، ولم يبق سوى الهمهمات.

الخمرة وفيرة في تلك اللحظة. اعد الشيخ كأسين، ومحارة فضية سوف يضعها بيد المهندس.

جاءت اللحظة المرتقبة. كان المهندس سعدون الراهي يحمل بيده المفتاح السحري. وكان عليه ان يذكر ماهو جدير بالذكر في تلك اللحظة. كان واثقا من وصول سليم الراوي الى تشمع الكبد، لكنه لم يتوقع رحيله بهذه السرعة. هبط صوته على الحضور المغطى بالترقب والظلام:

(لايتفق العرس والظلام. في الظلمة يبدو المرء كأنه لص. لن نراه وهو يرقص. تختفي وليمة العرس. لا نرى العرش وهو يحمل قمر الزمان. ولا وجوه الصبايا في ذروة التورد. الثياب الزاهية بألوان الطواويس تفقد الوانها، واكف الحناء، وكحل الجفون، وديرم الفم، ووشم الحاجبين. كل هذا يختفي في الظلمة.

هنالك شخص. لم يعد له وجود. كنا نود ان يكون حاضرا معنا لأنه يقف وراء هذه اللحظة البديعة. غادرنا الاستاذ سليم الراوي قبل ان تتكحل عينيه برؤية شنينة المنورة. وفاءا له سنقف دقيقة صمت، بعدها نودع الظلام).

اهالي شنينة يعدون الدقيقة بنبضات القلبوب. في آخر نبضة، اعطى المهندس اشارة البدء، فنزلت عتلة التشغيل. اشتعل الضياء، فأغرق شنينة مثل الطوفان. انتفضت الأبدان وتعالت الزغاريد من افواه النسوة. نزل الشيخ الى الحلبة المسيجة بالمصابيح. رمى بعقاله في الهواء. فارتفع ليعانق خيوط الضياء، ثم نزل ليجد الاكف بانتظاره. بقي عبود الزامل حاسر الرأس، جامحا مثل فرسه. نزلت القرية وراءه الى حلبة الرقص والجنون. وجدت نفسها تخوض في بركة من الضياء.

فيما يتواصل فصل الجنون اقتيدت العروس لتضع قدمها في دارها. كانت سمية الى جانبها تعد كنوز النعيم التي تنتظرها. طافت في كل زاوية بالبيت. مرت على جناحيه، فملأت غرفه بكلمات الود وتمنيات الرفاه والبنين. مرت الأصابع على السرير المخملي، واغطية الساتان. فتحت النسوة الخزانة، فرشوا ثيابها و زينتها، صحونها وقدورها، بيت المؤن وتنور الخبز. كان طوافا طقوسيا مثل زيارة لضريح مقدس. اعترفت سمية لزوجها انها حسدت الصبية على تلك المملكة الصغيرة. لم تكتم غصة ألمت بها. روت لاحقا وبالتفصيل الممل كل زاوية في البيت، تلك النظافة الى جانب البساطة، والحميمية التي لاتسمح بالمرور العابر. تحدثت عن الفناء الذي سيمتلئ بزهر النرجس، وخيوط الدفلى، وقمرية العنب، وشجيرات الورد ذات الأفواه المفتوحة. لأول مرة تكتشف سمية الجمال الغامض لتنور الخبز. رأت الأطفال يركضون اليها حاملين أرغفة طازجة تلسع حلاوتها افواههم. جاءتنا مريومة تحمل عنزة صغيرة ولدت قبل يومين. كانا يتبادلان القبل في الاعناق. اخرج الابن خيارا قثاء قطفه توا من احد البيوت وقدمه لأمه. أطفال سعدون يلمسون مفردات الطبيعة لأول مرة. يضعون اصابعهم في لحظة ميلاد الأشياء. في تلك البقعة السحيقة في القدم تنعقد الاواصر الابدية. صرخت الاضواء في كل زاوية من شنينة، وهرع الاهالي ليلمسوا اثر المعجزة، التي تفجرت في بيوتهم. فتحوا الابواب فاصطدموا بنهار فجائي، دخل بيوتهم فهربت الخفافيش والصراصير ونوم الدجاج.

الحب يأتي دون استئذان، مثل فيضان يغمر القلوب الطينية الهشة ويجرفها في جريانه. وهذا ما حصل مع سمية صاحبة الموانع. جرفها التيار الذي غمر شنينة فاستسلمت له. جاءت اللحظة التي ينتظرها سعدون الراهي طوال شهور. قبل أن يفتح المحارة الفضية سألها عما رأته هذه الليلة.

حاولت زوجته ان تعثر على الكلمات اللائقة. كنز مدفون في أرض مهملة. كل شيء ممكن في شنينة. لاتفهم أهلها تماما. تراهم نسيجا واحدا، اشبه بسجادة يدوية عتيقة مليئة بالالوان. كل شيء يمكن ان يختلط هنا، البشر مع الحيوانات، النساء بالرجال، الصغار بالكبار، الخمر بالصلاة، تنور الخبز وسياج الطائرات الحربية .

سألها: وبعد؟

لم يفرح الاطفال طيلة حياتهم مثلما فرحوا في شنينة. دخلوا القرية بيتا بيتا. جاءت بنتهم تحمل جرة فخارية (ماما اشربي هذا الماء بارد مثل الثلج). تمكنت مريومة في يوم واحد من لمس الحمار والارنب والحصان والعنز، ووعدوها أن ترى القنفذ والثعلب وثعبان الماء.

واصلت شنينة المنورة سهرها الباذخ. زف العريس الى بيت عروسه واغلق وراءه الباب. قاد سعدون زوجته الى عمود متفجر بالنور ليقبلها، ويفتح امام عينيها المحارة الفضية المخبأة في جيبه.

وجدها اقرب من اي وقت مضى. حتى انه قادر بلمسة واحدة ان يذوب الجليد المتراكم حول قلبها، كي يخفقا بجناحين ويطيران معا. هل للخمرة دخل فيما يفعل او يقول؟ احتضن خصرها النحيل، الجزء الحارق الذي مازال يشير الى اول العمر:

سمية، هل تتمنين ان يكون لك بيت هنا؟

شعرت بقسوة السؤال، هاهو يعزف على وترها المشدود العالي النبرة.

لماذا يطلب منها التمني؟ لماذا لايقودها وهي معصوبة العينين، ثم يطلب منها ان تفتح عينيها: هذا بيتك. التمني لحن حزين يترك اثرا مرا بعد سماعه.

قال لها: دس الشيخ في جيبي محارة، ياسمية.

فقالت: لابد ان يكون بداخلها هدية ثمينة.

بأسم العشق المستفيق، باسم الدهشة والمحار، باسم سنوات الأنتظار، يكشف سرا مخلوطا بالخمرة كي تسكر معه في هذه الليلة. سحبها الى روحه، شد على وتر القلب وتركه يهتز. وصل السر ذروته. اخرج المحارة الفضية من جيبه، ووضعها في راحة يدها. فتحتها فابصرت ورقة مطوية بعناية. بحذر ولهفة راحت تبحث عن رأس الورقة لتفرشها امام عينيها.

(من عبود المزعل الى أخيه المهندس سعدون الراهي. أحببتنا فأحببناك، وعرفتنا وعرفناك. حلمت ان تنير قريتنا وتطرد من بيوتها الظلام، وحلمنا أن نراك واحدا منا. اذا قبلت فسوف نشيد لك دارا بيننا. وسوف نترك لك ولعائلتك رسمها. هذه الورقة هي السند الوحيد. لايحمل ختم الدولة، وليس مسجلا في دائرة الطابو، ولكنه مختوم بشرف شنينة وغيرة أهلها)

★★★

ملاجئ الميراج

(شراء القوة الجوية العراقية لطائرات فرنسية، وتهيئة ملاجيء جديدة لأيوائها)

فيما كان سعدون الراهي مشغولا بتأمين الاسمنت اللازم لبيت شنينة، استدعي على عجل لتأمين قطع التيار الكهربائي عنها. كان هنالك جحفلا يستعد للهجوم، مؤلف من الجرافات وعمال اسالة الماء والمقاولين وآمر القاعدة الجوية وكبار الضباط فيها. وقد تم اعداد كل شيء تمهيدا للزحف على بيوت القرية وازالتها من الوجود.

أختفت القرية خلال يومين، واختفى معها الحلم الذي ظل يغذيه بحلاوته قرابة ستة شهور. كان على وشك ان يتصالح مع ذاته وبيته والدولة أيضا، ويستعيد الكثير مما خسره من مزاجه، ويغادر بؤر الاحتقان والمرارة في الحلق، و يؤسس له عالما صغيرا، يخفف حدة المرارة التي يشعر بها في العالم الكبير. غير ان شنينة ازيلت. مسحت بالجرافات، ووضعت مكانها ملاجئ المقاتلات الجديدة.

شرح آمر القاعدة الجوية دواعي عظمة هذا اليوم: (هل سمعتم بطائرة الميراج؟ بهذه المقاتلة سوف ندمر منشآت العدو النفطية، ونجبره على وقف الحرب. اننا محظوظون، لأن فرنسا خصتنا بهذه الطائرة. انها ثمرة الصداقة الشخصية للسيد الرئيس مع جاك شيراك).

حين تداعت سقوف البيوت كان اللواء الركن مازال يواصل شرح مزايا المقاتلات الجديدة:

(الاسم الفرعي (سوبر اتندار)، بصاروخ حراري (اكزوزيت). بالميراج سوف نركع الفرس. لدينا منها اربعة في قاعدة الناصرية، وسوف يصلنا المزيد (اشار الى مواقعها القادمة فوق حطام شنينة). هل تصدقون اننا باربعة طائرات فقط حققنا سيادة مطلقة على الخليج. ضربنا جزيرتي خرج وخاركو والسفن الراسية للتزود بالنفط. ضربنا معامل الحديد والصلب ومصفى (كنجان)، ومحطة كهرباء(نكا)ومصفى اصفهان).

***

في زنزانته الانفرادية يحاول ان يستعيد تلك الصورة لكي يصل الى منبع المرارة. لماذا تتمدد القاعدة الجوية فتبتلعهم؟ جاءت طائرات الميراج واحتلت بيوتهم واكواخهم. في اليوم المحدد لتفريغهم من بيوتهم، كان هناك عشرة بلدوزرات على اهبة الاستعداد، تنتظر اشارة من آمر القاعدة الجوية للبدأ بمسح مأواهم. وقف اهل القرية في الجانب الآخر من المجزرة، وراء السياج الحديدي الذي وضع توا، وراحوا يراقبون بيوتهم وهي تهدم. منظر الاقتلاع لا يغادر الذاكرة ولا يخفت مع الزمن. كلما نزل اكثر في عمق محنته كلما احتدت صورة شنينة وصعدت الوانها الصارخة. بكى وهو يروي الحكاية. من هؤلاء الذين يتفرجون على نواحه؟ الوجوه تتبدل: مرة يكونوا محققين، ومرة موظفين اجانب بعيون ملونة ولسان اعجمي، ومرة اخرى اناس عاديين في القطارات والسفن العابرة من الشرق الى الغرب، اطباء وباحثين اجتماعيين او ممرضين. وكان يقفز احيانا وجه الشيخ عبود الزامل ليمسح الدمع عن عينه، ويأخذ بخاطره ثم يغادر الزنزانة دون أن يتكلم. احيانا يدخل زنزانته اشخاص لايعرفهم، بازياء رفيعة المستوى، يطلبون منه ابراز هويته او اظهار تذكرة القطار. اي قطار وفي أي بلد؟ هل هو في الطريق الى الجنون؟ ولماذا يعذبونه؟ تنحدر درجات الوعي الى الحضيض مع تصاعد درجات العزلة. عالم قائم بذاته، بقدر صغره فهو مفتوح لكل ما يخطر في البال. لا توجد في الزنزانة مصدات امام تدهور العقل. سألوه عن دواعي البكاء، تكلم عن تنور صغير للخبز تبقره اسنان البلدوزر.

دخل شخص عار تماما يرتعش من البرد ليشاركه الزنزانة. اقتسم معه البطانية ليدفع عنه البرد والعري. بقي معه يوما واحد. لم ينطق خلالها سوى جملة واحدة من ثمان كلمات (أنا محكوم بالأعدام، انت آخر محطة قبل الموت). حين خرج، ترك العبارة معلقة في الزنزانة. وللوهلة الاولى شك انه رسول الموت. عادت الرؤى تختلط. وجد بيتا على ضفة نهر، الخضرة تحيط به من كل جانب، وهناك قطيع من الغزلان

يلعب قبالة بيته، يقترب للحد الذي يمكن لمسه باليد. قطيع من البقر يأكل النهار بطوله. طائر بريش اسود يغني اسمه (الميريل). سناجب رمادية تتقافز من شجرة الى اخرى. يلعب البط دون ادنى ظل للحذر. ينظر الى الاتساع الأخضر المحيط به، وذلك الافتراق الكبير كي يصل الى قعر الايام العصيبة التي مرت. يدرك شرط السعادة: اجتماع النقيضين في لحظة واحدة.

هل هذه صورة للمستقبل، ام مقتربات الجنون؟ هناك فراغ زمني لايعرف كيف يملأه. يتساءل ان كان قد عاش حقبة من هذا النوع، اين ومتى؟ دخلت الزنزانة سيدة اجنبية متطوعة لمساعدته في التأقلم مع العالم الجديد. سلمته سنارة صيد مع ملحقاتها، واشارت الى الكوة في الزنزانة. سوف ترمي سنارتك من هنا الى النهر. قدمت له صورة عن علاقات جديدة بعيدا عن البشر، مع كائنات اقل ضررا. لم تعد العلاقات البشرية مغرية. قالت له ان الصيد يسمح بقتل الوقت دون عناء. شرحت له طقوس الصيد. سوف تنشأ بينك وبين الأسماك علاقة. بمرور الوقت سوف يتعرفون عليك وتتعرف عليهم. سوف تدخل معهم في لعبة مسلية تساعدك على النسيان. لم تمض سوى بضعة أسابيع حتى تعرف على السمك عن قرب. وجده لا يقل الفة عن مخلوقات الله السابحة في الفضاء. السمك لا يخاف منه ولا يهرب من الطعم، بل يتسابق لابتلاعه، يستمتع بمنظر صيده، يعلم مسبقا انه سيعود الى عالمه المائي، واصطياده هو فرصة للخروج الى عالم اليابسة ولو لبضعة دقائق يشم فيها هواء حرا ليس مذابا بالماء. السمك يعرف ان السجين اصبح طرفا في لعبة مسلية فيستسلم لسنارته المدلاة من كوة في الزنزانة. حين تعود السمكة فانها سوف تحكي كل مشاهداتها عن السجن البشري .

***

بعد زوال القرية لجأ القسم الاكبر من اهلها الى اقاربهم في جسر ديالى. لم يكن لديه حتى مزاج لتوديعهم. وتحاشى رؤية الشيخ عبود المزعل، كي يوفر عليه وعلى نفسه مرارة الوداع.

ليست شنينة سوى هامش قدري. مجموعة بيوت بنيت بيد اهلها. الماء والضياء فيها مسروق. رضي بها منبتا له ولعائلته. لكن هذه الجذور اقتلعت قبل ان تنبت. زحفت الجرافات اليها، وعاد يطفو من جديد سابحا في الفراغ. في كل ضربة جاروف كان يبتعد، وكانت زوجته تراقب بحذر انهياره. ترمقه بنظرة ملؤها اليأس والشفقة. تركته يبتلع الهزيمة لوحده بعد ان خسروا آخر فلس لديهم في الاسمنت. حاول ان يعثر على شخص ليغرقه معه. يفتش عن اذن يدلق فيها القيح الذي تراكم على فؤاده. فكر ان يذهب الى مصحة عقلية، سفينة بلا قبطان، مقبرة مهجورة، او حانة منزوية.

في القطار جلست امامه سيدة اوربية تمسك كتابا. قطع عليها استغراقها ليحكي قصته. خلعت السيدة نظاراتها ورفعت حاجبيها لتعبر عن استغرابها من مسح قرية بهذه السهولة:

(لماذا لم يجمع اهالي القرية تواقيع ويرسلوها الى البلدية ليمنعوا تنفيذ هذا القرار؟).

سكت تماما، لم يكن لديه اي جواب، انتظرته دقائق، ثم عادت الى كتابها. فكر ان يرمي بنفسه من القطار، ولكنه وجدها فكرة سخيفة، سيكون موته مجانيا، ولا يحدث اي أثر ماعدا تعطيل حركة القطارات لبضعة ساعات. اعادته موجة التقهقر ليجد نفسه في زنزانة انفرادية، ثم صعد الماء في عنفوان جديد ورماه في القطار المعاكس. الأفضل ان يواصل رحلته حتى يتيه تماما. غفا في مقعده وترك السكك الحديدية تأخذه حيثما تشاء. وجد احدهم يهزه من كتفه. استيقظ على صوت المفتش وهو يدعوه الى ابراز بطاقته. اخرج له ورقة صغيرة من جيبه تحوي ملخصا لمصير شنينة، قرأها عليه، قال المفتش هذه التذكرة لا تكفي، انها لمحطة واحدة فقط .

★★★

جون ماير

(بعد العاصفة، يلتقي سعدون الراهي بموظف في السفارة الامريكية ببغداد، يبدأ بحديث عن انقطاع التيار الكهربائي. تتأخر عودة التيار. يمتلىء اللقاء بالشاي

والكلام عن : افلام الويسترن، والادب الامريكي، وقدح الشاي العراقي، وينتهي بطريقة تقسيم الارض)

في واحدة من أيام كانون الباردة هبت عاصفة رعناء على بغداد. أطاحت بالأعمدة وقطعت اوصال الشبكة الكهربائية. دفعت الاشجار الى تقطيع الأسلاك. احرقت المحولات ووضعت العاصمة على أعتاب عهد ماقبل الكهرباء . عادت الفوانيس الزيتية ومواقد الحطب بين ليلة وضحاها. لم يكن عملا من أعمال الشيطان ، لكنها الطبيعة الغاضبة. كان ذلك اليوم هو الاصعب منذ سنين طويلة. كان على المهندس سعدون وعماله ومساعديه ان يعملوا ليل نهار ولأيام، لكي يؤمنوا عودة الضياء والدفء والحركة الى القطاع المسؤولين عنه في العاصمة.

في زحمة الشكاوى والمكالمات وضغط الأدارة العامة، دخلت مقر القطاع سيارة دبلوماسية تحمل العلم الامريكي. نزل منها رجل أجنبي، بدا من هيئته وملامحمه انه غربي: عينان زرقاوان وطول يضاهي اعمدة الكهرباء. لم يكن معه أحد يرافقه. حين ترجل من سيارته ظل واقفا ينتظر من يعرفه. تقدم مسؤول القطاع اليه ورحب به بالانجليزية، فرد التحية بعربية عذبة رقيقة. سحبه المهندس الى مكتبه وطلب له شاي. لم يستغرق أندماجه وقتا طويلا. أبتدأ بعبارة مواساة.

الأجنبي: لاشك انكم تعيشون اياما صعبة.

سعدون: كما ترى.

الأجنبي: أنا جون ماير، موظف في السفارة الأمريكية، بلا كهرباء منذ يومين.

ذكر الحي والشارع الذي يسكن فيه، وتحدث عن حاجة زوجته وطفله المولود توا الى الدفء.

حاول المهندس سعدون الراهي بدوره ابداء تفهمه ممزوجا بنبرة اعتذار: يومان بلا كهرباء هو زمن طويل في السلك الدبلوماسي ... ولو كنت في امريكا فسوف اطرد من وظيفتي .. ههههه ... أليس كذلك؟

قابل الاجنبي هذه المواساة بابتسامة، سرعان ما امتدت الى ضحكة، اهتز لها كتفاه. قدم نفسه بطريقة خالية من البروتوكول، فزاد ذلك من جاذبيته. الفضول يزداد لمعرفة هويته. يتكلم العربية الفصحى افضل من بعض ملوك العرب. قال انه يعمل في الشرق الاوسط منذ أكثر من ثلاثين عاما. هذه المرة استغرق انقطاع التيار زمنا أطول. الشتاء قارس، وكل شئ في البيت يعمل بالكهرباء حتى بطانية الطفل. اتصل هاتفيا ثلاث مرات، ولم يحصل على جواب. دون المهندس العنوان، وفتش سجل الشكاوي فوجد ان محولة الشارع محترقة. الأولويات الرسمية تضع للشارع الذي يسكن فيه جون ماير تسلسلا بعيدا. يتوجب الانتظار لحين وصول المحولات الجديدة .

يقرر سعدون مع نفسه أن يحسم موضوع جون ماير باسرع وقت، لن يجعله ينتظر أياما أخرى. سوف يبقي الامريكي في غرفته ريثما يحل الفنيون مشكلته. قد يطول انتظاره، لكن (ام سلامة) نحلة الدائرة سوف تجعل ذلك الانتظار محتملا، تملأه بحضورها وشايها العذب.

لم تكن هناك مقدمات، كأنهما يواصلان حديثا سابقا. يملك جون ماير هشاشة رائعة. ومع اضافة اللغة العربية يتحول الى مخلوق نادر. لا يخطر في البال ان يكون موظفا في سفارة. تجاوز الكثير من المقدمات،

ووجد نفسه شريكا في لعبة تجاوز ماهو رسمي وجاد. سرعان ما بدأ الحوار يضرب بالعظم، وينساب بطواعية غريبة. أطرى على الشاي الذي حملته (أم سلامة) مع طبق المعجنات (الكليجة) التي تصنعها بيدها. نطق بضعة كلمات بالفصحى، لم تدخل اذنها بسهولة، وكأنها خرجت من فم عفريت. وقفت في زاوية من المكتب تنظر اليه بتأن و حذر.

قدح الشاي (الاستكان) الذي تقدمه ام سلامة من الحجم الصغير. تدافع ام سلامة عن تمسكها بهذا الحجم لدواعي صحية، ولقد اقتنع المهندس بذلك، فموظفو الدائرة لايكفون عن تناول الشاي. مع كل سيجارة قدح شاي. هناك رؤيا يحتفظ بها المهندس لنفسه لتفسير هذا الحجم، يتعلق بحجم ام سلامة نفسها، فهي قصيرة بشكل ملفت النظر. هناك بضعة سنتمترات تفصلها عن الاقزام، لكنها عوضت كل ذلك بجمال وجهها وروحها وعمرها الذي لايمكن التكهن به. جاذبية ام سلامة تكمن في وجهها، ذلك الجزء المدور المضيء المحاط بفوطة سوداء، مثل قمر في ليلة حالكة، تطل به على دائرة الكهرباء فتملأها بهجة وحيوية. ربما ترى ام سلامة العالم اصغر مما هو عليه. طلب المهندس المزيد من الشاي لضيفه، فمخترع القدح (الاستكان) العراقي لم يراع حجم المستر جون ماير. اجرى المهندس مقارنة بين القدحين العراقي والامريكي: القدح الامريكي يستوعب سبعة من اقداح ام سلامة. بقيت ام سلامة صافنة، ومن المحتمل انها حسبتها: هل يتوجب ان تحمل صينية الشاي سبعة مرات، ام تضع سبعة اقداح مرة واحدة، وتترك الضيف يعبها الواحد بعد الآخر. رغم انها قيلت بالعامية العراقية، الا ان الدبلوماسي فهم تلك الاشارات فاطلق ضحكته للمرة الثانية. وكان عليه ان يفرش جسده لكي يسمح لتك الضحكة ان تعبر الى اجزاء اخرى من جسده. وقد لاحظت ام سلامة ذلك فاشكل الامر عليها. هذه اول مرة ترى شخصا يضحك بركبتيه. لم تتمكن من تحديد عنصر النكتة الغامر الذي استولى على هذا الرجل الغريب، حيث استطاع ان يوجه نظرة خالية من المعنى الى ام سلامة ويواصل ضحكته. وقد لاحظت ذلك فازداد ارتباكها. ارادت ان تقول للمهندس شيئا قبل ان تخرج، لكن وجود الضيف جعلها تتردد. لاحظ المهندس ذلك فادنى اذنه من فمها. همست اليه سائلة ان كان ضيفه يعرف الباميا بالتمن. ابتسم لها وطلب احضار المزيد من الشاي. حاولت قبل خروجها ان تتحاشى النظر الى تلك الضخامة المفرطة للضيف الاجنبي ونظراته اليها. كان الفارق بين حجمها وحجمه يضيف لها ارتباكا. لكنها استطاعت ان تلملم نفسها وتعود الى غرفتها الصغيرة. قطع المهندس الصمت ليسأل ضيفه: ان الضيافة العربية تفرض ان لايسأل الضيف عن حاجته الا بعد ثلاثة ايام. ابتسم جون ماير دون تكلف، ورد بلطف: هل يمكن تأجيل ضيافتكم لوقت آخر؟ سوف تتجمد عائلتي من البرد. يحاول جون ماير التخلص من ضغط الوظيفته، والغاء المسافة بين من يكلمهم وملامسة القاع الاجتماعي. وقد حدس المهندس ذلك. وبما أنه يفهم العربية، فلابد انه قد سمع عن ال (باميا بالتمن) او باميا بالرز كي لايزعل النحويون. أنها الأكلة التي توحد العراقيين. سوف تعدها وتقدمها لهم ام سلامة، وبذلك لن يكون الأنتظار بلا عوائد. قدم جون ماير شكره وامتنانه لهذه الدعوة ، ثم انعطف على عجل الى موضوع شخصي، وسأل المهندس ان كان يعرف امرأة يمكن ان تعين زوجته في شؤون البيت مقابل اجر مجزي. لم يكن ببال المهندس سوى ام سلامة، وربما هي نفسها ببال جون ماير. فطمأنه المهندس ان مايبحث عنه موجود.

بدأت ام سلامة تخاف من شيء لا وجود له، وحين دخلت بالشاي للمرة الثالثة، وضعت القدحين قبالة المهندس. لم تتجرأ ان تناول الضيف قدحه. كانت نظرته اليها تصيبها بالحيرة. هل يقيس هذا العملاق طول قامتها؟

المهندس: (ام سلامة،لا تخافي، اقتربي منه، لن يعضك)

أستعد جون ماير لاطلاق قهقهة امريكية الى فضاء الغرفة. تحسس صلابة الأريكة التي يجلس عليها قبل ان يرمي بثقله عليها، وضع كفه على كرشه، تراجع الى الوراء، ومد ساقيه الى الامام حتى وصلتا الى طاولة المكتب، رفع الكلفة الى اقصى حد، وبدأ يضحك. الفم مستدير جدا، خرجت نفثات صوتية بيضاء، تحاكي قطارا بخاريا عتيقا، يسير ثم يتوقف اضطراريا. افزعتها طريقته في التعبير عن بهجته، رأت الأريكة تختض، والاقداح تتراقص، واوراق البريد تتحرك من مكانها.

نحلة العسل (ام سلامة) قبلت الوظيفة الجديدة، حسبتها على الفور، خمسة ايام في دائرة الكهرباء ويوم واحد في بيت جون ماير. حدثت نفسها بصوت مسموع، سوف تدخل بيت السفير، وتخدم زوجته وطفلها. صححوا لها المعلومة: جون ماير ليس سفيرا، بل موظفا عاديا، لكنها رفضت التصحيح. وواصلت نشوتها بالمكانة الممنوحة لها. قالت انها تريد ان تحمل لاحقا لقب خادمة السفير. اطلق جون ماير موجة جديدة من الضحك غمرت وجهه بالعرق. اوصاها المهندس ان لا تثرثر، ولا تخبر حتى عائلتها. لم يعد بوسعها ان تخنق فرحتها، راحت تطوف على الجميع. تقدم ما تيسر من كعك وشاي. لا تبتعد عن غرفة المهندس. تطل عليها كل ربع ساعة، لتضع قدحين من الشاي، وتتأكد انها لاتحلم.

نادت أم سلامة على الجميع بالتوجه الى مخزن الأدوات الاحتياطية. أعادت ترتيب الطاولات، ونقلت الكراسي. جمعت المستخدمين والعمال. ذهبت الى غرفة اللاسلكي ونادت بجهاز الارسال: على الجميع التوجه الى مقر القطاع قبل ان تبرد اطباق الباميا.

أكل الامريكي بشهية فائقة. كان تفاعله مع الباميا حقيقيا ودون اية عوائق، حتى أنه لطع اصابعه. نطق كل ما يعرفه من كلمات الأمتنان بالعربية والانجليزية.

اقتربت ام سلامة من المهندس ووشوشت اليه دهشتها: الامريكي يأكل الباميا مثلنا.

رد عليها بذات الوشوشة: ولماذا لايأكل الباميا، الامريكي يحمل نفس المعدة والمصارين التي عندنا.

غطت ام سلامة فمها لتضحك من الداخل، وقالت: بصراحة، كنت خائفة، قلت كيف يشبع هذا العملاق، القدر كله لايكفيه.

قال المهندس: جون ماير موظف في السلك دبلوماسي، وليس ديناصور.

فلم تفهم العبارة بالمجمل، ودخلت كلمة (السلك) فاربكتها، فهي لاتعرف سوى (السلك النحاسي) الذي يجره العمال كل يوم. زمت شفتيها وهزت كفها متسائلة. شرح لها معاني الكلمات: سلك يعني وظيفة، دبلوماسي يعني متكلم لبق، الديناصور حيوان نهم، حجمه فيلين ونصف. تعطل وصول النكتة الى ام سلامة حتى اكتمل الشرح، عندئذ رفعت طرف فوطتها لتسد فمها، خنقت ضحكة نصف محرمة، صوت رفيع يشبه دغدغة العصافير.

بعد انتهاء وليمة الباميا عاد المهندس وضيفه الى المكتب. سرعان ما لحقت بهما نحلة العسل حاملة صينية الشاي وهي ترفرف بجناحيها، وتضرب الممر بحذائها الصغير كأنها نشيد مدرسي. حين وضعت الصينية واستأذنت بالانصراف امسك بها المهندس، ونقل الى جون ماير وشوشتها اثناء تناوله الباميا. اضاف بعضا من التوابل. ترى ام سلامة ان كل شيء في هذا الامريكي فوق المعتاد، وهي تتوقع ان معدته اربعة اضعاف العراقي، وربما شهيته، وشهوته، وضحكته، ونظرته. راحت ام سلامة تتوسل بالمهندس ان لا يضيف من عنده. هذه ليست وشوشتها. تنكمش لتصغر اكثر مما هي عليه، وكلما صغرت صارت اجمل، واقتربت من خفة الزرازير. حاول سعدون أن يدفع الحديث بأتجاه ابعد، سأل أم سلامة:

(مارأيك ان تتزوجيه ؟)

فتحت ام سلامة عينيها ومسحت الأمريكي من رأسه الى قدميه. أنه اطول من الواقفين وهو جالس على الأريكة، فما بالك لو قام. ولابد أنها عرته من ملابسه لكي تتأمل الجزء الذي سيدخل فيها لو تزوجته. فردت بعراقية صميمية من المستحسن عدم التلاعب بها:

(لا .. عيني ..هذا كلش طويل .. الله يستر)

يفهم جون ماير اللهجة العراقية مثلما يفهم العربية الفصحى. سمع وفهم مادار بين مسؤول القطاع وبين أم سلامة. القهقهة الأمريكية الاصيلة تحتاج لمساحة واسعة كي تتفرغ. وحين داهمته لم يكن أمامه سوى المكتب وأريكة ذات نفرين. يحتاج جون ماير الى ستة امتار مربعة، وزمنا لا يقل عن خمس دقائق لتفريغ موجة الضحك. لكي يقهقه من كل قلبه عليه ان يخلع سترته، يفك ربطة العنق، يفك حزام السروال وبضعة ازرار من القميص، ويتمدد افقيا قدر الامكان. من الممكن ان يكون هذه الاهتزازات المتكررة وسيلته للتشفي من التاريخ الوظيفي، خصوصا الابتسامة الدبلوماسية المليئة بالكذب.

سوف يوعز سعدون الى الفنيين بأجراء تعديل في الشبكة، ومد خطوط جديدة لربط البيت بالمحولة المجاورة . ان ذلك يتطلب بعض الوقت لكنه لن يكون ثقيلا.

الصدفة وحدها صنعت هذا اللقاء، ولو كان مدبرا لما وقع اصلا. فاحدهما موظف في الدولة العراقية في ذروة بوليسيتها، والآخر موظف في السفارة الامريكية. كشف المهندس العراقي لضيفه انه اول أمريكي من لحم ودم يتكلم معه. هذا الصنف من البشر لا يعرف عنهم سوى انهم يطاردون الهنود الحمر ليصيدونهم مثل حيوان البوفالو. الامريكي هو راعي بقر يتكلم من انفه، ويبتلع ثلثي الحروف الانجليزية التي تعلم في المدارس. كان الامريكي هو ثلاثة دولارات ملطخة بالدم، وترنتي الذي لا يتفاهم، وقاطع طريق ميسوري، وعربة الحرب، ومستمر كراعي بقر، والصخرة العارية. صورة الطفولة والصبا، فارس ملثم ، وقبعة معقوفة، ومسدسين في الخصر، وسروال الكتان الازرق. الامريكي هو: جون واين، وكاري كوبر، وجيمس ستيورات، وبرت لانكستر، ويول براينر. صورهم الورقية هي اللعبة المفضلة في سنوات الصبا. وحين تقترب وجوههم في الشاشة البيضاء يتعالى تصفيق وصراخ الجالسين في مقاعد سينما شهرزاد في شارع الرشيد .

 ابدى جون ماير استغرابه لهذا الاختزال المفرط لبلده: بلدات بلا امان تملأها الفوضى والعصابات، وقطاع طرق ملثمين، ومبارزات في الشوارع، والانتهاك اليومي للقانون. الويسترن صورة لزمن خاطف او لا وجود له، فعملية خطف قطار او سطو مسلح على بنك لاتحدث اليوم الا نادرا. اما المبارزات فقد منعت رسميا منذ زمن بعيد. رجال الأكشن، حملة الشرف الخفي والمسدسات، لم يعد لهم وجود. نحن الآن في عصر جنود المارينز المنضبطين مثل حركة الكواكب، الذين ارسلوا الى اوربا للقضاء على النازية.

سأله جوان ماير: (اي الصورتين تحملها الآن ؟)

أجاب المهندس انه شخصيا خرج من قاعة سينما شهرزاد، ولم يعد اليها. ومثلما غادر عمر الصبا، فقد غادر تلك الافلام، ولم يعد يلعب بصور جون واين، وينام وهي في جيبه. غير ان اكثر من تسعين بالمائة من رواد سينما شهرزاد مازالوا متشبثين بالمقاعد، ولايريدون ان يغادروها، منهم اصدقاء له، فقد ادمنوا تلك الافلام ولم يعودوا قادرين على رؤية غيرها. وجاءت الحرب الباردة فاضافت نكهة جديدة لهذه البغضاء. اجتمعت هوليوود الكاوبوي والايديولوجيا وتشكل منهما صورة امريكا، حتى اصبحت الصورة

المحببة. ومهما عملت القنوات الدبلوماسية فلن تغير شيئا. فلو ازيح فيلم (الدورادو El Dorado) عن واجهة سينما شهرزاد، ووضع مكانه فيلم (اليوم الأطول The longest day) فسوف ينزع المتفرجون عن روبرت ميتشم خوذة المارينز ويضعون مكانها قبعة رعاة البقر.

توقف جون قليلا، وتطلع في وجه مضيفه سائلا: وكيف تبدلت، ماذا جرى لك؟

اخذ المهندس رشفة من قدح الشاي وعاد سنوات بعيدة الى الوراء، حيث تعرف فيها على ثلاثة امريكان من نوع مختلف. في سياق يشبه المصادفة، عثر على لؤلؤة جون شتاينبك، وعناقيد غضبه، ومازال يبحث عن الرجال والفئران، وشتاء الاحزان. الصدمة التالية كانت همنغواي في الشيخ والبحر، ولمن تقرع الاجراس، وترجمات اخرى ليست دقيقة وبعضها مشوه. ثم جاء وليم فولكنر فكان العاصفة التي دفعت القارب بعيدا جدا عن الويسترن ومبارزات فرسانهم. حل صخب وعنف من نوع جديد، بلا مسدسات ولا ملثمين. رست سفينته عند هذيان معتوه اسمه بنجي، ولوعة كونتن وكاندس ودلزي، وبقية المخلوقات المعذبة في نزاعها بين الشرف وانهياره. ثم جاءت اوراق حمر، ووردة لايميلي، واهبط ياموسى.

فوجئ موظف السفارة بتلك الروح، تركه يواصل نشوته، وهويعرض عالم فولكنر. كان يعرف جيفرسون كأنه سار فيها، شوارعها وحقولها ومزرعة بنجي التي تحولت الى ملعب للغولف، يعرف ملاكيها وفلاحيها وعبيدها : آل كومبسن وسارتوريس وآل سنوبز. فولكنر سجل عقاري بلغة شكسبيرية، يروي امتلاك الارض وضياعها. سجلات الطابو الامريكية مازالت رطبة، حبرها لم يجف، وورقها لم يصفر، اللحظة الأخيرة من حياة شعب بدائي مازالت عالقة: هزيمة سهمه، وتساقط ريشه وظفائره، وتفتت عظام موتاه.

قاد جون ماير الى غرفة الاوراق ، اشار الى رف في ارشيف الدائرة يحوي اضابير الامريكان الثلاث: قرأ العناوين : (الصخب والعنف)، (عناقيد الغضب)، (لمن تقرع الاجراس)، (ضوء في آب)، (اللؤلوة) (الشيخ والبحر). قال جون ماير ان الامريكيين يقرأون شتاينبك وهمنغواي اكثر من فولكنر. قطعت ام السلامة الحديث بعصير نومي البصرة وزنود الست. وجدها الذ من الكتب. تمنى لو يلثم اصابعها. خرجت مسرعة. لم يدعها تفلت من عينيه. هذا المخلوق الذي يمكن ان يضعه في جيبه، يجده اكبر واجمل من كل الكلمات.

هناك فراغات في اضابير الروائيين الثلاث تنتظر ان تملأ باعمالهم. يستطيع جون ماير ان يؤمنها له، ولكن بالانجليزية. فرح المهندس كثيرا. قال انه يقرأ بالانجليزية ولا يتحدث بها.

كشف جون أنه بالاصل ألماني مولود في امريكا. علاقته بالادب الالماني قديمة، وبالاخص فريدريك شيلر، وانه يحتفظ بنسخة من ديوانه بالانجليزية، وسيقدمه له باقرب فرصة. اما الروائيين الثلاث فسوف يفتش عنهم في مكتبة السفارة، فان لم يجدهم، فسوف يوعز بارسالها عبر الحقيبة الدبلوماسية، وسيوصلها اليه.

قطعت فريدة (مسؤولة الشكاوي) الحديث لتبشره بقرب وصول التيار الى بيت الموظف الأمريكي. لم يبق سوى أن يتصل بنفسه مع المحطة المعنية لغرض تأمين التوصيل الكهربائي. سوف يتم ربط بيت جون ماير بالمحولة الخاصة بدار السيد قائد الفيلق الثالث.

قبل أن يمسك جهاز اللاسلكي التفت الى جون ماير وهمس بأذنه:

(سوف ترتبط كهرباء بيتك بقائد فيلق، تشتعل متى يشتعل، وتنطفيء متى ينطفيء، فما هو رأيك؟)

استقبلت العبارة من قبل جون ماير بابتسامة خاطفة، سرعان ما ابتلعها، واظهر قدرا من التحفظ. تجنب التعليق على ذلك الغمز السياسي، فقد كان على علم بمأزق الفيلق الثالث، وخسائره الفادحة في شرق البصرة، حيث يخوض معركة بلا نهاية.

حول مجرى الحديث، ابلغ المهندس عن جهله بتقنيات التوصيل، وعلاقة المحولات ببعضها، وهو متلهف لمعرفة المبدأ الذي بموجبه يتم توزيع التيار الكهربائي في بغداد.

الأمر يحتاج الى رسم بياني بالورقة والقلم. اخبره المهندس ان المسألة ليست تقنية تماما. لاشك ان للعاصفة دخل كبير فيما يجري، لقد اتت على كل المخزون من المحولات والاسلاك والاعمدة، لكن الأمر أبعد من هذا النقص. امتد الحديث حتى وصل سعدون الى نظرية الحلقات (اقتصاد الغنيمة). أنها خطوة متقدمة على طريق رابطة متينة مع جون ماير، نوع من المكاشفة المتقدمة، حرق للمراحل على طريق خطرة جدا. كان سعدون كمن يدغدغ التمساح. مد يده في الارشيف واستل كتابا ممنوعا مغطى بشبكة تمويه محكمة. ابدى جون ماير ارتياحه لهذا البوح، وعبرعنه بكلمات التبجيل والاصغاء العميق. فتح سعدون الراهي الكتاب على رسم توضيحي يتألف من دوائر موحدة المركز، ومنها تتشكل الحلقات. بدأ من السيد الرئيس، النقطة التي يتمحور عليها كل شيء في البلاد، وتلتف حولها الجموع. أنه مركز العطايا والامتيازات كلها. يحيط بالرئيس اولاده وعائلته، وليس أصدقاؤه ولا حزبه، فهؤلاء يقعون في حلقة أبعد. الحلقة التالية هي عشيرة الرئيس. ثم تتوالى الحلقات حسب قربها من المركز: جهاز الأمن الخاص، تليه حلقة اجهزة الامن، ثم يأتي الحرس الجمهوري، وبعده حملة الأنواط واصدقاء السيد الرئيس، وبعده الحزب، ثم ضباط الجيش، ثم مراتب الجيش المطوعين (المحترفين) فقط وليس الجيش كله، أخيرا تأتي آخر الحلقات وهم عامة الشعب التي ينتمي المهندس اليها.

بموجب هذه الحلقات يتم توزيع كل شيء تقريبا: الثروة، الارض، المناصب، النهر، وحتى الموز.

يمسح كتاب الحلقات نهر دجلة من الجهتين، ويحسب حصة الناس منه، سوف يجدها لا تتعدى شارعا واحدا طوله كيلومترين أسمه أبو نؤاس، اما ماتبقى فانه موزع بموجب الحلقات.

تبرز الحلقات بشكل جلي عند التزاحم، وشحة السلع. واذا كان هنالك شيء للناس فانه موجود بحكم الوفرة. الناس تشرب ماء دجلة لانه وفير حاليا. ولو حصل ان جف النهر ولم يبق منه سوى ساقية، فسوف لن يبقى شيء للحلقات الخارجية. الحلقات الداخلية لن تقلل استهلاكها، وستموت الحلقات الخارجية من العطش. تتبدل كمية الحاجيات لكن الحلقات لا تتبدل. كلما زاد التزاحم، برزت الحاجة للامتياز. هذا النظام يؤمن بقاء اللذة عبر حصرها في اضيق الحلقات (الامتياز). على عكس التوزيع الافقي، الذي يضحي باللذة مقابل المساواة. فلكي يتحول مذاق الموز الى اسطورة لابد من حصر استيراده وتناوله في الحلقات الداخلية فقط، وحرمان السواد الاعظم (الحلقة الاخيرة). يخلص الكتاب الى ان (اللذة في الامتياز. هنا يكمن مزاج القيادة وقراراتها، شحة السلع في السوق امر مصطنع ومتعمد لكي يؤمن مبدأ الامتياز).

في يوم العاصفة أنهار ثلثي الشبكة الوطنية، فبرزت نظرية الحلقات بوضوح. من الناحية التقنية لاتوجد مشكلة في توزيع التيار للجميع. والمحولة التي تغذي خمسين بيتا يمكن ان تغذي الف بيت. لن ترفض المحولة هذا الاجراء، بشرط ان يلتزم الجميع بحد معين من الاستهلاك (سحب التيار). حين يواجه المجتمع نقصا سوف لن يعاد التوزيع بل يتم الشطب والاقصاء. قد يكون الامتياز هو مزاج المجتمع

كله، وثقافته وليس السلطة وحدها. الفرد العراقي ليس ميالا للمساواة. الصور الجميلة في خياله هي للامتياز فقط.

(ومافعلناه لبيتك، يا مستر جون، هو اننا اخذنا، بشكل شبه سري، قدرا ضئيلا من محولة قائد الفيلق الثالث).

صورة تتقاطع مع المعرفة السطحية السائدة . المجتمع ليس أشتراكيا كما تزعم الدولة، ولا موزع طبقيا كما يصوره بعض المنظرين اليساريين، او طائفيا بالنسبة للتنظيمات الاسلامية السرية. قبل ذلك لم يكن للنظرية سوى صورة شفهية، يتم تبادلها همسا داخل الحانات، حتى وصلت موثقة في كتب رسمية.

مخترع هذه النظرية عالم أجتماع مغمور هو الدكتور (سالم مهاوي)، وبسببها اضطر للجوء الى بريطانيا.

ينظر مهاوي الى العراقيين كمجاميع حلقية، وليست موزعة عرقيا ولا دينيا ولا طائفيا. هذه المسميات تعمل بشكل قشري، ولا تؤثر على الشكل الاصلي للحلقات. مع كل تبدل (انقلاب) تتبدل الوجوه، وفي كل عصر تتغير اسماء الحلقات، لكن المخطط الحلقي يظل كما هو: عدد ملاكي الارض هو نفسه **227**، كأنه عقاب او قدر ألهي. مع الاقتراب من المركز تتضخم الامتيازات وتختفي الحقوق. من السهل تطبيق النظرية على: الثروة، البيوت، الخدمات، الارض، الموت، الموز، السيارات، السفر، النهر، البعثات الى الخارج، وغيرها. يطلق الباحث على تلك الحلقات اسماء متعددة، ولكنها تؤدي نفس الغرض، فهي حلقات الغنيمة او النفوذ او الولاء. أخذت النظرية تفتح فمها مثل ثعبان جائع، يبتلع حيوانا اكبر من حجمه. ضرب المهندس مثلا حيا: عن بحثه طوال سنين عن مئة وخمسين مترا من هذه الارض. اخرج من درج مكتبه رسالة مطولة بعثها الى وزير الاسكان. طلب فيها تخصيص قطعة ارض تأوي عائلته المتكدسة في غرفة واحدة، فلا يبقى حتى اوكسجين يكفي للتنفس. الحديث يزحف شيئا فشيئا من المحولات الى الارض والعقارات. حدثه سعدون عن والده الموظف الذي قضى ثلثي عمره في دائرة الطابو، والذي مات وهو يحافظ على ملكيات الآخرين. كان عليه ان يبيع كل ميراثه الذي جمعته ثلاثة أجيال من اسلافه، وكل مصوغات زوجته، لكي يشيد لهم دارا فوق ال (144) مترا التي منحها لهم الزعيم عبدالكريم قاسم.

كانوا يسكنون في (عرصة) أي خارج سجل الطابو، والتي تعني رسميا انهم (متجاوزون) على ارض الدولة. وقبل ان يرحل الزعيم أزاح جميع (التجاوزات) عن العاصمة ، وجمع أهلها في مكان واحد، هو أرض خلاء قريبة من سدة بغداد. لم يعد العيش مشتركا. انفصل والده عن اخوته. شيد لعائلته بيتا بعد ان انفق كل مدخراته وارثه لقرنين من الزمان. كان عددهم 14 نفرا، وكانو صغارا آنذاك. لم يكن اي منهم يدرك ان الصغير سيكبر، وسينتج صغارا بدوره، يضيق البيت بهم. بعد ثلاثين عاما تضاعف عددهم ثلاث مرات، غير ان قطعة الزعيم لم تكبر سنتمترا واحدا. اضيفت غرفتان الى الغرف الاربع التي شيدها الوالد. أصبح منظر البيت بهذا العدد (الذي يقرب من الخمسين في النهار) شيئا صادما، لا يمكن تقبله الا بالمسكنات، ليس بسبب الكثافة العالية فقط، بل لأسباب حساسة جدا. كان الخطر في انقراض الحياء وموت الحواس، وتعذرالقراءة او التأمل. كان من شبه المستحيل ان يختلي الأنسان بنفسه. كان من الصعب تمدد الذات في مكان يفتقر الى الفراغ. وحين اختفى الزعيم اختفت معه جملة من الوعود. كان من المؤمل ان يحصلوا منه على قروض لكي يبنوا بيوتهم. فتشوا عنه طويلا فلم يجدوه. ثم انتبهوا الى صورته في القمر، فصاروا ينتظرون ان يصبح بدرا، ويسألوه عن موعد نزوله، وعودته الى مقره في وزارة الدفاع. وكان الحب صعب اخفاؤه، فنقشوه في اطباق الطعام. حين اكتشف قتلة الزعيم تلك الاطباق، انتزعوها من الحيطان،

وحطموها باعقاب البنادق ثم عوقب اصحابها عقوبة جماعية. كان من الصعب اعدامهم، فقد بلغ عددهم المليون، واصعب منه ترحيلهم من جديد، واعادتهم الى اكواخ الطين التي خرجوا منها. تركوا في العراء، ارضا بلا غطاء، عندئذ بدأت مرحلة مد الجذور في الارض. كان الماء بعيدا. صنبور واحد لكل مئة شخص. عملوا لسنوات طويلة كي يشيدوا دارهم. لازال سعدون الراهي يتذكر ايام دبلات الطابوق، واعمدة الحديد، وطاسة الجص فوق كتفه وهو يصعد الى السطح، ويناولها الى الاسطة. احتاج البيت الى بضعة سنوات لكي يكتمل. لم تمنحهم الدولة فلسا واحدا. باعت والدته اساور عرسها. نزعت اخواته خواتمهن واقراطهن. اخرج والده كل مدخرات العمر.

وصف سعدون الراهي لضيفه نظرة الدولة اليهم. قال انها تحتقرهم. تسميهم (شعب الزعيم) . وانها فضلت اعدامهم ببطء. تركهم لسنوات طويلة يتناسلون في العراء. بلا سقوف، ولا شوارع، وبلا مجاري، ولا مستشفيات. يحيط بهم السبخ. مرة يغزوهم القمل، واخرى للنمل. كانوا اشبه بتجمع طارئ. قبائل مرتدة أو تائهة. بقايا حرب اهلية او كارثة طبيعية.

تحدث المهندس لضيفه عن ابيه، ومنصبه في دائرة الطابو، الجمل الذي (يحمل ذهب ويأكل عاقول)، وعن يوم الفيضان، وغرق السجلات، وعن دوره في اعادة الحياة اليها بخط يده. حدثه عن سرداب عميق، وسجلات لاتبلى بالماء، ولا يمحوها الزمن. حدثه عن خيول تملك اقطاعيات وسندات ملكية رسمية. تحدث عن عري قديم ينتصب له العقل، ويقذف فوق السجلات الصخرية، بصاقا او مرارة صفراء. اباح المهندس لضيفه بسر عتيق. تبخر خوفه. عاد صبيا اكثر جرأة وصلابة. خط بيده سجلا عقاريا مزورا. وضع الاختام والتواقيع اللازمة، وحشره بين السجلات الصحيحة. كان جون ماير يصغي بكل جوارحه، وقد مرت الساعات، ودخلت ام سلامة وخرجت دون ان يشعروا بها.

الحديث يتشعب ويفرخ عن صغار يسبحون في المخيلة، يجمعهم هم واحد. يحاول المهندس ان لايضيع الخيط الرفيع. يحتاج الى زمن طويل ليغطي محنته. بعد ابحار طويل عاد بسفينته مقتربا من آخرسنوات المرارة. تحدث عن حلم شنينة الموؤد، وعن وزير الاسكان الخارق للعادة. فلكي يحصل على مئة وخمسين متر من ارض بلاده يقترح عليه الوزير ان يبصق بوجه هارب مشنوق، يتدلى لثلاثة ايام في ساحة عامة. انهمر الاسى وانغلقت الاعين في وقت واحد. فلم يصدق جون ماير عقله. فتح المهندس درج مكتبه وسحب ملف مراسلاته مع وزير الاسكان ووضعه قدام جون ماير. لم يخف جون ماير دمعة تلألت في طارف جفنه وهو يقرأ العبارة التي وضع خط احمر تحتها. طلب تسليمه المراسلات لقراءتها على مهل. وابدى رغبته في الاحتفاظ بنسخة منها.

ذهب المهندس الى الارشيف وعاد بملف شنينة، وضع الاوراق في ظرف وقدمها اليه. حين أخذ جون ماير آخر رشفة من الشاي كان عقله قد ذهب بعيدا. بقي ممسكا بالقدح الفارغ زمنا طويلا، كأنه يفتش فيه عن شئ يريد قوله.

عاد التيار الى بيت جون ماير. لم يبق له عذر. تطلع سعدون اليه فوجده مستغرقا في ذيول ما دار بينهما، لم يبتهج بعودة التيار الى داره، ولم ينصرف، بل طلب بنفسه قدح شاي أخير.

سأله: بماذا تفكر، مستر جون؟

اجاب وعيناه مفتوحتان على مكان مجهول: افكر فيما قلته، ولكن هذا لايكفي.

***

اليانصيب العقاري

(في هذا الفصل يقوم سعدون الراهي باطلاع جون ماير على نيته للدخول في اليانصيب العقاري، ويشرح له مفصلا الشرط الذي وضعته الدولة للمشاركة)

التقيا في مبنى السفارة. ولكي يبدو كل شيء رسميا، فقد حرر جون ماير طلبا رسميا لقطع التيار وعزل المحولة لتنفيذ التوسعات داخل المبنى.لابد ان يذهب المهندس بنفسه الى الموقع، ويدخل المبنى ويشرب القهوة في تلك البقعة من حي الكرادة، والتي تعتبر بموجب القانون الدولي ارضا امريكية. من الصعب التخلص من ذلك الشعور بانه الاول في مؤسسة الكهرباء، الذي تطأ قدمه هذا المبنى. غير ان المستر جون كان متهيأ لتبديد ما يعكر اللقاء بهذا العراقي، الذي لايقل عنه غرابة ومجازفة. بعد اجراء الكشف جلس الاثنان في كرفان يتخذ منه جون ماير مكتبا له. تكلما عن اشياء عابرة، ومباهج اللقاء الاول: الشاي والباميا وزنود الست، وام سلامة ويومها الاول في بيت جون ماير، ثم سرعان ما تحول الحديث الى معضلة (السكن)، محورالمعاناة الشخصية للمهندس.

على طاولة اللقاء ترقد النسخ الاصلية لاوراق شنينة والمراسلات المتبادلة مع وزير الاسكان. قرأها جون ماير بحرص بالغ، فلمس عصبا حساسا. صورها، واحتفظ بنسخ منها. صنع منها نواة لملف. وهو ينتظر من المهندس المزيد من الاوراق الشخصية عن تجربته: اشباه الحلول، المحاولات الفاشلة، والفرص المتبقية امامه. لم يكن اللقاء عفويا تماما. فقد حمل المهندس اوراقا جديدة تخص اليانصيب العقاري: طلب رسمي بخط يده للمشاركة، موافقة ديوان الرئاسة مع الرقم المعين له في اليانصيب، اوراق ثبوتية. شعر ان من واجبه اطلاع جون ماير على هذا الامر بالتفصيل، فهو يمثل خيارا حاسما في حياته.

اليانصيب العقاري هو الاستثناء المعاكس لفكرة الامتياز (نظرية الحلقات)، ابتكرها الحزب قبل صعود السيد الرئيس الى قمة الهرم. في هذا اليانصيب يحق لجميع المواطنين المشاركة، بغض النظر عن

انتماءاتهم ومشاريبهم. لايوجد سوى شرط واحد هو تقبيل السيد الرئيس، الذي يمثل رسم الدخول لليانصيب. الجائزة هي قطعة ارض مع منحة لبناء دار. يجري السحب اسبوعيا. الترشيح يكون بعد تقديم طلب لديوان الرئاسة بعنوان (اريد ان اقبل السيد الرئيس). الشيء المهم انه يحق المشاركة حتى لأعداء الثورة والحزب، والسجناء المجرمين، وارباب السوابق، والهاربين من الحرب، والعصاة في الجبل، واللاجئين خارج العراق. كل هؤلاء المعادين للثورة بامكانهم تقبيل السيد الرئيس ثم العودة لممارسة نشاطهم. اثبت السيد الرئيس احترامه الكامل لهذه القواعد. فقد حصل بموجب ذلك ابرز المنشقين عن الحزب، والمطلوبين من قادة حزب الدعوة والشيوعيين على قطع اراض. باعوها وقبضوا ثمنها، ثم عادوا الى سوريا. وفاز باليانصيب ثلاثة من البيشمركة التابعين لمسعود البارزاني، واثنين من قوات الانصار، واربعة من جماعة جلال الطالباني. استقبلوا في القصر الجمهوري، قبلوا الرئيس، ثم عادوا لحمل السلاح والعصيان في الجبل.

جون ماير: ماهي احتمالية الفوز بقبلة الرئيس؟

سعدون: من المتعذر معرفة الاحتمالية، فهي تعتمد على الطلبات المقدمة لديوان الرئاسة. عموما ان السحبة تجري شهريا لاختيار 30 اسما من بين المتقدمين.

جون ماير: على حد علمي، ان تقبيل الرجل للرجل عندكم أمر مقبول، وليس فيه دلالة شذوذ، كما هو عندنا ، ولذلك ارى ان الفكرة ممتازة. كما ان رئيسكم وسيم، وأظن ان الكثيرين يودون تقبيله، خصوصا النساء، سواء بقطعة ارض او بدونها، اليس كذلك؟

سعدون: هذا صحيح، ولكن المشكلة ليست في القبلة، بل في موضعها. العراقيون يقبلون بعضهم في الخد دون حرج، وبشكل متناظر، لكن مع السيد الرئيس الأمر يختلف.

جون ماير: هل يمكن ان توضح لي؟

***

يرتبط اليانصيب العقاري بقبلة السيد الرئيس. تكفلت اللجنة المشرفة وضع التصميم والخريطة، واجراء التعديلات اللازمة لموضع اللثم، والمكلفين باداء القبلة. حيث مازالت الكثير من التفاصيل تتحرك افقيا وعموديا دون استقرار، من قبيل: موضع اللثم، وهوية المكلف باداء القبلة. هل تلزم التعليمات جميع افراد العائلة بالتقبيل؟ ام يكفي واحد منهم؟ ومن هو؟ هل يحق التقبيل بالنيابة؟ وماذا بشأن النساء؟ وغيرها من الاسئلة العالقة.

لايؤمن السيد الرئيس بالحب عن بعد، او الحب الباطني. ينبغي أظهار الحب بكل الوسائل: غناء ، قصائد، مقالات، هتافات، كلمة عابرة ، رسائل، وصولا الى ذروة الحب وهو الأتصال الجسدي. تقبيل السيد الرئيس هي الطريقة المثلى لاتقاء شره. وبالنسبة للقيادة فهي الوسيلة المعتادة لفصل الاعداء عن الاصدقاء.

يعطي تاريخ اليانصيب فكرة عن التبدلات التي طرأت على الحزب الحاكم في عهد الرئيس. فكانت عمليات السحب الدورية هي مناسبات وطنية، وفي نفس الوقت تظهر آخر تحولات القبلة. قبل 17 تموز 1968 كان الرفاق في الحزب يقبلون بعضهم من الخدود وبشكل متساو تقريبا، ولكن ما ان نجح

الانقلاب حتى ظهر تبدلا واضحا علي القبلة، اذ اصبحت من طرف واحد. كان السيد النائب (لم يكن رئيسا بعد) يقف شامخا تاركا رفاقه يتسلقون قامته المديدة ليطبعون قبلهم على وجنتيه. بهذه القبلة بدأ اليانصيب العقاري. في عام 1979 وبحركة خاطفة انقض على خصومه في الحزب ومزقهم بأسنانه. وعزل الرئيس ليأخذ مكانه. منذ ذلك اليوم والرفاق في الحزب يصابون بالهلع في حضرته. وكان لابد من تخفيف الهلع بالقبل. هبطت القبلة بضعة سنتمترات نحو الاسفل، لتقف عند الفكين. وكان على اللجنة المشرفة ان تجري تعديلات جديدة على شروط المشاركة في اليانصيب.

بعد توليه الرئاسة، أصدر مرسوما يمنع لثم الوجه، فهبطت القبلة الى جوانب العنق. غير ان هذا النوع من التقبيل يخلف رطوبة غير محببة. ففي عمليات السحب اللاحقة لاحظ الرفاق علامات تقزز لدى الرئيس، فصدرت تعليمات بترك الرقبة والنزول الى الكتفين. وكان على اللجنة ان تضع مخططا للمواضع الجديدة للأتصال الجسدي بالرئيس، وتنشرها في جريدة الوقائع العراقية والصحف الرسمية، خصوصا وان تقبيل الكتفين اصبح سمة التكريم الذي يحضى به الضباط المتميزون في الحرب.

حدث تطور لاحق هبط بالقبلة الى النهدين. لا يعرف بالضبط من هو صاحب المبادرة، فقد ظهرت القبلة على الشاشة الصغيرة، وتكررت خمسة وعشرين الف مرة. قبلات خارج اليانصيب العقاري. المشهد استغرق اسبوعا كاملا، لتقليد الكوادر المتقدمة في الحزب وسام الاستحقاق، ومنحهم قطع اراض سكنية ومنح بناء. بكلمات وزير الاسكان الذي سلمهم سندات الطابو: (استحقاق العابرين على حبل رفيع مشدود بين ضفتي المواطن العادي والمواطن الخارق للعادة). كان من الممكن ان يتوقف التقبيل عند هذا الحد، ولكن حدث ان فجر احد كبارالحزبيين قبلة مدوية. في لحظة عامرة بالولاء هبط الرفيق وديع الشيخلي ليضع قبلته فوق سرة السيد الرئيس. وقف بين يديه وهو في ذروة مجده، فقد بطش للتو بمجاميع الهاربين من الحرب، وشتت شملهم، وعلق الكثير منهم على حبل المشانق، فاستحق وسام الرافدين. انحنى بطريقة تعبدية، وطبع قبلته فوق سرة الرئيس. كان ذلك المشهد موغلا في الوجد، واقرب ان يكون سماويا.

يعزو المراقبون الحياديون هذه القبلة الى وصول الشيخلي الى حالة النرفانا، اما حساده فيعزونها الى تأثير الويسكي الذي يشربه بكثافة، أو لقصر قامته، او وجود فراغ كبير يفصله عن الرئيس في لحظة التقبيل. خارج اليانصيب العقاري لم تعد سرة السيد الرئيس حكرا على شفاه الحزب، فقد مرت عليها شفاه ضباط الجيش، وموظفي الدولة، ورجال الدين الافاضل، شيوخ العشائر، وممثلي المنظمات النقابية والجمعيات، وشفاه لفيف من الفنانين. وفي ساعة وئام بين الحكومة واقليم كردستان، وصل القائدان المتمردان مسعود البارزاني وجلال الطالباني (كل على انفراد) الى بغداد، طبع كل قبلته على سرة الرئيس، وعادا الى التمرد من جديد، بعد فشل المفاوضات.

الجدير بالذكر ان مرسوما جمهوريا صدر بأعتبار السيد الرئيس اطول رجل في البلاد. جاء هذا المرسوم بعد جملة خرجت من فمه، ونقلت من على شاشة التلفزيون، اثناء تكريمه للضباط المتميزين في الحرب. وقف عند احدهم ليقلده نوط الشجاعة، وجد الرئيس صعوبة في شك الدبوس، فقد كان الضابط طويلا بشكل غير معهود. عندئذ خرجت الجملة ممزوجة بابتسامة لا تخلو من الامتعاض:

(أنت أطول مني ؟)

كاد الضابط ان يسقط مغشيا عليه من الخوف، فقد ظلت كف الرئيس على كتفه لفترة اطول من زملائه. اصفر وجهه، اغمض عينيه، طأطأ رأسه الى ادنى حد ليتفادى عيني الرئيس المصوبة اليه. خجل من طوله. احتار كيف يكون أقصر. حاول ان يحني جذعه قليلا و يباعد ساقيه.

تولى الحزب تنفيذ المرسوم. اصدر توصيات الى (الشاذين) الذين يتجاوز طولهم الرئيس بضرورة الانحناء عند الاقتراب، او تعمد الجلوس، او التظاهر بالعوق، او التخلف عن الحضور حتى يجد الحزب اعذارا لغيابهم. وبالنسبة للأطوال (المحيرة) الذين يقترب طولهم من السيد الرئيس، نصح بضرورة الامتناع كليا عن لبس احذية بكعوب عالية.

توقف التقبيل عند سرة السيد الرئيس، طالما ان العهد لم يخرج بعد عن حدود الجزء العلوي من الجسد الرئاسي. هنالك منطقة محرمة، طبعا، ولايجوز التقرب منها.

لايحب الرئيس تقبيل الايادي لانها تذكره بملالي طهران، لذلك لم يسمح بها اطلاقا.

هناك مراسيم في تقبيل السيد الرئيس، اشبه بختان المسلمين او تعميد النصارى. تتألف من وسائل الاعلام ، والشهود، وعزف النشيد الوطني، وتوزيع العصير والحلوى، والتقاط صورة للحظة التقبيل، لغرض نشرها في الصحف الرسمية، وتعميمها على الجهاز الحزبي، وارسال نسخة الى الاضبارة الشخصية. يوصى المؤدون للقبلة بوضع صورهم في اماكن مبرزة في بيوتهم أو عملهم او سياراتهم.

لا ينحني السيد الرئيس عند تقبيله، وهو في العادة يلبس حذاءا بكعب عال ليزيد طوله. طوال عقود بذل الحزب جهدا رائعا لوضع خريطة نهائية للأتصال الجسدي بالسيد الرئيس. تبدأ المنطقة من اسفل العنق تحت تفاحة آدم لتشمل: الكتفين والاضلاع والنهدين والخاصرتين نزولا الى منطقة السرة. بامكان المرشح اختيار اي موضع في مساحة لا تقل عن ثلاثمئة سنتمتر مربع تسمى (المنطقة الخضراء). لايجوز احتضان السيد الرئيس، او الاتكاء عليه، او النوم على صدره. تشبه القبلة الرضاعة الطبيعية، خصوصا لقصار القامة .

جاءت اللحظة المناسبة للاعلان عن طول المهندس سعدون الراهي: 163 سنتمترا. لم تكن لديه فكرة دقيقة عن موضع قبلته. طلب من المستر جون ان يقف بمقام الرئيس، فهما بنفس الطول، سأله ان يفتح ازرار قميصه ويكشف عن بطنه.

تقدم والابتسامة تمزق شفاهه، وطبع قبلتة على البطن العارية. جاءت القبلة تحت السرة بسنتمترين (اي خارج المنطقة الخضراء)، وهو موضع محضور، ومن المحتمل ان لا يتم المصادقة عليها. وبغية الدخول في المنطقة المسموحة، كان لابد من لبس حذاءا بكعب عال، يسمح بالصعود فوق السرة. وفي كل الاحوال لايوجد ضمان مطلق، فالرئيس غالبا مايلبس هو الآخر حذاء بكعب عال، يسمح لمنطقة السرة ان تكون بمتناول افواه المتقدمين لتقبيله.

ترك المهندس كمية وفيرة من اللعاب اسفل سرة المستر جون. اخرج من جيبه مناديل ورقية، ومسح موضع اللثم، كأنه يزيل سائلا منويا، سائلا المستر جون عن رأيه. لم يستطع جون ماير ان يكتم علامات الاشتمزاز وهي تتخلل تفاصيل وجهه:

(يال القرف، حتى المثليون يتقززون من هذه القبلة. اقشعر بدني. اعذرني ياحضرة المهندس، فلولا ادراكي لاهمية الموضوع، لرفستك في فمك).

***

في الايام التي تلت تقديمه طلب الاشتراك في اليانصيب العقاري، عاش سعدون الراهي تحت وطأة الخوف على عذريته. كلما تخيل اللحظة اطبق ساقيه مثل صبية تواجه الأغتصاب. تحاول زوجته ان تهون الأمر. لاتخف. لن يحدث لك شيء. انها ليست اصعب من الختان. ليس اكثر من نقطة بلل تضعها على جسد الرئيس وستتبخر بعد ثوان .

سعدون: الرئيس طويل، يا سمية، ولن اصل حتى الى سرته، اخشى أن ....

تقدر زوجته هذه المخاوف، لكنها لاتكشف عنها، كي لا يحجم كليا، وهي تغار عليه ايضا.لابد ان العذال والشمات (تقصد اهل زوجها) سوف يتخذون من الصورة الفوتوغرافية مناسبة للسخرية منها ومن زوجها. وسوف تشتري كل واحدة من غريماتها نسخة او نسختين من الجريدة الرسمية. تعلق واحدة في البيت، واخرى تدور بها على كل من تعرفهم. سوف يخرج الغمز كله، والخبث كله، ولن يسلم حتى الاطفال. لقد سمعت احداهن تقول ان التعليمات الجديدة تشترط حضور العائلة باكملها الى القصر الجمهوري لتقبيل السيد الرئيس. فاذا كان زوجها (الذي هو اطول منها) خائف ان يقع في المحضور، فاين سيكون موضع قبلتها؟ لاشك ان سمية قد ذهبت بعيدا، وعليها ان لاتصدق تلك التقولات، ثم ان السحب لم يجري بعد، فمالها ولهذا التشاؤم. وفي اسوأ الاحوال سوف تتحجج بالمرض. لماذا تضع العراقيل؟ سوف تشتري اكبر كعب في البلاد. نهضت مبكرة، اخذت تاكسي الى وسط المدينة، مسحت شارع الرشيد حتى عثرت على حذاء رجالي بكعب متوسط. اخذته الى اسكافي ليضيف له طبقات (نعلجات) ترفعه الى اكبر علو ممكن. سوف تفتح حقيبتها، وتخرجه وتضعه قدام عينيه:

بهذا الكعب سوف تقبل الرئيس في جبينه.

وجد نفسه امام لحظة رعب حقيقي. لايعرف كيف يفهم زوجته، ربما ينهار قبل ان يصل الى الرئيس. يقولون ان الرئيس يشم رائحة الذين لايحبونه. لم تترك زوجته فسحة للتردد. اخرجت قلم الباركر العتيد، وملأته بنفسها حبرا، ووضعت له اوراقا. امرت الصغار ان يصعدوا الى السطح، و يناموا قبل الدجاج، فالاب يحتاج الى جو لكتابة رسالة هامة. اخرجت زجاجة الخمر (العرق). اعدت له شرائح الليمون مع الشوندر، وجلست تراقب سيلان الحروف على الورقة البيضاء.

حين داهم رجال الأمن بيته عثروا على شيئين متناقضين: الاول خلو البيت من صورة للسيد الرئيس، والثاني ورقة (عريضة) يطلب فيها تقبيل سيادته.

(اني المهندس سعدون الراهي، أحلم منذ زمن طويل ان اقبلك سيدي، هل تتعطف ياسيد الروح والجسد؟ اريد ان أشم عطرك، وأضع شفتي فوق قداسة سرتك، او اي موضع آخر يسمح به كرمك. يا كعبة هذا البلد، هل تسمح لي بالطواف حولك؟ سرتك هي الحجر الاسود. الجوع اليك قديم ....)

اعترضت سمية على هذه الرسالة، شككت بجديتها، او ربما شعرت بالغيرة منها:

لم يبق الا ان تقول: سوف انبطح ياسيادة الرئيس، لتضع (مكرمتك) بين فخذي.

***

تقسيم الأرض

(نتابع في هذا الفصل رحلة سعدون الراهي الى محافظة ديالى لمعاينة قطعة الارض المخصصة له من قبل وزارة الاسكان)

السيد سعدون شبيب الراهي

الموظف في مديرية كهرباء بغداد.

(بسم الله الرحمن الرحيم .... بعد المداولة والاطلاع على المراسلات المتبادلة مع السيد وزير الاسكان، قررت اللجنة الدائمة لتوزيع الاراضي في وزارة الاسكان، تخصيص قطعة ارض سكنية لكم في محافظة ديالى، تحمل الرقم الرمزي (59875643412). بامكانكم مراجعة دائرة الطابو (التسجيل العقاري) في المحافظة المذكورة، لغرض ترسيم وتثبيت قطعة الارض، واصدار سند رسمي لها. وفي حالة وجود عارض لديكم، او اسباب تعطل تنفيذ هذا القرار، فبامكانكم تقديم اعتراض خطي في مدة اقصاها ......)

التوقيع : لجنة توزيع الاراضي- وزارة الاسكان.

لكي لا يغمى عليها من الفرح، قطر لزوجته الخبر. بدأ من أبعد نقطة، ثم راح يلف، منتقلا من مدار الى أصغر. أرتمت في حضنه باكية، وسال ماؤها على قميصه، لعاب الفرح طبعا. ثم سرعان ما صحت لتذكره انها من عتاة المتطيرين. لن تعلن الخبر لاحد. خنقت صيحة الفرح. كتمت زغرودة كان بودها ان تطلقها، تزلزل البيت وتوقظ الحي باكمله. قبلت الاطفال. احتضنتهم وهم يكتبون واجباتهم المدرسية. لم يفهموا سر الدموع الضاحكة، والقبلات المتكررة، كأنها تودعهم، او تستقبلهم بعد غياب طويل.

في اليوم المحدد لسفره الى ديالى فارقهما النوم. سهر الاثنان الى ساعة متأخرة من الليل، يقلبان قرار التخصيص على كل الوجوه. كم امنية عطشى تفتحت، وكم مدفون خرج من قبره.

فتحت كتاب الجغرافيا. الخارطة الأدارية للوطن تقول ان محافظة ديالى اكبر من لبنان، وتتألف من ستة أقضية وخمسة عشر ناحية.

هي: اين سيكون المرسى بعد هذا الأنتظار الطويل؟

هو: لم يبق الا ساعات وسنعرف كل شيء.

هي: لو كانت قطعة الارض في مركز المحافظة (بعقوبة)، فسوف نبيعها، وبثمنها نشتري ارضا في بغداد. و لو كانت في (الخالص) فسوف نعمرها. ولو كانت في (بلدروز) فسوف نبيعها وننتقل للخالص، ولو ..... ولو ...

لو بيع الذهب، واضيف القرض العقاري، فسوف يعمروا غرفتين وصالة. وسيكون لهم مطبخا كافيا، وحماما وحديقة صغيرة. وسيكون لهم سياج من الورد، وسطح يشخرون فيه لوحدهم، لن يختلط بشخير معسكر التاجي، ولا راجمات الصواريخ التي يقذفها اولاد الاخوة طوال الليل .

لم يبق لديه رغبة في النوم. لملم اوراقه الرسمية. هرولت زوجته الى الركن الصغير الذي تسميه مطيبخ لتصنع شاي. نشطة وخفيفة مثل طائر السنونو. مازال الاطفال نائمين. احضرت الشاي مع الخبز والزبد والمزيد من القبل.. فتحت حقيبة الاوراق وضعت قبلة على قرار اللجنة. احرص عليه مثل حدقة عينك. ارجوك لا تنسى شيئا. خذ كل الاوراق التي عندك، فأنا اخاف من موظفي الدوائر الحكومية. ولا تنسى ان تتصل بي تلفونيا. وضعت في جيبه لفة خبز. قبلته عند الباب. رشت على الدرب قليلا من الماء. وتمتمت ببضعة ادعية .وظلت تتابعه وهو يتوارى مع اول خيوط الصباح.

يتذكر تلك اللحظات وهو جالس في زنزانة انفرادية. يتباعد يوميا عن بغداد والقاسمية وديالى وكل العالم القديم الذي حفر بأظافره كي ينبت فيه.

لا يفضي تضخم الذات - في عالم مخرب- الا للمزيد من الشعور بالضآلة. الممالك الكبيرة تتسع، فيتسع معها ملاكوها. بالمقابل يزداد المفلسون أفلاسا. الذين يؤمنون بنظرية تمدد الكون عليهم ان يضعوا في الحسبان تمدد الملاكين. أية زيادة في الكون سوف يبتلعها نفس الاشخاص. يمكن للملكية ان تتفتت ولكن لا تنقص. يتفتت الملاكون الكبار الى ملاكين صغار، لكن هذا التفتت لايفضي الى زوال الملكية. هناك نقطة يعود فيها المنحنى الى الوراء، في عملية معاكسة، حيث يخرج ملاكون جدد يبتلعون الصغار جميعا ليعيدوا دورة الحياة لنظام الملكية السرمدي. ولكي يصل الى الانسجام الداخلي في رحلته لاستلام الارض الموعودة، عليه ان يدقق النظر في بؤرة المرارة، وان لايقذف عصارته السمية مرة اخرى فوق

سجلات الطابو التي وقع عليها الله منذ بدء الخليقة. عليه ان يصغر الى ادنى حد، كي يسمح بتوسع الممالك، وسريان القانون الألهي.

سوف تتقلص حصته في الكون الى ادنى حد لتصبح مقعدا في مسرح، او مسطبة في حديقة عامة، او سرير نوم لليلة واحدة، او ثلاثة امتار في زنزانة، او خندق شقي، او قبر.

في الطريق الى ديالى رأى دموع زوجته تسافر معه عبر اراضي الملاكين. كلما اتسعت الاقطاعيات يصغر حلمه، حتى يصبح حبة رمل. نوافذ الباص العمومي تسير مع اسيجة البساتين. تحتمي شجيرات اللالنكي بظلال النخيل. وجه سمية يتراجع مع اعمدة الكهرباء. العجلات تبتلع اعوام الانتظار.

تمر الممالك الفسيحة: بساتين لا حدود لها، نخيل واعناب وليمون ومشمش وبرتقال ونارنج، ومرابض للخيل، وقصور تمتد، وقلاع تشتد، يعرف الكثير من اصحابها. يمتد سعار الامتلاك والشره الفاحش، يجعلهم اقرب الى اله قبيح، لا يوجد حد لاتساعهم وبخلهم. مر بقلعة كبيرة يعرفها جيدا، يطلق عليها اصحابها (مضيف الشيخ فياض). ترك هناك ذكرى يصعب نسيانها، فقد دعاه الشيخ فياض البلاسم الى مضيفه. كان البذخ في الوليمة فاحشا، بحيث يخجل ان يروي تفاصيله. المائدة التي نصبت له مع ثلاثة من مساعديه تكفي لأطعام زقاق في القاسمية. رشوة مع سبق الاصرار. كان سعدون هو المسؤول المخول بقبول هذه الرشوة. هذا الملاك الكبير (يرجى تشديد اللام) يحمل مستندات موقعة من الله مباشرة، ومقيدة في جميع السجلات. يريد منه ان يمد خطوط الكهرباء الى مملكته من الاموال العامة، او خزينة الدولة، او مجانا بالمعنى الحرفي للكلمة. لا يريد ان يمنح فلسا واحدا للناس، فهو لا يعطي ابدا. اعتاد فياض البلاسم ان يأخذ فقط ، فهو صورة عن جده وابيه وابنه وحفيده وكل السلسلة السالفة والقادمة الى يوم يبعثون.

يحمل الشيخ فياض سندات مقدسة، تحفظها قوانين الرب، وكتبه السماوية من الزبور الى القرآن،ويصونها لاحقا الانبياء والمشرعون والفقهاء، ومن بعدهم الخلفاء والصحابة وآل البيت، ثم المحامون ودوائر الطابو الى يوم القيامة، بحيث ان السيد المهندس ندم تماما وخجل اكثر من ذلك. أصبح مثل البنت التي فضت بكارتها قبل ان تمسك بيدها عقد الزواج. فض الشيخ فياض بكارته المهنية بلحمة زند فوق كومة من الرز. لم يعرف في حياته يوما مخزيا، ولا خيانة مجانية لقواعد العقل، واحترام النفس، مثل ذلك اليوم. توهم ان العالم يتسع، والكون يتمدد، ليكون له مكانا فيه، وان الفرصة مواتية لطي صفحة اليأس.

في كل مرة تهمس حواء في اذن آدم لتوفر له منبعا دائما للندم: حبيبي سعدون، جرب، لن تخسر شيئا، عصفور بفلوس، حجارة ببلاش.

هكذا تصف زوجته مد الأيادي الى الملاكين.

هاهو يجرب، فيا للعار، كيف يكون الخسران !!؟

بسط كفه مثل اي شحاذ. مسح نقطة الحياء. هذا هو (البلاش) الذي تدعوه زوجته للخوض فيه.

تدفعه للامام: لاتتردد، اطرق الباب، الشيخ فياض لن يبخل عليك ببضعة امتار من ارضه الممتدة بلا حدود.

هو: سأطرق، يا سمية.

سعدون واقف الى جانب الشيخ البالغ الكرم والتواضع، رغم الاتساع المفرط لاراضيه. المضيف مع حديقته الصيفية اكبر من نقابة المهندسين. اما شاطؤه الممتد على ضفة دجلة الشرقية فيعادل عشرة مرات طول كورنيش ابي نؤاس. لاحظ ان الشيخ فياض يضحك مثل بقية الخلق، تجرأ وتبادل معه بضعة نكات وجره الى الحديث عن الغناء. وكم كان سعيدا حين عرف أعجاب الشيخ بفريد الأطرش، وانه في شبابه ذهب للسينما مرتين او ثلاثة لمشاهدته. كاد سعدون ان يهم بتقبيل كتفيه من شدة الفرح. ما أجمل أن يصحح المرء فكرة خاطئة. من قال ان ضخامة الكرش وتهدله دليل على النهم. قد تكون الهرمونات هي السبب. كان سعدون الراهي يبحث عن بصيص امل، ومستعد لتغيير صوره السلبية عن البشر بمجرد ظهور اشارة منهم. كل الظروف متاحة لكي يلقي سعدون بما عنده. الشيوخ يحبون الكرامة والعزة، ويعرفون اصول طلب الحاجة. حاول تقمص دور الفرسان في البادية. حين تطلب الحاجة تطلبها باباء لكي تلبى لك.

اعرب المهندس عن رغبته في العيش الى جوار الشيخ. قال ان مجاورة الاصلاء هو حلم يراوده منذ زمن طويل.

(أنتم ياشيخ مثل حاملي المسك، اذا مررنا بكم ، او مررتم بنا، شممنا عطرا طيبا)

قالها بطريقة مليئة بالزخرف والانحناء، نوع من السيلان يصعب تغطيته، ولا مجال لنكرانه حتى لو كبس آلاف المرات، شئ يشبه الضراط ولكنه يخرج من الفكين.

فجأة رأى وجه الشيخ ينكمش ويرتد الى الوراء، وينظر اليه نظرته الى عنز. ظلت العبارة معلقة في الهواء. وظلت اذن الشيخ مشغولة بفرز المدح عن ما ورائه.

رد الشيخ باستغراب وبرود: (لم افهمك ؟)

ارتبكت الوجوه، توقفت افواه العمال عن شرب الشاي. اطبق المهندس سعدون شبيب الراهي فخذيه بقوة كي يخنق ريحا عاتية تحاول الخروج من سرواله. لو خرجت الى المضيف فسوف تحدث عاصفة تدمر اللقاء كله؟

حاول ان يعيد ما قاله، لكن نظرات الشيخ الغريبة افقدته التركيز.

(عفوا .. شيخ ...اذا كان من الممكن ان نحضى بشيء من كرمكم، قطعة تكفي اسرة من سبعة انفار)

رد الشيخ بخليط من الخبث والسخرية: (قطعة لسبعة انفار، هل تقصدون هبرة لحم؟ لقد امرت الخادم بذلك، قبل ان تسألني)

اصبح من الصعب التراجع، فنطق المهندس جملته وهو في حالة اشبه بالعمى:

(اقصد ، ياشيخ ، قطعة ارض فائضة عن حاجتكم، شيء يصلح لبناء غرفة او غرفتين ..)

ولكي يزيد الطين بلة اضاف:

((طبعا ... مقابل ثمن . سوف نشتريها منكم شيخنا))

قهقه الشيخ فياض بفكين من نحاس، وصفق بيديه، كأنه سمع نكتة سخيفة، غير انه احتفظ برباطة الجأش فلم يطردهم. تحدث الى المهندس بحرص شديد بعد ان فرك كفيه البضتين:

(قبل ان اجيبك على طلبك، سوف اروي لك حكاية حصلت قبل سنوات، هنا في نفس المكان، عن شخص مهم، نزل عندنا فجأة وطلب منا شيئا مماثلا.

اعتدنا في اماسي الصيف ان نجلس في الهواء الطلق بعيدا عن جو المكيفات. تتم تهيئة الساحة والحديقة قبل العصر. يقوم الخدم برش المكان بالماء، ومد الحصران والسجاد واعادة الفرش الى الارائك. سمعنا صوتا غريبا. خرجنا. رأينا طائرة هيلكوبتر تحوم فوق المضيف. احدثت دويا عاصفا قلب موقد القهوة وتطاير الفرش والسجاد. ثم هبطت في وسط المضيف. فتح الباب، فأطل السيد الرئيس بشحمه ولحمه، وراءه ارشد ياسين مرافقه الشخصي. تراكضنا نحوه لنرحب به. دعوناه الى الدخول في المضيف لأن الوالد مريض ولا يقدر ان يقوم بنفسه لأستقباله، لكنه بقي في مكانه كأنه لم يسمعنا. قال لنا بضعة كلمات وقوفا.

(لم آت للزيارة، ستكون لي زيارة لاحقة، ولكني جئت لأمر آخر)

اشار الرئيس باصبعه الى موضع بحيرة الاسماك التي ينوي اقتطاعها من ارضنا. قال انه استطلع المنطقة ووجده انسب مكان. تقدمت من السيد الرئيس وقلت له: (عفوا سيدي الرئيس ان والدي شيخ كبير، ولابد ان يستقبلك بنفسه. انه الآن على سرير المرض سأذهب حالا لأبلغه).

كان والدي الذي ترى صورته امامك مازال حيا، وكان شيخا كبيرا يتعكز بعصاه، وقد ضعف سمعه وبصره، وقد عجنته الايام، ومر عليه اشكال الطامعين. حاولنا ان نستخدم آخر ما اكتسبناه من حكمة. كانت لحظات عصيبة. دخلت على الوالد وهو نائم. حاولت باكثر مما عندي من ضبط ان انقل له المأزق الذي نحن فيه. نهض والدي من سريره رغم مرضه. ناولته عصاه ووضعت له عقاله وعباءته. بقيت وراءه، فتقدم لوحده متعكزا بعصاه. الخطوات بين بوابة المضيف والسيد الرئيس لا تتجاوز الخمسين قدما لكنها اصبحت دهرا.حين اقترب ابي منه، حياه، ثم قال له:

.(لا تحتاج سيادة الرئيس ان تأتي بنفسك لمثل هذه الامور، انت رئيس هذه الدولة، وبأمكانك بشخطة قلم ان تضع يدك على اي شبر في هذه البلاد)

كانت الرسالة واضحة للغاية، حتى ان الرئيس استدار الى سائق الهليكوبتر وامره بالعودة. لم يبق حتى لمراسيم الضيافة. بعد ايام جاءت الجرافات والشفلات ليقيموا بحيرة الاسماك في قلب املاكنا).

ختم الشيخ موعظته بالقول: (الارض تؤخذ ولا تعطى، يا جناب المهندس)

اعطاهم الخادم عيدان صغيرة لتنظيف اسنانهم، فقد تركهم الشيخ فياض في المضيف، واوصى الخدم بهم خيرا. اخبرهم الخادم أن هناك اربعة قدور لحم ورز قد اعدت لهم من بقايا الوليمة. انها اشارة للانصراف فقد انتهت الضيافة. انتهى الفلم النهاية التقليدية. حين غمس اصابعه ولطخها بمرقة الشيخ فياض البلاسم كان كمن يلطع باطن شرجه. لقد احتاج ستالين ان يخنق سبعة ملايين مزارع ليحول روسيا من اقطاعية الى كولخوزات. اية سذاجة هذه، كيف يطلب من اقطاعي موغل بالقدم ان يتنازل عن جزء من ارضه؟ اذا كان السيد الرئيس نفسه يفهم ذلك فكيف لم يفهمه المهندس سعدون الراهي؟ هل هي السذاجة ام اليأس ام الايمان بالله وقدرته على صنع المعجزات؟ اكتفى الشيخ بتلطيخ الأفواه بالمرق واللحم ، بينما ذهب سعدون الى ابعد من ذلك. من اين دخلت اليه تلك السذاجة عن الوئام البشري، والنزعة الانسانية، وكيف تسنى له الاستسلام لها؟

قبل ان يسأل حاجته، كان معه ثلاثة من مساعديه، طلب منهم ان يتراجعوا الى الوراء، و يتركوه يستفرد بالشيخ. وعدهم انه لن ينساهم في المستقبل. كانت هذه اول محاولة فساد فاشلة، انتهت عند قدور من

لحم وعظم وبقايا رز. وقف بوجه مهزوم، وزفرات ممزوجة بالخذلان والندم. بكارته المهنية فضت مجانا، وعلى يد الشيخ فياض البلاسم. هزم مرتين: حين قبل ان يتواطأ مع الشيخ، وحين نحى مساعديه جانبا ليأخذ الغنيمة لوحده. خاب مسعاه وعاد معهم يحمل نفس القدر المملوء بفضلات الوليمة.

كان يوما محبطا واكثر أحباطا لزوجته التي ترقبت عودته دقيقة بدقيقة، فقد بذلت مجهودا خارقا لدفعه وزقه بالمضادات الحيوية التي تمنع تراجعه. استخدمت كل ما لديها من مساحيق لأذابة شرف المهنة. أدخلته الحمام. وضعته في طشت مليء بماء دافئ، وراحت تدلك جلده بليفة خشنة، لتنزع عنه الطبقة الفوقية التي تحمي كيانه المعنوي، وقدرته على الوقوف منتصبا امام نفسه. أستخدمت بخاخا لترشه بكلمات مطاطة تحتمل أكثر من معنى. وقبل ان يخرج ناولته قدح ماء مع حبة تساعد في ارتخاء الضمير: (ماهي الا بضعة ايام وستنسى، و تعود كما كنت مزهوا بشرفك المهني، وعفتك الزائدة عن اللزوم، ولكن ستعود لنا باكليل من الغار يتوج رأسك، سيراه الجميع، ويباركون لنا، ولن يروا شيئا آخر. لن يلتفت أحد الى شرفك وبكارتك المهنية، لأنها غير مرئية، بل لا يعترف بها أحد، خصوصا أخوتك. لايوجد شيء أسمه شرف المهنة، انه بدعة اخترعت لأمثالك، لكي يظلوا مفلسين)

***

دخل مبنى محافظة ديالى فوجده فارغا الا من حارس وفراش. سألهما أن كان قد جاء متأخرا أم مبكرا؟ أجابوه: جئت في الوقت، الموظفون هم المتأخرون دائما.

يحدث هذا في احسن الدوائر. قدموا له كرسيا وشايا. وراحوا يدردشون معه عن قطعة الارض. سحب قرار اللجنة من حقيبته. سألهم أن كان ممكنا معرفة موقعها. اشار الفراش الى الرمز الطويل المؤلف من احد عشر رقما (.) 59875643412

الفراش: داخل هذه الشفرة تقع أرضك.

سعدون: هل تقدر ان تفكها؟

الفراش: الموظف المختص وحده يعرف شفرة اللجنة الوزارية.

بدأ الموظفون يتوافدون الى مكاتبهم. لم يكن في القاعة مراجع سواه، مقابل مئة وخمسين موظفا. في العادة يكون الوضع معكوسا. سلم اوراقه الى قسم تدقيق الاوراق. طلب منه ان ينتظر لحين سماع اسمه. خمن ان ساعات ستمضي قبل ان ينادوا عليه. تذكر زوجته وفكر ان يتصل بها، لكنه اجل ذلك لحين سماعه خبرا مفرحا. لم يمض الكثير من الوقت حتى سمع من ينادي بأسمه. استدار الى الخلف فوجد من يرشده الى الطاولة التي ستعين موقع ارضه.

الموظف: أرضك في مندلي.

بهت سعدون وظهر العجب في طرف لسانه. مد عنقه نحو الورقة التي يحملها الموظف، كأنه يشكك في سلامة نظره: مندلي؟

اخترقت الكلمة رأسه مثل رصاصة طائشة. اخذته فورا الى الحرب. مندلي هي ساحة عمليات عسكرية. كيف يمكن توزيع قطع أراض سكنية فيها؟ الجيش نفسه يقيم هناك في مواضع وملاجيء شقية، فكيف يطلب من المدنيين ان يشيدوا دورهم هناك؟

الموظف وقد حدس ما يدور في رأسه: نعم، الا تعرف مندلي؟

ينبغي ان لا يسبب أزعاجا للموظف. لقد أخطأ حين ابدى استغرابه.

يتظاهر الموظف ان كل شيء يجري على مايرام، وأن المسألة هي مسألة جهل ليس ألا. كيف يمكن ان يجهل عراقي مدينة تسطر اروع ملاحم البطولة والصمود، وتدورعلى حدودها اعنف المعارك مع العدو؟

يصعب عليه هضم هذا النوع من البلاغة، كلما سمعها يشعر بقمل في معدته.

الساعة تقترب من العاشرة. احس بالجوع فاخرج لفة الخبز التي وضعتها زوجته في جيبه. احس انه يبتلع شيئا له طعم لسان حيواني مع بعض الخضار.

في الطريق الى مندلي مر ببلدة (بلدروز) جلس في مقهى (جليل دندش)، هناك شرب شاي، واستفسر عن اسعار الاراضي. زوده صاحب المقهى بمعلومة محبطة، قال له: (ان وضعك معكوس، الناس تهرب من مندلي، وانت تريد السكن فيها. هناك نزوح متزايد بسبب القصف اليومي).

وجد ثمانية اشخاص على شاكلته، متوجهين لرؤية الأراضي المخصصة لهم في مندلي، أخذوه معهم في سيارة استاجروها. اثار وجوده الشهية للفضول. انه الوحيد القادم من خارج محافظة ديالى. في الوقت الذي قضاه معهم امطروه بوابل من الأسئلة. سألوه ان كان أصلا من مندلي، أو مولود فيها؟ هل رأى المدينة من قبل، او يحمل أية صورة عنها؟ اعترف بجهله التام بالمنطقة وأهلها.

(ولماذا اخترتها؟)

ليس لديه جواب. خجل ان يقول انه لم يخير في أي شيء. لقد طار من القاسمية بشكل اعتباطي ووصل أليهم. تطوع أحدهم بتزويده بمعلومات صادمة عن المحيط الذي سينظم له. غير المتحدث مكانه في السيارة وجلس قبالته. أخبره انه لو سكن في مندلي فسوف يتشطر لسان أطفاله الى أربع، كل شطر لغة، وسيعتنقون اربعة اديان، وستتزاحم عليهم الاعياد والمناسبات. قدم نفسه كمدير ثانوية مندلي. لم يفكر في ترك المدينة رغم هروب الكثيرين من اهلها. قال ان المدينة لاتبعد عن حدود ايران سوى اربعة كيلومترات، وانها منذ اليوم الاول للحرب مسرح للعمليات العسكرية. شهدت اعنف المعارك، واشدها ضراوة. كانت عرضة للقصف كل يوم بمختلف انواع الاسلحة. وهو يرشحها لتكون اكبر احتياطي للألغام في العالم، وفي ذات الوقت يصف النزوح منها بالخزي. لم يكن سعدون الراهي بحاجة الى محفزات لليأس فهو يحملها أصلا.

وصلت السيارة الى مندلي ونزل الراكبون. انتحى احدهم بسعدون جانبا، وقدم نفسه بوصفه المسؤول عن نقل سجل عائلته من بغداد الى مندلي. نصحه ان لايصدق اية كلمة من فم مدير المدرسة. انه تاجر عقارات:

(منافق يدعي حب الوطن. يتهرب من مندلي بطرق ملتوية. حول ثلاثة ارباع دوام المدرسة الى عطل رسمية باسم الفسيفساء الديني والقومي. يحتفل باعياد اربع قوميات، واربعة اديان مع مذاهبها. يملك مع أخوه مكتب دلالية في بلدروز. سوف يبخس ارضك حتى تبيعها له بفلسين ونصف)

***

اصبح الآن على اعتاب نهاية المشوار. لم يبق الا القليل ويكون امام تلك الحقيقة الموجعة: وهي قربه من جبهة الحرب، وعليه ان يوطن نفسه في مدينة يهجرها اهلها، بينما يتقدم هو ليتخذ منها سكنا لعائلته.

في مركز ناحية مندلي سلمت لهم سندات التمليك (الطابو). هذه اول مرة في حياته يمسك بيده سندا رسميا. اسمه مطبوع بالكامل وبالحبر الرسمي. ما كان يبهره هو تلك الاختام العذبة المحيطة به. سوف ينبت له جذرا في هذه الأرض، لا يهم، حتى لو كان ضمن مدى قذائف الهاون، اوعلى حافة حقل للألغام.

في زنزانته الانفرادية تراوده هذه الخواطر. كم تمنى ان يظل ابن الدولة البار الخارج من مدارسها، وعيادتها الشعبية، ودفتر السوق المركزي، وفرن الصمون الحجري، ومصلحة نقل الركاب، وتلك الفتات التي ترمى اليه في رأس كل شهر. درهم الدولة المبارك يتفتح في راحته ليعطيه (عيدية) لبنته. ابن الدولة المتيم بالسلع المدعومة. يعشق كيس الطحين، وقنينة الغاز، وطبقة البيض، وقالب الجبن. عشق لكل ما تبنيه الدولة فينهار، في دورة مريرة لا نهاية لها. لم يعد متحمسا للأنقلابات، ولا للثورات الشعبية لأنها رديفة التخريب. لم تخرج الحضارة من الانتفاضات، بل من التخلي عنها.

من امام بناية مركز ناحية مندلي اخذهم موظف الطابو (المساح) ليريهم قطع الاراضي المخصصة لهم. كانواعشرين اسما بينهم ستة سيدات. سوف يحتاجون الى المشي حتى مقر الفيلق. كانت المدينة (كما قيل عنها) ثكنة عسكرية. يحتل مركزها تمثال ضخم بعلو خمسة امتار لعروس مندلي. في ليلة زفافها فقدت المعلمة (لميعة مراد) ساقها ويديها بعد ان تلقت قذيفة عشوائية. سار (سهيل الهنداوي) من الصويرة ليوقفها على ساق واحدة الى ما قدر الله. أراد ان يجعل منها شاهدا لفداحة الثمن الذي دفعته المدينة قربانا لهذه الحرب. لا يوجد في المدينة ما يشير الى وجود حياة. اكياس الرمل تغطي واجهات الابنية الحكومية. الناس يسيرون دون حذر، بعد ان سأموا الحيطة والحذر. منظر الجنود مألوف جدا. تختلط المقاهي بوحدات الجيش. الحلاق يخرج من محله ليلتحق بعد امتار في وحدته. يلعب الاطفال الكرة في نفس الساحة التي يفتش فيها ضابط جنوده. يأخذ اهالي مندلي خضارهم من جهة، ومن الجهة الاخرى تحمل الناقلات العسكرية بالذخيرة. كان الضباط يوقعون بريدهم في المقهى، ويعدون جنودهم فيها. لم يتم اخلاء المدينة. التوجيهات تقضي بدفع الايرانيين الى عمق اراضيهم. عملت القصائد والاغاني وتمثال العروس المبتورة على تصوير النزوح كنوع من الهزيمة.

وقفوا امام بناية حكومية قديمة يشغلها مقر الفرقة المدرعة التابعة للفيلق الثاني، مناصفة مع دائرة الري. تركهم موظف الطابو ودخل ليؤمن لهم المدرعات التي ستنقلهم الى موقع أراضيهم. في هذه الاثناء وصلت سيارة جيب عسكرية، ونزل منها فريق اعلامي (صحفي ومصور فوتوغرافي وضابط التوجيه السياسي). قدموا انفسهم الى الحاضرين، وقالوا انهم سيرافقون الرتل لتغطية الحدث. وصلت المدرعات، ركن الاعلاميون سيارتهم، واستقلوا واحدة منها. سار رتل من خمس مدرعات باتجاه الخطوط الامامية.

لم يستغرق المشوار سوى خمسة عشر دقيقة. في مقر اللواء المتقدم مازال النهار حيا. الساتر الترابي مربع الشكل، والملاجئ تشبه القبور. في الركن (مزغل) للرصد. أستقبلهم الآمر وضباطه. اعد لهم شايا على عجل. لم تكن الاقداح كافية، فشربوا على وجبات. هنالك طاولة خشبية صغيرة وكرسيان من البلاستك. الفريق الاعلامي باشر مهمته في تصوير الوجوه والمكان. بين الحين والآخر يهمس الصحفي باذن المصور كي لا ينسى شيئا.

فرش ممثل الطابو (المساح) الخريطة المدنية، بالمقابل فرش آمر اللواء الخريطة العسكرية. ينبغي الآن مطابقة الخريطتين: نقاط التقاطع والرموز ومقياس الرسم. سحب الآمر من ذراعه قلما متعدد الالوان. رسم شكلين بيضويين فوق الخريطة المدنية بالاحمر والاخضر.

نهاية المشوار تقترب. لم يبق سوى وضع العلامات، بعد ذلك سوف تتحول العلامة من الخارطة لتحيط بالقلب، فتعزله مثل ميكروب يتوجب قتله. الواقفون يراقبون عن كثب تلك الرموز، الأحمر كالعادة لون الخطر، ويشير الى مواضع العدو. الوجوه ترسم نفس الخاطرة، وتحمل ذات السؤال، اين سيكون نصيبي: ارض محتلة، ام محررة؟

يجد سعدون في تلك اللحظة فرصة للوقوف عند حافة العدم. يخرج من المشهد أصبع يشير الى لحظة الافتراق. تأخذ تلك اللحظة طريقها الى غور عميق في الذات. ولا غرابة ان تعود اليه في الامكنة الضيقة. فهي لحظة ضيقة الى ابعد حد.

حاول ممثل الطابو بقدر وفير من التردد والبلاغة الرسمية تقطير نتائج المسح الارضي. هناك ديباجة طويلة ملتوية يحاول فيها أخفاء انحدار اللواء. أعلن أمام الوجوه المتجمدة أن هناك اثنتي عشر قطعة ارض (محتلة) من اصل عشرين، وهي الآن تحت سيطرة العدو.

سوف تعلن اسماء القطع الثمان المحررة (المؤشرة بدوائر خضراء). وعلى اصحابها الانتقال للوقوف على. اما البقية (اصحاب القطع المحتلة) فسوف يبقون في اماكنهم على اليسار.

بدأ ممثل الطابو تلاوة الاسماء. الاسم الاول اصاب االجميع بالاحباط، فقد كان مدير المدرسة أول الناجين من الاحتلال. ثم أنظمت سيدتان الى القائمة. توالى تقطير الأسماء. ومع كل أسم يتلى يتبدل لون الوجوه، وتتحرك الاعين صوب صاحب الحظ السعيد. لم يبق سوى ثلاثة أسماء. توقف ممثل الطابو ليأخذ رشفة من الشاي المقدم له قبل أن يبرد. سكتت الوجوه وبقيت معلقة على حبل دقيق. في تلك اللحظة تذكر سعدون زوجته، تمنى لوكانت الى جانبه لتحمل معه وزر هذه اللحظة سواء كانت النتيجه معه او ضده. تذكر فريدريك شيلر، وجون ماير. تمنى ان يشهدوا معه تفاصيل هذا اليوم وذروته.

مع كل رشفة يتلى أسم جديد، رشفة، رشفتان، لم يبق سوى رشفة واحدة في القدح وفي قائمة الاسماء وتنتهي الرحلة. سوف يدون سعدون هذه اللحظة في سجله التاريخي، ثم يحفظها في موضع عميق في ذاته الى ابد الآبدين. نظر موظف الطابو في الوجوه المتبقية، مسحها فوجدها عامرة بالقلق. كان عليه ان يعلن اسم آخر الناجين من الاحتلال. سوف يلفظ اسما واحدا فقط لينهي تفاصيل هذا اليوم. أستعد سعدون جيدا لمثل هذا المطب. لايحتاج من يعلمه اليأس وسوء الطالع فهو خبير به. حين نطق موظف الطابو الأسم الأخير اجهشت سيدة بالبكاء، وتلقفت الدموع بطرف فوطتها، واسرعت لتقف في صف الناجين.

من الصعب أخفاء المشاعر في تلك اللحظة. أدار الضباط ظهورهم ليسمحوا للخارجين بخفي حنين بأن يعزوا بعضهم بالأعين، يتبادلوا نظرة الأنكسار وسوء الطالع. لا تحتاج هذه اللحظة الى كلمات. لون الوجوه تكفي، كأن العدو أحتل وجوههم وحناجرهم قبل أن يحتل أراضيهم. فما ان انتهى اعلان النتائج وتم فرز القطع المحتلة حتى بدا انهم ينتظرون هذه اللحظة بشغف. تحولت عملية فرز الاراضي الى مادة للفريق الاعلامي.

تقدم طاووس ينفش ريشه البراق بكل ألوانه متصدرا صف الناجين. فرحته بارضه لا يوازيها سوى خروج غيره صفر اليدين. استأذن مدير المدرسة من آمر اللواء بالقاء كلمة بهذه المناسبة. يؤشر ضبط النفس والزئبقية العالية على روحية دلال عقارات فعلا. كانت كلمته بمثابة قبر للآمال المحطمة.

(السيد آمر اللواء المحترم، السيد ضابط الاستخبارات، الحضور الكرام:

اسمحوا لي بأسمكم ان أوجه تحية الى اللواء بكافة ضباطه ومراتبه. الذي يحمي المدينة ويدافع عن عرضها وشرف أهلها. لا شك ان البعض منا سوف يعود الى أهله حاملا مشاعر احباط من نوع ما. وهو أمر نقدره ولا ننكره، لكننا لن نقبل بأي حال من الاحوال ان يدب اليأس في النفوس. أنها صفحة من صفحات المعركة. الوضع مؤقت. وان بسالة اللواء وقدرته على استعادة الارض هي أمر لا نشك فيه ابدا. ولأبرهن لكم على أيماني المطلق هذا، فأني اعرض امام الجميع استعدادي التام على مبادلة أرضي مع اي من الاراضي المحتلة).

القنبلة التي فجرها المدير تشضت الى عدد من التوقعات. تركت صمتا وحيرة: هل هي نوع من التشفي الفائق من حساده؟ هل يريد توكيد (وطنيته)؟ ام يهيأ الخاسرين للبيع بفلسين ونصف؟ الخاسرون غرقى يتمسكون بقشة. اللحظة عصيبة. من الممكن لأية خاطرة ان ترفعهم او تنزل بهم. قد يعرف ما لايعرفوه. عن ترتيبات عسكرية وهجوم وشيك. تجمد أثنا عشر وجه، سمحوا للصفعة ان تنهال على وجوههم دون رد. من شبه المستحيل قبول عرض المدير اوحتى التعليق عليه. ثم صارت الشكوك والتساؤلات تكبر مع دخول الفريق الاعلامي على الخط. قرأ الصحفي عليهم العنوان الرئيسي لعدد الغد من صحيفة (البوابة الشرقية) : القيادة توزع اراض عراقية محتلة في مندلي. عناوين فرعية : ملحمة وطنية في الساتر الامامي. تطابق تام بين ارادة القيادة والشعب. المواطنون يستلمون سندات مختومة بسرفة الدبابة وموقعة بقذائف الهاون. ثقتهم بقواتنا المسلحة لا حدود لها. الوجوه فرحة مستبشرة، فالارض المحتلة سوف تعود غدا او بعد غد، حتى ان احدهم طلب مبادلة ارضه المحررة باخرى محتلة، لكي يؤكد سريان ارادة الثورة في عروقه. لاشك ان الصحفي كان متعجلا في وصف المواطنين الاثني عشر(وجوه فرحة مستبشرة). لم يكن يملك الوقت ولا النية في معرفة البواطن. التقى بهم واحدا بعد الآخر، وطرح عليهم ذات السؤال: ماهو شعورك وانت تستلم ارضا محتلة؟ تحتاج الاجابة الى مرور زمن طويل جدا، لذلك لم يجب اي منهم عليه. واكتفى بترديد جواب نمطي، وضعه الصحفي على السنتهم. افترق الصفان عن بعض. ذهب الناجون مع موظف الطابو لمعاينة وتثبيت اراضيهم. اما اصحاب الاراضي المحتلة (المعلقون) فتسلقوا الساتر بصحبة الضابط الى المرصد. كان المزغل يحوي ناظور (دربيل) لمراقبة تحركات العدو. كان عليهم ان يقفوا في طابور ليرى كل نصيبه عن بعد. تبعد الأرض ثلاثة كيلومترات، لكنها تبدو قريبة جدا، ويمكن لمسها باليد، ولو مشى اليها فسوف يصلها خلال عشر دقائق. هذا القرب والبعد لايحتمل. شيء مؤلم حقا. طاف في الجبهة ماسحا الساتر الترابي. رأى جرافات تصنع ساترا، وجرافات تعمل حفرا عميقة، وجنودا ينشرون أسلاكا شائكة، وآخرين يحملون فؤوسا يشقون بها الأرض، وجنودا مستلقين هنا وهناك وقد هدهم التعب. سألهم الضابط ان كانوا يلاحظون شيئا، فروى كل مشاهداته. كانت اعينهم متشابهة الى حد ما. عندئذ كشف لهم ما هو محجوب عن الاعين:

(هنالك شئ لا ترونه، لا بالدربيل ولا بالعين المجردة، شيء يشبه البطاطا، وهو الذي يملأ المسافة بينكم وبين أرضكم. هنالك حقل ألغام، وراء الحقل تقع ارضكم. التراب الذي تزيحه الجرافات هو تراب أرضكم. يريدون ان يصنعوا منه ساترا يختبئون وراءه. صحيح ان أرضكم محتلة أيها الاخوة والاخوات، ولكننا بعون الله، وبغيرة النشامى، لن نبقيها طويلا بأيديهم. لقد خاطبنا القيادة، وطلبنا أسنادا، وتعويضات عن

الخسائر، في معارك الاسبوعين الماضيين . سوف نستعيدها لكم حالما تصلنا التعزيزات). لا يوجد شك في شجاعة الضابط واستعداده للتضحية. بهذه الحماسة وصلت رحلة الارض الى نهايتها. حل الظلام فتذكر زوجته وانتظارها. سأل الضابط ان كان بالامكان الاتصال ببغداد. قاده الى غرفة المخابرة وتركه هناك. استمرارية الأتصال تحتاج قدرا من الحظ . تمرالمكالمة عبر عدد كبير من الوصلات والقابلوات المحورية الممتدة في العراء. هنالك ثقوب عديدة في الأسلاك يتسرب منها الكلام. احيانا يتسرب نصف المكالمة في الفضاء، ولا يصل الى الطرف الآخر شيء منها. احيانا يختلط الكلام بالماء والطين ودوي المدافع، فيصل الى الطرف الآخر كصخب لزج مشبع بالرطوبة.

سعدون، مبديا اعجابة بنظام المواصلات: كم هي أمينة خطوطكم، أنها تنقل كل شيء.

المخابر: استعجل المكالمة، قبل ان تقطعها دبابة، او عجلة مدرعة،او يغمرها الماء والطين.

سعدون: لن أحتاج الى قول الكثير، يكفيني كلمتان.

بعد عدة محاولات فاشلة نجح المخابر في الوصول الى البيت. وضع سماعة الهاتف بيد سعدون.

هو: ألو .. سمية ؟.. انا سعدون.

زوجته: نعم حبيبي ..اين انت؟

هو: أنتهى المشوار؟

زوجته: ماذا تقول؟

هو: اقول .. انتهى المشوار.

زوجته: تكلم .. هل حصلت على سند الطابو؟

هو: نعم.

زوجته: هل هو في يدك؟

هو: نعم.

زوجته: أطبع قبله نيابة عني. لا تطويه ولا تكسره. لا تضعه في جيبك. هل تقدر ان تضعه في اطار وتغلفه بزجاج. اريد ان اراه مثلما ولد سليما طازجا لم تمسه يد قبلنا. ماذا افعل كي اخرج هذه الفرحة من صدري، اريد ان اشق ثوبي؟

سمعها تزغرد. وسمع الاطفال يتزاحمون ليكلموه.

زوجته: أخبرني .. أين تقع أرضنا .. متى وضعت قدمك عليها؟.. أريد ان أسجل هذا التأريخ باليوم والساعة والدقيقة لنحتفل به ... حبيبي هل تسمعني؟

انقطع الاتصال .

غير المخابر الفيشة: (يحدث هذا دائما. لابد ان دبابة داست على مكالمتك).

عاد صوت زوجته من جديد: هل تسمعني حبيبي .. أين تقع أرضنا؟ لماذا أنت ساكت، اين صوتك؟

أراد ان يقول شيئا لكنه تعثر، فخرجت منه كلمات مبحوحة متكسرة.

زوجته: حبيبي هل انت بخير ... ماذا بك؟

النحيب لا يصل كاملا، تقطعه الدبابات المارقة فوق خطوط الهاتف، تمزقه أربا فلا يصل منه سوى خرخشة ومزيد من الاشتباك. يبدل المخابر الخطوط ليأمن مكالمته.

زوجته: حبيبي هل تبكي، اي نوع من الدموع تنزل على خدك؟

ينقطع الصوت كليا، تفشل محاولات المخابر في ابقاء الاتصال. يخبره ان رتلا طويلا من الدبابات يمر. يبدو ان التعزيزات بدأت تصل الى اللواء.

***

الأرض المحتلة

(يعود سعدون الراهي من محافظة ديالى بسند الطابو، ولكن لارض محتلة من قبل الجيش الايراني. يحاول جون ماير انتشاله من قعر اليأس)

(الارض محتلة).

قالها لسند الطابو، للجدران، للريح، وللكأس. زوجته تراقب بحذر اندحاره. سحبت النسخة الاصلية من السند. اعطته نسخا مصورة ، يفعل به ما يحلو له: يعاتبه، يحاسبه، يبكي عليه، يقبله، يمزقه لو اراد. يتساءل بحرقة. يطوف باصبعه حول اسمه المحاط بالاختام. لماذا لا تكتمل الحكاية؟ لابد من أذن قصوى تسمعه. يريد ان يروي أدق التفاصيل كي يستريح. يحتفل بالطعنة العميقة. بجسده المثخن بالجراح. في ذلك اليوم عرف سعدون الراهي المغزى العميق للأذن البشرية. الاصغاء الذري يسمح بتذوق عذوبة اليأس وحلاوة العدم. أنحدر رويدا رويدا الى تلك الحافة الصخرية، حافة الغوص في اللاجدوى. في مشرب صهيب أحتل السند طاولة الخمر، مرفق به نسخة من خارطة مندلي. يسأله الندماء: أين أرضك؟ يريهم دائرة حمراء لمواقع الجيش الايراني. يلتذ بهزيمته، بالضربة التي تلقاها. البعير يسكر باقل ما يمكن من الخمر، يلوك الكأس، يجتر المصيبة، يخرج من فمه هزيمته مثل قيء قطة مريضة، كي يراها بعينه. يعيدها على مسامعه. وكان صبره اسطوريا. كم ضخمة أذنك ايها الملك الغير متوج. أيها البئر الروحي. يا دهليز البوح. انظري ياسمية هذه ارضنا. رفع نخب أندحاره. تقيأ ما شربه فوق الخريطة العسكرية والباقي على ثيابه. جرته الى الحمام. وضعته تحت دوش بارد. حاولت ايقافه على قدميه، بث قدر من الامل في عظامه: (الامل مازال قائما، هناك حق الاعتراض، بامكاننا الكتابة للوزير. لدينا عذر شرعي للرفض. وبكلمات خالية من الخمرة يمكن ان يتصلح كل شيء) .

كان من الممكن ان يواصل انحداره للحد الذي يرتكب فيه حماقة يندم عليها، غير ان اذنا عاقلة ومدربة دخلت في اللحظة المناسبة وتلقفت حكايته. عاد جون ماير من اجازته. اخترع سببا للزيارة قام بزيارة

لدائرة الكهرباء. اول شيء سأل عنه هو ام سلامة وشايها. تحدث عن اعمال التوسع في السفارة: اضافة محولة ومد اسلاك جديدة. رأى في وجه المهندس جرح مفتوحا. علامات الاستفهام تحتل المسافة الفاصلة بينهما. لن يسمح جون لنفسه بالتراجع. لن يفرط بالاقتراب البالغ الذي زرعه. بالنسبة له لم يعد المهندس موظفا حكوميا. انتبه الى وجود خريطة عقارية على الطاولة، وعينان مسمرتان مثل رمحين يخرجان من وجه غائم، مكفهر، يختزن الكثير من الألم. كان لابد ان يطرق على الباب الموصدة:

اين وصلت مراسلاتك مع وزارة الاسكان؟

اضاف غمزة لازاحة الغيمة فوق رأس المهندس: واليانصيب العقاري؟ هل وصلت الى سرة الرئيس؟

الغيمة السوداء لم تتزحزح من مكانها، بل ان جون ماير وجد صعوبة في الضحك، ركبتاه متوجستان تنتظران ان يفتح الصديق مغاليقه.

يجيب سعدون، لكن بنبرة مقفلة: لقد منحني الوزير ارضا.

جون: ولماذا تقولها بلا طعم؟ لابد ان تكون سعيدا، لأنك لم تضطر الى تلك القبلة.

فتح المهندس درج مكتبه. اخرج سند الأرض ووضعه بيده. لبس جون ماير نظارته، وتفحصه:

لاشك انك بهذا السند سوف تغير الكثير من معتقداتك، ها ان الدولة تثبت لك حسن نيتها.

سعدون: كنت اتمنى ذلك. لكن .....

جون: ما بك لماذا تتأوه هكذا؟ ولماذا هذه ال لكن؟

وضع المهندس خريطة مندلي امام جون ماير. رسم الخط الفاصل بين القطعات الايرانية والعراقية. ضغط بالقلم حتى كاد يحدث ثقبا في الخريطة. رأى جون ماير فيه أنهيارا وشيكا. شيئا في الفكين، وصرير الاسنان والصوت المتهدج، والدمعة التي شقت طريقها الى انفه. رأس القلم نابت مثل رمح في موضع بعينه:

هنا أرضي، يا مستر جون.

انها ميدان لقتال جيشين عملاقين. سقط المئات من الضحايا فوقها، وزرعت بالالغام، تنتقل من كتيبة الى اخرى. تبقى يومين بيد جنودنا، و ثلاثة بيد الخصم .

زوجته تحاول انتشاله من قعر اليأس، وابقاء جذوة الامل متقدة. جلست فوق رأسه. منعته من الاقتراب من الخمرة اثناء الكتابة. ملأت القلم العتيد بالصحوالمطلق:

(اكتب رسالة اعتراض الى لجنة توزيع الاراضي في الوزارة. اشرح لهم الملابسات، والوضع الفعلي لقطعة الارض. اكتب انك مستعد للتطوع في تحريرها. كلام ضروري لتمشية الامور. لن يرسلوك الى هناك. فهمهم ضمنيا انك تريد اولا ان تطمئن على عائلتك. سوف يلملمون كلماتكم ويغيرون قرارهم).

كانت سمية بارعة في تخديره، ونزع فتيل الغضب عنه. في احيان كثيرة يحالفها النجاح.

كيف يتفادى الوساوس بان ما جرى في مندلي كان مدبرا. ولكن لم كل هذا؟ فهو ليس بحاجة الى دلائل باهضة التكاليف لاثبات وطنيته. لقد شارك في الحرب وعاش في الخنادق. وهو مستعد ان يسكن في مندلي ولكن لوحده. لماذا يتحتم عليه ان يأخذ معه عائلته؟ مازال في البلاد 400 مليار متر مربع بعيدة عن الحرب. بامكان الوزير ان يخصص له مئة وخمسين مترا منها، وينتهي الأمر. يبدو ان حبر الصحو كان

اشرس من حبر السكر. لم يوافقه جون مايرعلى ماكتبه. لامه على انفعاله واستعجاله. يتمنى ان لاتدقق اللجنة كثيرا في رسالته. انها اشبه بالاحتجاج. سأله عن شكوكه. الى اي حد يعتقد ان الأمر مدبر لاغراض دعائية؟ اجاب سعدون الراهي بان الشك يعذبه اكثر من فقدان الارض. يصعب عليه ان يبتلع الفكرة. هل كانت مندلي مسرحية؟ ومن هو مخرجها؟

تصله رسالة من المحافظة تشير الى تحرير الارض، وامكانية رؤيتها و ترسيمها. بعد اسبوع تصله رسالة اخرى تطلب منه التريث. اصبحت ارجوحة بين الدبابات المتناحرة. الاوراق والمخاطبات الرسمية تتقلب هي الأخرى مع تقلبات الموقف العسكري.

تركه جون ينفض ماعنده. اصغى اليه بطريقة لا ينقصها سوى الخمر لتكتمل. أطرق برأسه دون ان يفصح عن شعور محدد. يصعب على سعدون ان يعرف مايدور في رأس هذا الأمريكي الناصع البياض.لا يعرف ان كان ذلك له علاقة بوظيفته. لايتموج جون ولا تتغير الوانه. لايصعد ولايهبط معه. حين يصل سعدون الى ذروة الأنهيار يصل جون الى ذروة التماسك.

بدا جون ماير حذرا. يريد ان يقول شيئا خاصا. ارسل بضعة اشارات من عينيه. ذهب الى الباب فتحه قليلا ليتأكد ان لااحد يسمعه. أشار اليه المهندس ان يطمئن. الدار مأمونة.

جون: هذا يكفي، انت متعب ولابد ان تستريح.

سعدون: وكيف اصل الى الراحة؟

جون: لم اتعود ان ارى منظرا موجعا ولا اتدخل. لابد ان افعل شيئا.

أبتسم جون ماير ابتسامة مليئة بالمعنى، وبالادراك العميق لموضع الألم في تلك الساعة. أخرج من جيبه منديلا ورقيا ليلتقط دموعا انسابت على خد المهندس:

لا عليك، عندي لك أرض غير متنازع عليها. سوف تجف دموعك، وتجد من يداوي جروحك.

***

بعد مضي اسابيع على لقاء السفارة، ارسل جون ماير مبعوثا شخصيا (سائق لبناني الاصل) الى المهندس يعيد له اوراقه ومعها مجموعة كتب بالانجليزية. ما ان وقعت عليها عينيه حتى نسي همومه. قرأ اسماء همنغواي وشتاينبك وفولكنر، وعناوين غير مترجمة للعربية. وجد معهم ديوان شعري لفريدريك شيلر. لم يستغرق مكوث الرسول طويلا. مد اللبناني يده الى جيبه قائلا (جون ماير ذهب في اجازة، ولايعرف متى يعود، وترك لك رسالة). الرسالة مكتوبة بالعربية:

((قرأت اوراقك: ازالة شنينة عمل بربري اكبر من ازالة حلمك الشخصي، ومراسلاتك مع وزير الاسكان اعطتني فكرة واضحة عن عقيدة الحزب، اما اليانصيب العقاري فلا زلت اراه كمشهد يدعو الى التقيؤ. لا اخفيك ان حزنا كبيرا الم بي وانا أنتهي منها. اعدت قراءتها لكي اخفف وطأتها. اعطتني فكرة هامة عنك، وعن المأزق الذي تعيشه. أصبح مصيرك يهمني. لقد ذهبت الوقائع بعيدا. وضعتني تلك الاوراق امام شيء اكبر من قطعة الارض التي تبحث عنها. وجدت من غير اللائق ان أبقى متفرجا، أواقدم لك سيلا من كلمات العزاء. افكر حاليا بعمل شيء. لا استطيع ان افصح لك عن فحواه، ولا أعدك به، قبل ان أمسك خيوطه بيدي . احتاج الى الوقت لاجراء بعض الاتصالات. هناك خطوة لابد ان تحدث اولا وأضنها جاءت في الوقت المناسب. لاشيء سوف يوازنك قدر ما تراه امام عينك ادناه:

H-VISA Application is waiting for you

استمارة الهجرة تنتظرك.

الأمر سوف يتم بسرية عالية. سوف تذهب الى السفارة بصفتك مسؤول الكهرباء. تنتهز الفرصة لتملأ استمارة الهجرة، ثم تقابل مسؤولا يزودك برسالة الى السفارة الامريكية في أسطنبول. سوف ترسل اوراقك بعد تحريرها الى مكتب الهجرة. ماعليك سوى ان تجد طريقة لعبور الحدود والوصول الى اسطنبول.

سوف أسافر الى بلدي، ولا اعرف متى اعود. ارسلت لك بيد المعتمد كتب ملهميك الثلاث، ومعهم كتابا لشيلر، فيه صفحتان يمكن ان تنضم الى ملفك الشخصي. وضعت علامة عليها. اعتقد ان قصيدة (تقسيم الارض The Division of The Earth) هي امتداد لاوراقك المؤلمة. انها تستحق منك بعض العناء. اذا ترجمتها فسوف ترى صورتك. فاذا وصلتني ترجمتك، اكون قد قرأت هذه الملحمة بثلاث السن (الالمانية والانجليزية والعربية).

وداعا ياصديقي، والى الملتقى .... جون ماير))

***

المطب

(القاء القبض على المهندس، واخضاعه للتحقيق في احد المعاقل الامنية، حيث يسلمه الجلاد كمية وفيرة من الاوراق، ليدون فيها ما ارتكبه من جرائم ضد امن الدولة)

جاؤوا في اول الصباح. في بدء الدوام الرسمي. اقتحموا مقر عمله. فتعطل كل شيء. ارتبك الزمن المعهود . زمن التفاصيل اليومية الصغيرة وتكرارها الجميل. انقسمت تواريخ الاشياء الى ما قبل وما بعد وصولهم. اقتحموا المكان بسيارتهم. حفروا مطبا عميقا، امتد الى جلسته اليومية ثم غاص فيه، وصار وعاءا له، يحمله معه اينما حل، لا يزول مهما حاول تغيير الطريق. تجمدت مواعيده عند لحظة وصولهم. والذين ينتظروه بدأوا رحلة الشك: ان شيئا ما غير طبيعي يحدث له. وبعد ان طال الانتظار، تحول الشك الى قلق، والقلق الى يقين بلا جدوى الانتظار. تيقنوا انه بلا عودة، فغسلوا ايديهم منه، فقد خبروا ذلك النوع من الغياب: رحلات الذهاب فقط.

كانوا اربعة، في سيارة بيضاء رباعية الدفع. بقرون استشعار اربع. تبث النبأ لجميع نقاط المراقبة الموكلة بتأمين احضاره. وقع الفأر في المصيدة. يقتحمون المكان الحميم الذي يحتضن ثلثي يومه، فيصبحوا -

رغما عنه - جزءا من ذاكرته. ود لو يأخذوه من مكان آخر: مكان عابر طارئ. كان عماله ومساعدوه من حوله حين جروه من بين ايديهم. شاهدوا اقتياده، وكانوا عاجزين حتى عن التذمر.

جروه من بين اصابعه، من الكف التي تنتظر قدح الشاي، من حواشي اكتشف فيها امكانية البهجة في الظل و المواد الخام. صغرت الدنيا فتحولت الى قدح بحجم الاصبع، وكسل عذب غارق بالعمل والانجاز، مع بشر تكرارهم لايمل، مثل رؤية الشمس كل يوم. يتجمدون مثل الحجر امام منظر اقتياده، والذين بكوا في تلك الثواني احتاجوا الى قدر من ضبط النفس كي يؤخروا دموعهم، كي لاتتعرى جوانحهم. يدفنون اعينهم بطرف الثياب. يغلقون افواههم بالأصابع كي لا ينتبه المقتحمون اليهم. عمال وموظفون واجراء ليسوا مشغولين بذواتهم. تعود عليهم وتعودوا عليه. عاديون، وخارج التنافس، ولا ثقل لهم بالمرة، بحيث انه كان قادرا على حملهم على راحة كفه والسير بهم الى آخر الدنيا. جالسون ينتظرون شاي (ام سلامة) حين دخلوا عليهم، دون استئذان، بخفة ونشاط، ودون اي ظل للتردد، كأنهم سيارة اسعاف جاءت لتحمل مريضا.

بأنتظار الشاي كالعادة، كانوا من حوله: (متولي) المصري، (صالح) سائق الرافعة، (ابوكريم) مسؤول الصيانة والعطلات، (فريدة) مسؤولة الشكاوي والبريد، ونحلة العسل (ام سلامة). طقس الشاي، الذي تحرص ام سلامة ان تقدمه لهم كل صباح لم يكتمل، يومها المعهود يصيبه الشلل، تضطرب هي الاخرى، كأنها لا تستطيع بدء يومها الا بهم. وبعد الشاي يدخل بقية المستخدمين ليقدم كل خلاصة لما سينجزه هذا اليوم. بهذا الشكل يصبح لهم معنى. حين ينفضوا باحثين في المدينة عن الزوايا المظلمة ليعيدوا النور اليها، وعن محركات الحياة التي اصابها العطل ليعيدوا الدوران اليها.

من المفرض ان تأتي فريدة لتقدم له البريد اليومي. يتألف البريد من عدد قليل من الاوراق الرسمية المطلوب توقيعها. كانوا ينجزون الكثير من الاعمال شفهيا. ولكي لا يشعر الموظفون بالضجر يدفعهم المهندس نحو القراءة. يضع في غرفة الاوراق خزانة للكتب الى جانب الملفات الرسمية. تضع فريدة أمامه قائمة باحتياجات الدائرة :

(أسلاك نحاس واعمدة ضغط عالي وعوازل، وهناك مستخدمون يحتاج الى ملابس شتوية، وآخرون طلبوا كتب حنا مينا، وغابرييل ماركيز، وجورج امادو، ومحمود درويش)

القراءة في الدائرة امر عادي في ساعات الفراغ. رفوف الكتب تتزايد لتزيح الملفات العتيقة. اما (فريدة) فتواصل التطريز، هوايتها المحببة. فريدة ستتجاوز الثلاثين ولم تتزوج. لم يطرق بابها احد حتى الآن .كلما عبر من غرفتها وجد أذنها ملتصقة بخشب الباب مخافة ان يكون الطرق ناعما. تعيد هندسة مظهرها كل ساعتين. احيانا تفتح بابها قليلا مخافة ان يمر العابر ولا يجرؤ على الطرق. تترك فسحة صغيرة للأنتباه. فسحة يحكمها الخجل والكبرياء الممزق. وفي اوقات فراغها تطرز احلامها بأبرة وخيوط ملونة، على قماش ابيض، لتخرج منها قلوب قرمزية محاطة بالزهور وفراشات حائرة. وقبل ان يصل الشاي الى ايديهم سوف يقتحموا مجلسهم. يطوفون في الوجوه. تستقر عيونهم على وجه بعينه. ثمانية عيون لها وجه واحد تتسمر فيه. ينهض الفنيون من كراسيهم كي يفسحوا لهم مكانا. تضع ام سلامة اربعة اقداح للضيوف، لكنهم يلزمون الصمت، لايقولون شكرا، ولن يلقوا التحية عليهم، أو يقدموا انفسهم :

هم: أنت مسؤول الدائرة؟

هو: نعم.

هم: اترك كل شئ وتفضل معنا، نريدك لأمر هام.

هذه البلاغة والأختزال المفرط لا يتكلم بها في البلاد الا جهاز واحد. يسلم المفاتيح الى مساعده. يطلب منه ان يتصل باهله. تصل ام سلامة متأخرة بضعة ثوان.لا تراهم وهم يشبكون كفه بأكفهم في حركة خاطفة. وحين تصيح:

والشاي..... الا يشرب ضيوفك؟

ترتد العبارة اليها مع الصعود المتواصل لغريزة الخوف. ولابد ان ام سلامة تفطن الى ان التشابك بالأكف من طرف واحد، وليس وديا تماما. تظل لأجزاء من الثانية تحاول استيعاب تلك الحركة الفجائية وهم يطوونه بأذرعهم، ويدفعونه الى المقعد الخلفي. ترى الجلسة قد انفرطت، والصمت يطبق على المكان، فلا تعرف اين تضع الشاي ولمن تقدمه. المشهد ليس هو المعتاد. تتراجع بضعة خطوات لتنظم الى طابور المشدوهين، وهم يتابعون اقتياده، وجه بعد الآخر يمرون به ويمر بهم. آخر وجه يمر به كان لأم سلامة منظفة وساقية الدائرة. يظل هذا الوجه يتابعه حتى اختفائه. يرسل اشارات غامضة. اشارات ارملة وام لخمسة بنات. قبل ان تعثر عليهم، كانت تعمل منظفة في احدى المستشفيات الاهلية، فاستغنوا عن خدماتها بسبب التقشف. وفي اول ساعة من الصباح، في الوقت الذي يتم فيه استبدال وجبة الخفارة بالوجبة الصباحية، ينتبه العاملون لوجود أمرأة غريبة في باحة الدائرة. عباءة سوداء وفوطة بيضاء، وقامة قصيرة للحد الذي لايمكن تفريقها عن الاطفال، الا اذا استدارت، عندئذ تبدأ معضلة تقدير عمرها، فوجهها لم تغادره الطفولة، رغم ان بطاقتها تشير الى الخمسين. كانوا يحسبوها شحاذة متعففة، تنتظر من يتصدق عليها. كانت تستند على الحائط، وتمسك مكنسة اطول منها وسطل وربطة من الخرق البيضاء. اثناء استراحة الأفطار تباشر بغسل غرف الدائرة دون استئذان. يحاول المستخدمون اقناعها انهم ينظفون غرفهم بأنفسهم، وان النظافة في باحة الدائرة غير مجدية بسبب الآليات. لا تترك المكنسة، ثم يفيض فمها، جملة مرة محاطة بشفاه متيبسة (لا اريد اجرا، فقط خبزا لليتامى). يخجل العمال من انفسهم ويتركوها. يدخل المهندس مكتبه فيجده على غير عادته : من زرع كل هذه المرايا؟ الجدران تلمع، ارضية المكتب (الكاشي) تعكس حذاءه، وربطة عنقه، واستدارة كرشه المتواضع. في الحائط يحترق عود من البخور، وعلى رف الشباك وردة بيضاء تسبح في قدح زجاجي. تأتيه باستكان(قدح) صغيرشاي يظل مذاقه عالقا في سقف فمه. سوف يعيد شربه مرارا في مكان وزمان آخر ينعدم فيه كل شيء. وجهها السمح المتهلل يصدمه من النظرة الاولى. كل ساعة تطل عليه بفوطتها البيضاء، وثغرها المتبسم واستكان الشاي المخدر. وافق على تشغيلها بأجر يومي يكفي للخبز ويزيد. بمرور الايام تحولت الى نحلة للعسل، وشمس صغيرة في دائرته. تشرق عليه حين تحتجب شمس الدنيا، تنزع بكلماتها وادعيتها وصلواتها اسباب الخوف من المجهول.

اما (متولي) رئيس العمال، فقد ترك في صعيد مصر عائلة من عشرة افراد، يعتمدون في حياتهم على التحويلات المالية التي يرسلها لهم. وفي فترة عصيبة وحين يطول امد الحرب، تصل الدولة الى حالة من الهستيريا، تنتزع من اصابع المتزوجين خواتمهم، و تعرضهم على شاشة التلفزيون وهم يبتسمون ويقدمون اعز وأثمن ما عندهم دعما (لحربنا العادلة). حين تنتهي حملة الذهب، يفتشون في الدفاتر العتيقة عن موارد اخرى. يبيعون المعامل والمزارع وشركات النقل. يطلقون سندات مصرفية بلا غطاء. يحذفون التغذية المدرسية، ومعونة الشتاء، ووجبات الطعام في المعامل. تتوقف سلف البناء والزواج. يشطبون النقل و المخصصات من رواتب العاملين. يشطبون مخصصات الخطورة حتى في الطب الذري. يظهر فن جديد في دوائر الدولة هو اكتشاف الفائضين عن العمل لرميهم في الشارع، او ارسالهم الى الجبهة.

تفتش الدولة عن المال في كل الزوايا. تبتلع الحرب الخزائن والدولة بحاجة الى السلاح. يصبح بقاء متولي المصري في العراق يعتمد على كلمة من المهندس سعدون الراهي. كل ثلاثة اشهر يصله كتاب رسمي حول العمالة الاجنبية الموجودة في دائرته، وامكانية الاستغناء عنها. يجيب كل مرة بانه من المستحيل الاستغناء عن خدمات متولي حسان. كل ثلاثة اشهر وقبل انتهاء عقده بأيام يصبح متولي مثل مريض الليوكيميا. يدب فيه الخمول. تصبح حركته بطيئة. ويميل للقنوط مع اصفرار في الوجه، وجفاف في الحلق. يزف له خبر تجديد العقد. يضخ له دما جديدا في عروقه. تدب فيه الحياة من جديد. ينهال عليه قبلا في كل مكان. يقبله في ركبتيه وكتفيه ورأسه وتهبط منه دموعا حرى. كفه التي تدير المقود اثني عشر ساعة بلا كلل لا تملك الوقت لالتقاط تلك الدموع. يخرج سعدون من جيبه منديلا. يقول له :

واصل سيرك، لن تعود الى مصر مادمت معي.

يلتقط عوضا عنه دموعا سخية نقية مثل البلور. يدفنها في منديله ليريها الى زوجته واطفاله. ينشج متولي من الفرح. حين يوصل المهندس الى البيت لايتركه. يدخل معه. تهرع البنت الصغيرة الى أبيها لتحتضنه فينتزعها متولي من كفيه. يضعها على رقبته. يحملها على ظهره مثل الحمار. ينهق لها، يموء، يمعمع، يقلد كل الحيوانات التي تريدها. يجعل من نفسه تلا يتكوم الصغار فوقه. يصعدون ويقفزون من فوق ظهره. يطوف بهم في الحديقة. يسبح بالعرق والغبطة. يمسك سماعة التلفون، بينما طفلة المهندس فوق رقبته. يكلم اهله في مصر. يزف لهم بشرى تجديد عقده. الامتنان يطوق عنقه. يهتف لأهله: الله يعمر بيت اللي كان السبب.

***

تخرج السيارة الرباعية الدفع من دائرة الكهرباء. قبل ان تصل المنعطف، يدفنوا رأسه بين ركبتيه. منذ هذه اللحظة سوف يتعذر عليه رؤية الدنيا. قبل قليل كان موظفا محترما، ينتظر نهاية العمل كي يعود الى بيته. اتفق مع زوجته على زيارة اختها. اوصته ان يمرعلى الصيدلي ليجلب لها ادويتها. بدأت اللذائذ الصغيرة تتفتت فيه. بعد ان غادر التفاصيل الحميمة في دائرته، جاء دور العناصرالتي تحميه، وتؤمن له سكره باقل قدر من الخمرة: يقينه بالبراءة امام الدولة بدأ تزعزع. شعوره العارم بعدم خطورته، وضآلته امام جهاز الدولة السري بدأ يتفتت. بدأ يشك بنفسه. شعر ان جانبا خطرا فيه، تركه يتنامى دون حدود. سعدون الراهي بحاجة لمن يسند عموده الفقري، ليوقف الاهتزازات التي بدأت تعصف بكيانه.

كيف سمح لنفسه ان يتستر على الهاربين والرافضين للحرب ويغطيهم رسميا؟ كيف سمح لوكر شبه سري ان يكون جزءا من الدولة؟ كيف سمح لوثائقهم المزورة ان تمر من خلاله، لتحفظ في سجلات مديرية الكهرباء؟ ماذا يقول لو واجهوه بهذه الوقائع؟ كيف يدافع عن نفسه؟ هل يكفي الأعتراف لأبعاد الانهيار الوشيك؟ شعوره بالبراءة الذي عاش عليه طويلا يبدأ بالتصدع.لا شك انه ترك جزءا منه ينمو حاملا الكراهية لأجهزة الدولة، وخصوصا جهازها السري، دون اعتبار لشعوره اللذيذ بالبراءة. هذا الخطأ هو الدودة التي بدأت تنخر في مفاصله وتبدد شعوره القديم بالاتزان. عاش سعدون الراهي طيلة عمره مستقلا، بعيدا عن التنظيمات والخنادق والاوكار الحزبية. كان يميل الى تأجيل الأنحياز او السعي لأبطال مفعوله. وبكلمات أخرى: المقاومة المستميتة لأي تمترس. لا يرى حتى الآن انه مؤهل للعب دور كبير. قدراته المعنوية اضعف من ان تدخل في الرهانات البعيدة المدى. مثل تلك الرهانات التي تعتمد على تجمع اكبر عدد ممكن من الناس على هدف واحد. ليس لديه اي حافز لمثل هذا النوع من النشاط. يهرب غريزيا من التجمعات الضخمة. لديه عقيدة يخجل ان يصرح بها: حول التعارض بين الكم والنوع. كلما

ازداد الكم انخفض مستوى النوع. تؤكد له تجربته المتواضعة مع زوجته لحظيا ان العيب ليس في الانسان. فكلاهما بشر. لم يكن اي منهما ملاكا ولا شيطانا. يرى العيب في الاقتران، في الاندماج، في الصهر، في المحاولة البائسة لتحويل الاثنين الى واحد. العيب في القفز فوق البديهي، وتجاهل المعادلة السرمدية التي تقول: ان واحد زائد واحد يساوي اثنين وليس واحد. وهنالك طموحات اشد فتكا بالرياضيات: مثل جعل الملايين تساوي واحد. بدد الكثير من الوقت في تأمل تلك اللحظات التاريخية التي تتحول فيها الملايين الى واحد، فوجدها من اشد اللحظات التاريخية شناعة. يتبرأ منها على الفور، يرتد ويعطيها ظهره ويهرب. وحين يصير بعيدا ينظر وراءه، فيرى بركة واسعة من الدم. لا يعرف متى قرر ان يظل صغيرا. يحيط ذاته بانتصارات محدودة المدى، غير معلنة ولا تثير الانتباه. انتصارات في الظل، ليس فيها مهزومين: مثل اقناع حاد البصر ان لا ينظر الى الحقائق الكبيرة كي لا يصاب بالعمى، وتقريب الحقائق الصغيرة من ضعيف البصر كي يراها. هناك ايضا تجاوزات صغيرة وغير منظورة للحواجز. اعادة تشكيل خارطة سرية للخطايا، تتيح له فرصة للعبث والتجريب والتقدم والتراجع متى يشاء. تجاوزات صغيرة، وغير مرئية، ولا تخرج مطلقا عن حدود الذات، يستمد من هذه التجاوزات الصغيرة بعضا من العزاء حول امكانية السعادة. حتى الرشاوي تتم بطريقة اقرب للأستجداء. ليس فيها اي ابتزاز، وتثير البكاء لدى المانحين. بعضهم كان يعطيها حتى بدون مقابل. هذه الضآلة الطوعية، وتحاشي التماس مع الدولة هي عقيدته، التي يستمد منها قدرته على النوم، وشرب (العرق) المحلي دون عناء، والوصول الى حالة السكر. ضآلته هي المنبع السري وربما الوحيد للسعادة.

***

تتوقف السيارة فيسمع احدهم يأمره بالترجل. يزيح العصابة من عينه كي يرى درب النزول. تأتيه لطمة على فمه وصيحة حادة لاعادة العصابة. يسيل الدم من فمه. اعذروني، يقول لهم، هذه اول تجربة لي. يمد احدهم يده اليه ويجره من المقعد. يسألهم ان كان مسموحا ان يمسح الدم بطرف العصابة.

يضع قدميه على ارض صلبة. يقتاده احدهم في ممر بارد. يوقفه هناك لزمن لم يعد يعرف قدره، ثم يأمره ان يجلس، فيجد نفسه بجوار حائط املس بارد هو الآخر. تمر به ريح باردة تصفع وجهه، ولكنه لا يهتم بها كثيرا. كل ما يفكر فيه هو الفراغ الموحش الذي بدأ يتسرب اليه. يسمع اثنين يتكلمان عنه: (هل يخلع ثيابه؟). يجيبه الآخر: (كلا، لينتظر حتى يأتي مأمور المخزن).

جاءه الوحي وهمس بأذنه: (هناك عقرب سامة ترقد في جيب سترتك الداخلي). انتبه على الفور، مد كفه الى جيبه فشعر بأبرتها. لابد ان يتخلص منها قبل ان تلدغه. اي قدر لعين جعله يرتدي هذا اليوم جاكيتة والده!! لقد دفن فيها رسالة جون ماير. صك الادانة الذي يشير الى السفارة الامريكية. هذه الجاكيتة لايلبسها الا نادرا. لا يعرف حتى الآن، وسيظل السؤال عالقا حتى آخر يوم في عمره: من الذي همس باذنه في تلك اللحظات العصيبة الى تلك الورقة السامة؟ يسمع مكنسة يدوية قريبا منه. يتلمس جيب سترته فتتمطى العقرب، يشعر بدبيبها وحركة ذيلها ووخز ابرتها وهي تخترق قميصه. ليس أمامه سوى المرتجى الأخير. من ذروة ذعره راح يناجي ربه، وهي لحظة مفصلية، ليس على مستوى الذعر، بل هي الدليل القاطع على ايمانه:

(يا الهي، هنالك عقرب في جيبي، أفعل شيئا)

لو اخرجها وابتلعها سوف يراه الكناس. يملك سعدون صورة خرافية عن هذا الامكنة. كل شيء هنا له عيون: الارضية والجدران والسقوف وحتى المكنسة. فأذا استدار الجلاد، فسوف تبقى المكنسة تراقبه.

وحتى لو لم يره احد، فربما سوف يتقيأ، ويشكوا في قيئه، وحين يحللوه في مختبرهم سوف يعثروا على الكلمات، ويجمعوها، ليخرجوا منها صك ادانته. وجهه مازال مغطى، ولم يدخل في الجد. تركوه يتخمر. المكنسة تقترب منه، تمس اصابع قدميه، ثم تبتعد عنه. للمرة الثانية خلال دقائق معدودات يحدث ماهو خارق للعادة. سنوات طويلة وهو يقلب تلكما المعجزتين كي يضع حدا فاصلا بين الغيب ونقيضه. ومثلما جاء من يهمس لينبهه الى العقرب، فقد جاء من يضع عبارة الخلاص في فمه. من نطقها؟ وكيف صدقها الكناس الذي سيجلده لاحقا؟ من نطق تلك العبارة المسجلة في قعر ذاته؟ وستظل شاخصة تتحدى فقدان الذاكرة والخرف، كأنها نقش فرعوني على جدار من بازلت:

(هل تسمح لي أن أبول على نفسي؟).

يتوقف الكناس عند قدميه. يرفعه من كتفيه ويقوده بضعة خطوات. يفتح بابا ويأمره ان يدخل:

(اغلق الباب وراءك، واذا انتهيت دق دقتين).

يدخل فيزيح العصابة عن عينيه. يجد نفسه داخل مرحاض. يغلق الباب وراءه ويدفع المزلاج الحديدي. يخرج الورقة على الفور، ويدسها في فمه. يقضمها بأسنانه. يلوكها بفكيه ليجعل منها فتات صغيرة. تتكور لتصبح علكة. يمتص حبرها، فيشعر بتفتت الكلمات وضياع معالمها. يختلط الحبر باللعاب. يزدردها فيحس بها وهي تخترق بلعومه، وتهبط الى أحشائه. يتبول بضعة قطرات من قبيل الأحتياط. يسحب السلسلة (السيفون) على عجل ويتابع انجرافها، ثم يتابع صوت الماء وهو يملأ الخزان من جديد. يدفعه الحذر والخوف الشديد الى اعادة مسك السلسلة وسحبها للمرة الثانية. يحاول أن يكسب بعض الوقت كي يلملم نفسه . يفتش في المرحاض عن وسائل المراقبة. لا يعثر على كاميرات ولا لاقطات. لا يرى سوى مصباح في السقف. يجرب ان يشعله. ينظر حواليه. يدقق في الثقوب المحتملة، ثم يطفئ المصباح. خائف من فخ ينتظره. قد يكون الجلاد الكناس خلف الباب، يصغي ويحلل حركاته. يدق مرتين، فتمتد يد اليه، تخرجه من المرحاض، وتضع العصابة على عينيه. بعد خطوات يؤمر ان يجلس في مكانه. يعود صوت المكنسة، فيشعر بالطمأنينة وبنسمة هواء تدخل صدره. يستعيد انفاسه، ودقات قلبه. لم تمض سوى دقائق حتى وجد من يطلب منه نزع ثيابه. هاهي المعجزة المسؤولة عن الثقب الاسود في دماغه، وعن ذلك التردد بين وجود الغيب وعدمه. هذا الحادث سيعمل على زعزعة التعارض بين فكرة المطلق والمنظومة المادية السببية. يفتش الجلاد ثيابه قطعة قطعة. تغوص كفه في كل الجيوب ليخرج ماعنده من اوراق ونقود وصور ومفاتيح. يضعها في ظرف ورقي ويكتب عليه أسمه. حين ينتهي من التفتيش ونفض الثياب، يرميها فوق تل من الملابس. يتركه عريانا لايستره سوى لباسه الداخلي. سوف يتقدم الأعتباط بقوة ليقف الى جانب الحتمية. وستخرج من هناك الصورة الخارقة والجديدة كليا عن الله. كان بين وقت الدخول الى المرحاض وتفتيش الثياب بضعة دقائق. كيف ينظر الى هذه المسافة الضئيلة؟ الى تلك المفاهيم الثلاث السرمدية: الأعتباط والحتمية و الله ؟ هل تتعارض ام تتكامل؟ وكيف يجمعها في بوتقة واحدة ؟

***

اول العري

(في هذا الفصل يجلس احد المحكومين بالاعدام الى جنب سعدون الراهي، ويبث باذنه عبارة هامة)

بعد ان نجح في التخلص من صك الادانة، خرج من المرحاض. وجد الجلاد بانتظاره ليعيده الى الحائط المثلج. ليس مؤكدا انهم يتعمدون ايذائه، فهو حتى هذه اللحظة بريء. تنتقل برودة الحائط من ظهره الى أمعائه. يبدوالعالم ليلة مظلمة، فالعصابة السوداء مازالت فوق عينيه. تيار الهواء البارد يضرب جلده. يحاول ان يظل متماسكا. لم يفقد خصائصه بعد. سوف يتركوه ملتصقا بالجدار يقلب اوراق الامتحان الاول. الساعات تمر. هل نسيه الحرس ام ان بقاءه عاريا هو اجراء روتيني؟

يبدأ جلده بالتذمر، يطلب منه أن يغطيه. يكتشف أن الجلد البشري غلاف متخلف، لا يفهم التبدلات، ولا يكيف نفسه مع المحيط. يبدأ سعدون اولى المحاولات في صد سهام البرد القارص. يكور نفسه. يدفن اعضاءه ببعضها. يناور بكفه. يوزعها على جسده. ينقلها من هنا الى هناك. يبدو النجاح ضئيلا. البرد يواصل هجومه. رجفة تدب في مفاصله. حوضه يتخدر. ولباسه الداخلي لم يعد يحميه، فقد اخترقته البرودة اللاسعة للبلاط. يرتعش وتصطك اسنانه. تخرج منه اصوات لا مسؤولة. يخاف ان يفلت منه حرف دون أرادته. تنتقل الرجفة الى قدميه. ركبه تضرب بعضها. ينتقل الاهتزاز الى بطنه واكتافه. يرتعش الجسد برمته. ترقص اسنانه، واضلاعه، واصابع قدميه. يحاول ان يوقف هذا العرض المخزي، فلا ينجح.

هذه الريح الباردة لماذا لا تحس به، مثلما يحس بها. يتمتم بآيات من القرآن، وأدعية سمعها عن امه. يرتد ليستنجد باولياء لثم قبورهم وهو طفل. سهام البرد تنهمرعلى جسده. تنبت في الجلد والعظام. اين ذهبوا و تركوه؟ هل جاؤوا ليعطوه درسا في لا ابالية الريح، وهشاشة الجلد؟ الا يجد هذا الجسد وسيلة لحماية نفسه ؟ هل هو من التفاهة بحيث ينهار بمجرد ان يخلع عنه قميصه؟

يمر به وجه صبي من زمن الفيضان. يلمح وجه ابيه يخرج من سجلات الطابو. وجوه أخرى تمر على عجل من خلف العصابة السوداء. وجوه من قرية شنينة. يمر عماله وموظفوه. يمر متولي المصري وام سلامة، يلقيان عليه نظرة، لكنهما لا يغطيان جسده المعذب. تمر الوجوه مسرعة ثم تغادره. يأتي حسن باشية، ونزلاء مشرب صهيب، وجون ماير، لكنهم لايلقون على جسده المتجمد دثارا. شعر باقدام تقترب، وصوت يأمر (اجلس هنا). يجلس احدهم جنبه، يشعر به على الفور فقد كان جسده عار هو الآخر. التصق به فسرى قدر من الدفء فيه، وسرى في الآخر دفقة من ابر البرد.ثم سرعان ما ابتلع هذا ذاك، فصار كلاهما في درجة ارتعاش واحدة. لم يكن اي منهما يرى الآخر لكن الرعدة سرت من جسد سعدون الراهي الى الآخر. ونقلت اليه رسائل موجزة. فقد سعدون الراهي سطوته على اعضائه. من وراء العصابة السوداء يسمع همس الوافد الجديد في اذنه: تماسك والا ستنهار.

قال سعدون بفكين مرتعشين: اريد دثارا؟

قال الآخر: الدثار في داخلك.

قال سعدون: اريد دفئا، التصق بي اكثر.

قال الآخر: انا عار مثلك.

قال سعدون: لماذا لا ترتعش اذن.

قال الآخر: لقد عبرت البحر عاريا.

قال سعدون: عن اي بحر تتكلم ؟ من انت ؟

انا محكوم بالاعدام، وقد عبرت كل مراحل العذاب، ولم يبق سوى حبل المشنقة. انا ذاهب الى الصفر الوجودي . الموعد غدا او بعده. لابد ان اصغر الى درجة الصفر، كي احتمل لحظة خروج الروح من البدن. اما انت فلا زلت رقما كبيرا. سوف يتوقف ارتعاش جسدك بعد ان تعبر البرزخ، وتصغر الى ادنى حد، فلا تحتاج الى دثار. انك تتعرض لامتحان فاصل بين الروح والجسد. لابد ان يتضاءل جسدك لتكبر روحك. ولا شيء يصغر الجسد سوى العذاب. اترك لهم الجسد، انه رهانهم الوحيد.

سعدون: كيف أتركه، انه يرتعش، يريد غطاءا.

الآخر: الجسد لا يرتعش، الروح هي التي ترتعش.

سعدون: ولكني بلا ثياب؟

الآخر: اجدادك عاشوا ملايين السنين وهم يجهلون الثياب.

سعدون: ماذا افعل، هل ارتد ملايين السنين؟

الآخر: أذا كان لذلك ضرورة، نعم.

سعدون: اشعر أن دمي يتجمد في عروقي.

الآخر: لن تموت، انك تدفع ثمن هذا البرزخ العظيم. ابرد قليلا ولا تبحث عن اعذار. انها فرصتك للوصول الى المرتجى، وبدونه لن تعرف طعم الراحة. عليك ان تصل الصفر. انك في اول الطريق. انت محظوظ، هنالك من يمنحك الفرصة للعبور الى الضفة الاخرى من الوجود. لابد ان تستعد من الآن لرحلة الذهاب الى الصفر الوجودي . ولكن انتبه جيدا هناك صفران : موجب وسالب. الصفر الموجب هو انت مضغوطا الى اقصى حد، ومكثفا في نقطة واحدة مثل نواة الذرة، مجردا من اي اعتبار او وزن، لكنك حامل لمعجزة الطاقة الكامنة، التي تتفجر حال دخولها الى المفاعل الرباني. في الطرف المقابل هناك الصفر السالب، الذي يطمح المحققون الى جرك اليه. بامكانك ان تكون صفرا سالبا وتخرج من محنتك. ان تؤمن بضرورتهم للحياة ووتعاون معهم . ان تدوس على كل ما بنيته في عمرك، وتعترف على كل ما اقترفت يداك، وتحرق الاخضر واليابس. تتقيأ كل الاسماء، وتكون جديرا بثقة جلاديك، حتى بعد خروجك الى الدنيا.

كف غليضة تسقط على المحكوم بالاعدام، ثقيلة مثل الموت، تقطع عليه تدفقه، ترفعه وتفك التصاقه بالحياة، تجره بعيدا. يبقى سعدون لوحده من جديد. من يقف وراء هذا المشهد؟ هل هو ألله ام جهاز الأمن؟ صوت من باطنه يقول: جهاز الامن هو المنفذ لأرادة الله. انك تربكني، كيف لجهاز قائم على الذعر ان يمنح هذه التجليات السامية؟ يواصل الصوت الغريب نشيده. الجهاز السري وسيلة للارتقاء، قنطرة غير مرئية نحو الخلاص، مسرح للتشويش، بخدع بصرية من كل صنف: جلادون وضحايا وقضايا

وتهم وتحقيق ومواد قانونية. خلفية داكنة لصورة أخرى. للمعرفة وجوه ودرجات. الماء لصياد في نهر، ليس كما هو لتائه في الصحراء. المعرفة الحقة ليست قصدية، لا تأتي بالسعي أليها. المعرفة انتقائية، تحكمها العشوائية، تختار من تشاء لتحل فيه. اللقاء بالمعرفة (الحقائق الأزلية) هو مصادفة محضة. تساءل:هل يقدر طواعية ان يتعرى ويواجه ريح كانون الاول، ويلصق ظهره بحائط ثلجي؟ ربما يصنع شيئا كهذا، لكن يبقى هذا اللقاء على الدوام ناقصا مشوها، مليئا بالثقوب، ولا يفضي الى شيء، مثل صيام رمضان. ماذا يحدث لو جاع حقا؟ لوعطش حقا؟ لو تاه في الصحراء وليس معه ماء؟ هنا تبدأ المعرفة بالبحث عنه. وقبل ان يلتقي بالماء يكون قد شرب من نبع المعرفة. سوف يختلط عليه الأمر بين طعم المعرفة وطعم الماء. تلك هي السعادة الممتنعة. اما التعساء فيدخلون العالم ويخرجون منه صفر اليدين. يعبون الماء ليل نهار، ولا يعرفون طعمه. وحين يريدون ان يبددوا السأم، ويكتشفوا جوهر البرد، يفعلون ذلك بطريقة مضحكة: يتزحلقون على الجليد، وهم مدججين بكل التحوطات، التي تمنع البرد من ملامسة جلودهم،لا يفعلون شيئا سوى أنهم يخرجون من دفء الى آخر. يعتقد المهندس ان الله بعث له رسولا في الوقت المناسب، فقواه تتآكل وجسده يخونه، ولا يعرف دواعي حبسه وتعذيبه.

الآخر: هل تريد حقا ان تعرف لماذا انت موجود هنا؟

سعدون: يا ريت.

الآخر: لأنك تحمل اسئلة هامة. كل الموجودين هنا مثلك. ماهذه الجدران الكونكريتية الا ديكور للتمويه، انه المسرح الافضل لطرح هذه الاسئلة بعد تسطح العالم الخارجي، وفقدانه العمق اللازم لمثل هذه التساؤلات. الله عليم بعطشك الى المعرفة، فأرسلك الى منابعها الصافية. المعرفة التي تخرج من هذا المكان تكون خالية من الشوائب، وتمثل القعر الاخير في الوجود. قيمتها انها ليست نقلية. واذا اتيح لك ان تخرج وانت مشبع بها، فسوف تعيش لذة الوجود القصوى. المعرفة الحقة هي الوجه الاخر للتلاشي، هي التماس بالعدم، الشعور بالتفوق عبر التشبث بخيار الانطفاء والمغادرة والانعتاق وازالة الجيوب من الثياب، والتخلص من ركام التفاصيل اليومية، والاستعداد الدائم للأحتفال بالفشل، وعشق الخيبة، حيث لايكون هناك فرق في أن تكون او لاتكون.

***

القابلوات

(في هذا الفصل يتعرض المهندس الى ضرب مبرح بقابلوات مقتطعة من مخزن المواد في مقر عمله)

تناول الجلاد القابلو المحوري. عبأه بوظيفة اخرى (عدا نقل الطاقة الكهربائية): انتزاع الاعترافات. السوط يتقدم. سوف يجرب طبلا من جلد حي. لا مفر من شرب تلك الكأس. الوجود المحصن وراء العتمة يفتح ابوابه: (تعال الي، انا العصا التي تجفل منها الطبول، لقد جاء دورك). الجدران الباردة، وكف الجلاد الغليضة، والفراغ المطلق. ليس صعبا ان يخمن انه يواجه اولى حفلات الزار. في كل مرة يفشل في ان يكون المرآة الدقيقة لوصف ماجرى: قد لا يكون مؤهلا لتلك الجلسة الربانية الفارهة. بعد سنوات طويلة سوف يمسك بالقلم ليملأ استمارة الهجرة، ويواجه سؤالا محددا: هل تعرضت الى التعذيب؟ وكان عليه ان يجيب بنعم او لا. في الواقع كانت الاجابة صعبة. هل كانت تلك ساعة تعذيب ام نشوة مؤجلة؟ وفي مرحلة ما وصل الى نتيجة مفادها: ان الله هو الذي كان يجلده. وهو الوحيد الذي يملك حق الاجابة. ولكي يصف ماجرى في ورقة رسمية عليه أن يتعرى تماما، ويعترف بأدق التفاصيل، التي تتعلق بالذعر والهشاشة المطلقة، والانطفاء الكامل لوهج المبادئ، والتوسلات المذلة، وطلب الرحمة والمغفرة، وصراخ الاستغاثة بالاولياء، والهذيان. ليست المبالغة بالقسوة وحدها العائق عن الوصول الى قعر المشهد. أغلب الظن أنه كان صغيرا وتافها الى حد بعيد. العري المطلق للحقيقة كان اكبر منه. كان فمه اصغر من ان يلتهم هذا العشاء المعرفي الدسم دفعة واحدة. لذلك بكى، مثل طفل تائه. انهالت عليه القابلوات، هي نفسها التي يوصل بها للناس حاجتهم من النور. هذه الازدواجية كانت تؤلمه اكثر من السياط نفسها، فقد نبهته الى مركزه الوظيفي، فبكى بصوت مخنوق يائس وذليل: ارجوكم، أرحموني، انا موظف شريف.

هم : سوف تكشف القابلوات اذا كنت موظفا شريفا فعلا.

حين نزل السوط على ظهره، شعر برتل من الزنابير يشق نفقا تحت جلده، من فقرة الحوض الى العنق. الزنابير تعض بعضها. يسمع ازيز عراكها. درب من الحرقة والذل. تركوه يتشرب بهذا الاحساس الفائق. ثم عادوا ليسقوه.

هم: وكلما كنت صريحا، كلما زاد شرفك، وقل غضبنا عليك.

هو: ماذا اقول؟

هم: تكلم عن سبب زعلنا عليك.

هو: انا ازعلكم !! هل انتم جادون؟

تقاطع زوج من القابلوات على ظهره، فرسما علامة ضرب. خرج من جلده دمع بلون ازرق محمر. تعرقت شفته. وتهدل لسانه.

هم: كلما قلنا شيئا نيابة عنك، قبضنا ثمنه منك.

هو: ماذا فعلت؟

هم: نحن الذين نسألك، ماذا فعلت؟

هو: هل يمكنكم ان تساعدوني قليلا، وتدلوني عما فعلت؟

هم: استخدمت موقعك الوظيفي، فقمت بعمل أغضبنا كثيرا. قل بنفسك، ولا تدعنا نقوله نيابة عنك، لأن ذلك ليس في مصلحتك. الاعتراف يساعدك.

هو: لم افعل اي شيء ضدكم، انا مهندس كهرباء، ولست سياسيا ولا مناضلا عنيدا.

هم: مع ذلك تخطيت حدودك، وتحرشت بنا.

هو: معذرة، انتم متوهمون، انا لا اتحرش بنملة، فكيف اتحرش بكم.

هم: سوف نرى من هو المتوهم فينا.

هو: ارجوكم، ابعدوا القابلوات، لأنها تذكرني بمهنتي.

هم: لقد خنت وظيفتك ايها المهندس. خنت القابلو، وقد جاء ليقتص منك.

عبارة المحقق لم تكن مجازية. القابلوات التي انهالت على المتهم تم جلبها من مخزن الدائرة التي يشرف عليها. ارسلت مفرزة امنية الى هناك وعادت باربعة قابلوات، كل منها بسمك (25 ملم)، وبطول ذراع. انضم الى الحفل جلاد خامس يحمل علبة سجائر. وزع منها على الموجودين. شرعوا يدخنون ويجلدون. تعاونوا، كل يضرب من جهة. تزاحمت القابلوات على الظهر العاري، تقاطعت اصواتها وخطوطها الملونة. نزلت احداها على رأسه، اخترقت جبينه، لامست جفنه، فتجمدت عينه تحت العصابة، شعر بسكتتها المفاجئة. نسي ظهره بعد ان تخدر تماما، ثم راحوا يعبثون باعضائه. جعلوا مناخيره نايا، واذنه منفضة لسجائرهم. قلموا اضافره. مشطوه بسوط دقيق، صنع فرقا عرضي في رأسه. اختلطت الاحاسيس والرؤى، تشابكت الآلام، وارتفع منسوب التوحش في خط تصاعدي. كان ضغط الحقيقة هائل جدا على جمجمته. لم يعد قادرا على الاحتمال. وكان لابد ان يحدث ما يعفيه من هذا الوعي المفرط. حدث الانهيار التام. دخل في غيبوبة كاملة، فلم يعد يصرخ ولا يستغيث، ولايستنجد باحد. لم يبق منه سوى شخير فاتر، ولعاب مليء بالالوان. جروه الى الزنزانة الانفرادية. كان عاريا، فوضعوا بطانيتين: واحدة تحته، والاخرى فوقه. وضعوا ثيابا وماءا وطعاما الى جانبه. لابد ان يعيش حتى يتقيأ مافي داخله. في العادة يستفيق المعذبون بعد ست ساعات، لكن جرعة العذاب كانت تكفي لانهيار فيل افريقي. في اليوم الثاني دخلوا ليتأكدوا من نبضات قلبه وتنفسه. رشوه بالماء فتحرك قليلا دون ان يصحو من نومته. مازال سعدون الراهي يحتفظ بقدر ضئيل من الحياة يكفي لنبض القلب والرئتين. لو كان بالامكان رؤية طبقات

الوعي السفلى اثناء الغيبوبة، لامكن نقل ما ترسب في ذاته. هل يمكن للانسان ان يواصل غيبوبته بقدر ضئيل من الارادة؟ هل يمكنه ان ينتحر وهو غائب عن الوعي. من المحتمل ان يكون اجبن من ان ينتحر وهو حي. الانتقال من الحياة الى الموت شيء فضيع بالنسبة له. يرفضه في داخله. لكنه لايمانع في الموت على جرعات. ان ينتقل من ثلاثة ارباع الموت الى الموت كله. وحين استيقظ تماما ادرك انهم لايريدون قتله، بل العكس تماما. فقد وجد الى جانبه كل مايحتاجه للبقاء على قيد الحياة الماء والطعام والدفء.

كان يحمل جوعا هائلا الى الدفء. لبس بشكل جنوني. وكان يود ان يرى نفسه، في لحظة عصية على النسيان. في الساعات الاولى التي اعقبت استيقاظه كان مشغولا بتفحص الزنزانة وقياس ابعادها. والبحث عن اجوبة لتساؤلات مرة تتعلق بمأواه الأخير، واذا ما كانت الزنزانة الانفرادية هي حصته من هذا الكون. انثالت عليه ارقام من زمن بعيد وراح يضعها جنبا الى جنب مع ابعاد الزنزانة. راح يضرب ويقسم، كي يصل الى تحديد ابعاده الشخصية، بعيدا عن الوهم. كان بوده ان يرى صورته، لكنه لم يعثر على وسيلة فيزيقية، فبقي يحمل عن نفسه صورة عتيقة. كان لابد ان يتخلص منها لكي يخفف ثقل العذاب. تركوه اسبوعين، ليستعيد وعيه، ويكون جاهزا للجولة القادمة. بعد تلك الفسحة فتح الجلاد زنزانته. وضع بيده قلما، وحزمة اوراق. ثم سلمه ورقة مدون فيها مامطلوب منه:

(اذا لم تر نفسك مذنبا، فسوف لن تقدر الاجابة على اسئلتنا. اكتب كل ما فعلته، وتعتقد انه مخالف للوائح. اذكر النقاط السوداء التي تخجل ان تصرح بها. اذا كانت هناك افعال مخلة بالشرف او نصفها، فاذكرها. اذا كانت هناك خيانة، من نوع ما، في حياتك، فاذكرها. مايهم هو الوقائع وليس قيمتها الاخلاقية. لا تخش شيئا. اذكر حتى انصاف السيئات. المركز الوظيفي والحصانة التي تتمتع بها سمح لك ان تتحرك بحرية وبلا رقابة. ماذا فعلت لتكون هدفا لرقابتنا؟ ماذا فعلت لتشك العيون المزروعة من حولك؟ قد يكون مافعلته بسيطا ولا يستحق منك سوى ذكره، فلا تتردد، لا تخجل، ولا تتذاكى ايضا. اجعل من زنزانتك زاوية الاعتراف في الكنيسة. قل كل ماتراه سيئا فيك. ليس مهما ان تكون معه او ضده. اكتب عن كل ما تجاوزته من ممنوعات. صف كل دابة ركبتها لتصل الى مبتغاك. اذا كان فيك ضعف او تحمل مشاعر كراهية للانضباط والالتزام فاكتب عنها. اكتب عما فعلته فقط. وليس ماتنوي فعله. فنحن لا نحاسبك على امانيك، ولا رغباتك المؤجلة. لاتنس وصية هذه المؤسسة: اي شيء نعرفه من غيرك، نأخذ ثمنه من جلدك).

اعاد قراءة وصايا المحقق. وجد حفرة عميقة، مرسومة بحبر اسود مطاط .

***

سيدي ...

انتم تدعوني للاعتراف بالذنوب. والحقيقة، ليس عندي سوى ذنب واحد: اريد ان امد جذوري في هذه الارض. هذه الرغبة قديمة جدا، تمتد عند فيضان دجلة، حين اغرق دائرة الطابو، ومحى السجلات. كان ابي امينا للسر في تلك الدائرة فاستعان بي. كانت اصابعي تخط الحروف العربية كما ينبغي. كلفني في كتابة الحروف التي ابتلعها الماء. واعادة الحياة الى السجلات. لكني لم اكن امينا مثل ابي. ارتكبت عملا من وراء ظهره. قمت بتزوير سجل للطابو. وضعت فيه كل اسماء العشوائيين الذين اعرفهم، بما فيهم اسم ابي ، وقمت بدسه بين السجلات الصحيحة. كنت صبيا متهورا سيدي. كانت هذه اولى محاولاتي للدخول الى سجلات الطابو. ثم كبرت، وكبر معي انتهاك اللوائح. فعلت كل ما يجعلني مذنبا كي اقترب من الحلم. في البدء كان الهاجس ثوريا، رومانسيا، نابعا من شعور عارم بالمساواة. مادام البشر يحملون نفس الخصائص،

فلماذا لايكونوا متشابهين في نزعة الملكية. بعد زواجي ومجيء الاطفال اضيف سبب آخر، اصبح الأمر ضروريا للحياة. كتبت ذلك بالتفصيل الى السيد وزير الاسكان. ذكرت تفاصيل مخجلة عن عيشة خمسين نفرا في سطح لاتزيد مساحته عن مئة متر. كتبت عما يخرج منهم من اصوات وابخرة ليلية. وفي النهار يتضاعفون، وتتضاعف المحنة. اذا كان هناك ذنب اعترف به لكم واعطيكم الحق في معاقبتي عليه، فهو زواجي. ربما يكون هذه الاعتراف مخجلا. الزواج هو اندحار للرومانسية التي طوقت بها كياني، والمفتاح لارتكاب ذنوب اصغر. في اللحظة التي وقعت عيني على الفتاة التي سوف تكون زوجتي، كانت هناك تفاصيل بالغة الصغر هي التي شدتني: الفم المدور مثل الخاتم، اهلة العاج فوق الجبين، الزغب الذهبي حول الاذن، ورد الخدود، الارتباك اللذيذ، الضمأ الدائم للعناق. لم يكن بينها اسرة ولا ذرية، ولا حتى بيت وارض، بل عش غرامي لايتسع سوى لأثنين. وبينما كنت اخطط لكي ابقى عاشقا حتى نهاية العمر، كان هناك من يخطط منذ البداية لتحويلي الى أب. تحولت الحياة الى ازمة سكن، وبحث عن امتار لملئها بالاطفال. دفعتني زوجتي الى الشيخ فياض البلاسم. ملأت اذني بكل المسهلات. ارتكبت اول رشوة في حياتي الوظيفية. حصل الشيخ على مبتغاه، ووصلت خطوط الضغط العالي الى قلب ارضه من المال العام. اما انا فعدت الى البيت بهبرة لحم مغطاة بالرز. ثم جاءت قرية شنينة واصبحت ذنبا رغما عني. مددت خطوط الكهرباء الى قرية عشوائية (غير مسجلة في الطابو) رغم ان ذلك ممنوع رسميا. كانت تجربة منزهة من اي غرض شخصي، لكن حاجتي الملحة للسكن حول مسارها. رحت اتواطأ مع نفسي. بالمعنى الحرفي قبضت الثمن. قبلت عرض عبود الزامل شيخ القرية. كرمني على فعلتي. وعدني ببناء دار في القرية، باموال وسواعد ابنائها، ومساهمة رمزية من جانبي.
هنالك ذنوب تتوزع بيني وبين زوجتي، سوف امر بها، تاركا لكم ترتيبها حسب الحجم:
في عيد ميلاد طفلي التوامين، طلبت زوجتي ان اشتري كيكة بطابقين من حلويات (ابو عفيف)، ثمنها يعادل نصف راتبي الشهري. كانت زوجتي محظوطة، اذ وجدت محولة تسد واجهة المحل، وقد طلب الرجل مرارا رفعها او ازاحتها. ذهبت بنفسي واعتذرت له عن التأخير. وامرت بازاحة المحولة على الفور. يشهد الله انني لم اطلب سوى الكيكة ذات الطابقين. حتى ان الرجل استغرب من سلوكي. من معمل (دجاج ابو فارس) كنت اتلقى حصة شبه شهرية (ستة دجاجات) مقابل ان يبقى المعمل في حالة اشتغال دائم. من معمل (العرق) في الكرادة كانت لي حصة اسبوعية (زجاجة عرق العصرية) بدون اي مقابل. وفي ملهى لياليتا كنت اتفرج مع بعض الزملاء على عروض التعري(السترتيز) مقابل تأمين التيار ليوم الخميس. وتناولنا (نحن العائلة) مرتين، السمك المسكوف في كورنيش ابي نؤاس، مقابل تأجيل دفع فواتير الكهرباء.)

***

اقتادوه من جديد. أبقوه وقتا طويلا في الانتظار. جالسا على كرسي في وعاء يجهل حدوده ومعالمه. لا يوجد تواصل بينهما. اعزل تماما.. لايشم روائح تهديه. الخرقة سوداء تحجب بصره، لايسمع غير اصوت الاحذية تتحرك من حوله. يتعبأ وينتفخ من الباطن. يتخمر مثل العجين كي يكون جاهزا للفرن.

انقضت على أذنه أربعة اصوات يحمل كل منها رنينا مختلفا. ملساء مثل سبيكة النحاس. كانت اقرب الى المخالب. نهشت اذنه الرقيقة. تحتاج الجلسة الآتية الى مؤثرات بصرية وصوتية ليست متوفرة. لاشك ان اعادة رسم المشهد بالكلمات هو اجراء ناقص، واحترازي (للحفظ فقط)، فاللغة وعاء محدود جدا ازاء ماجرى فعلا. هناك عدد غير قليل من الاصوات والرؤى والمخاوف والارتجاجات الداخلية ولسعة المخالب ومقتربات الانهيار، والصراع الشرس بين ارادة الحياة وقهرها.

هم: هل تظن اننا اتينا بك من اجل كيكة بطابقين؟.

هو: لماذا أذن سيدي؟

هم: أن تظاهرك بالسذاجة امر لا يعجبنا.

هو: ماذا تقصد سيدي؟

هم: اعطيناك فرصة كافية لتثبت انك موظف شريف، لكنك لم تفعل.

هو: لقد قلت كل ما عندي.

هم: مالنا وزوجتك، وفياض البلاسم، وشنينة، وابو عفيف؟ هل جئنا بك من اجل هذه الاسماء؟

هو: هذه هي مشكلتي.

هم: والسفارة الامريكية؟

هو: عفوا سيدي، المحولة ليست امام السفارة الامريكية، بل امام حلويات أبو عفيف.

هم: يبدو انك ممثل سيء، كم مرة تمرنت على هذه الدور؟

هو: اي دور سيدي؟

هم: حاول ان تنسى كليا هذه السخافات التي ملأت بها الاوراق. سوف نحرقها ونتركك تتدفأ بها، لأنها لا تدينك، بل تظهرك كموظف شريف فعلا، وسوف نوعز لدائرتك بتوجيه شكر لك عليها.

هو: سيدي، كنت متأكدا انكم سوف تتفهمون وضعي.

دقائق صمت مريبة، ماذا يجري حواليه ؟ ماهو القادم ؟

تتبدل نبرة اصواتهم، تصبح حادة، قاطعة مثل مبضع الجراح:

هم: ماهي علاقتك بالسفارة الامريكية؟

هو: ليس لي علاقة باية سفارة سيدي، ان علاقاتي الوحيدة هي بالمحولات والأعمدة والاسلاك.

هم: ولماذا تدخل السفارة الامريكية؟

هو: أنا مسؤول عن قطاع من العاصمة، سيدي. عملي يسمح لي بالدخول الى أي مكان طالما لنا فيه محولة أو أسلاك.

هم: سوف نرى، ان كان ترددك على السفارة الامريكية من اجل المحولة، او شيء آخر.

***

بدأ يفهم الأشارات: (سوف نرى) تعني ان فصل الكلام انتهى. سوف يدخل قاعة الامتحان دون استعداد كاف، بل لايملك سوى فكرة ضبابية. لا احد يغش هنا. انه امتحان رباني. لا احد يعينه، او يجيب بدلا عنه. بمن يستنجد، اذا كان الله نفسه هو الذي وضع الامتحان. ماذا يقول له؟ هل يطلب منه ان يعفيه، او يخفف الاسئلة، او يؤجله؟ هل يسلم الورقة بيضاء؟ ماذا لو رسب؟ في تلك اللحظة المكتظة بالذعر سمع من يناديه، ميز صوت المحكوم بالاعدام، المخلوق الطاريء الذي جلس يوما الى جانبه، والقى في اذنه كلمات غامضة. هل كان حاضرا ليشهد سقوطه الوشيك، ام هو رؤيا عن بعد:

(اترك لهم الجسد. اذا تركته فسوف يتضاءل، عندئذ تكبر روحك فتهزمهم).

***

تهبط كفان مرة واحدة لتخلعان كتفه، تعتصران زنديه وتطويانه الى الوراء. الخوف ثقيل، وجسده معبأ لا يريد مغادرة الكرسي. حبل يلتف على معصميه فيكبلهما. الجسد بيد الجلاد، يرفعه عن الارض الصلبة التي يقف عليها، بطريقة لم يجد لها اسما. يعلق وهو مغطى العينين. بعد سنوات طويلة سوف يضع الكلمات جنب بعضها ليخرج وصفا لهذه الصورة. كانت لجنة الهجرة تراقبه وهو يكبل يديه الى الوراء، ويلف حبلا حول معصمه. استعان بشال كان يلبسه للمقابلة، طلب منهم ان يرفعوه الى الاعلى ويعلقوه بالسقف. لم يكن مقتنعا بقدرة الكلمات على وصف ماجرى. قد تعني العبارة لعبة مسلية، او حركة بهلوانية في سيرك، لايوجد ما يشير للرعب. سوف يحاول مرة اخرى.

(هنالك عتلة اسمع صوتها وهي تشد الحبل، بعد ثوان سوف تطلق صريرا مرا، فقد بدأت قدماي تنفصلان عن الأرض)

اكتشف سعدون عجز اللغة عن وصف الانهيار الداخلي. لا توجد علامة دالة. ورغم محاولته ايصال الصورة الى لجنة الهجرة، لكنه في النهاية ركن الى الصمت، وترك دموعه تتكلم.

في اللحظات الحرجة يرسل الله اليه رسولا. اختار هذه المرة اخوات حسن باشية (العوانس الثلاث) ليقدمن له كأسا من الخمر ليعينه في محنته. من خلف العصابة السوداء امتدت ايديهن الى فمه.

العوانس الثلاث: اشرب، ولا تخف.

هو: ماذا يفعلوا بي؟

العوانس الثلاث: يصعدون بك الى السماء، الله يريدك قريبا منه.

انفصلت قدماه عن الارض. اصبح ثقله مرتكزا برمته على معصميه. تابعت العوانس الثلاث صعوده وهو معلق بالسقف وسمعن صراخه. طلبن منه أن يتماسك، ان يترك لهم جسده ويحتفظ بروحه.

هل لهذا الابتكار اسما؟ بكرة في السقف، مثل رافعة محركات السيارات، مسننة تلتف حولها سلسلة من حديد، تستكمل بحبل مزدوج من طرفيها. طرف يلتف على معصميه المكبلين والآخر بيد الجلاد. يسمع صوتا متكسرا يأتي من السقف. بدأت العتلة تأن. جسده الثقيل يرتفع، يطلق صريرا في معزوفة الألم.

(اترك لهم الجسد، اذهب الى الصفر كي تربح نفسك) .

تواصل العوانس الثلاث بث وصيتهن في اذنه. ينضم المحكوم بالاعدام اليهن.

قدماه تتدليان في الفراغ. كتفاه تطلبان منه ان يقف على شيء صلب، فهما قد خلقا لشيء غير هذا.

لا يقدر ان يغادر جسده، يبقى متشبثا به، يحاول التمسك به ومنعه من التفتت. جسده يستغيث به، يطلب منه ان لا يتخلى عنه. كتفه، معصميه، رقبته، عضلات وجهه، وشرايين دماغه، كلها تستجير به مرة واحدة. تطلب منه عمل شيء لوقف هذا التيار الهادر. (اعطهم مايريدون) تناشده أعضاؤه.

جذور خيالية، ومعادلات تفاضلية غير متزنة، لم تألفها تلك الاعضاء التي اعتادت على معادلات الدرجة الاولى. يبحث في الهواء الغادر عن الارض فلا يجدها. مفاصل الكتف تكرر نداءها الموجع، تذكره بانها لم تخلق لحمل الجسد. هناك خلل ما في موازين الاشياء عليه تداركه. هذه ليست وضعية مألوفة.

تصيح العوانس في اذنه:(غادر جسدك، اتركه لهم)، فيرد عليهن بالقول: (انه لا يغادرني، ليته يكون اقل ثقلا). المعصمان يستغيثان به. هنالك شئ غير معهود. اين الارض؟ راح يرفس الهواء بقدمين سائبتين.

هم: والمستر جون، هل هو محولة ذهبت لتفحصها؟ والمقابلات، والباميا، والهدايا، هل هذه أعمدة وأسلاك ؟

يستجير بهم : سيدي دخيلك، هذا الألم لا يطاق.

هم: ماذا طلب منك المستر جون؟

تتجمر كتفاه: اني اموت ارحموني.

تأتيه صيحة باردة: ميتة الكلاب. ماذا طلب منك المستر جون؟

يستغيث بصوت متهريء: لم يطلب مني شيئا..... انا الذي طلبت منه.

هم: ماذا طلبت منه؟

يتقد المعصم. الحبل قوي يحفر اخدودا. يرسم رعشة على طول ذراعيه تصعد الى فكيه يصيح :

هو: لا اقدر.

هم: ماذا طلبت منه؟

تخنقه كتفاه. يختفي عنقه. يتصل الفك بعضلات الصدر.

هو: أين الارض؟ اريد ان اضع قدمي عليها، سيدي دخيلك.

هم: ليس قبل ان تتكلم، ماذا طلبت من المستر جون؟

هو: طلبت منه المزيد من : شتاينبك، وهمنغواي، وفولكنر.

هم: من هؤلاء؟

هو: آه ... آه .. آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

هم: قزلقرط، من هؤلاء؟ هل هم جواسيس؟ ضباط في CIA؟

هو: آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.... راح أموت.

هم: هل عرفك عليهم، هل قابلتهم؟ تكلم.

هو: لقد ماتوا جميعا من زمان طويل ... آآآآآآآه ... أين الأرض؟ أنا أموت.

راحوا يتفرجون عليه وهو يتأرجح مثل بندول. كان ذلك آخر عهده باليقظة. لم يعد أحد يسمعه. تركوه يرفس بقدميه باحثا عن متكأ ليعينه على حمل جسده. لا احد يضع وسادة صخرية تحته. لو ان الناموس الكوني يملك حدا ادنى من الرأفة. لو ان قوانين الجذب تقف مرة واحدة الى جانبه. يستغيث، يسترحم، يستحلف،ينتفخ مثل مصران. ممسكا بأعضائه كي لا تسقط منه. يتلمس اطرافه. يعد اصابعه. يعد اضلاعه. يسحب جسده فيفلت منه. قدماه ترفرفان في الهواء مثل دجاجة مذبوحة. جسده يتهرأ. عظامه تضرب بعضها. كتفاه يدب اليأس فيهما. يخرج منه صرير يثقب اذنه. تشتكي اعضاؤه، تقول له: (افعل شيئا. اعطهم مايريدون، ودعنا نستريح). كتفاه تحاصرانه، تعلنان انهما وصلتا الى مفترق الطريق، سوف يتخليان عنه. الجسد ثقيل والعمر تبدد في شرب الاوهام. لو كان له كتفان من خشب. لو كان له معصم من فولاذ. يقف عند حافة لم تكن في البال: حافة الصفر، صفر الوجود المليء بالوحشة. يقذف سيلا من الاسماء. تتراكم شكاوي الجسد عليه. ما العمل؟ ليس عنده شيء جديد. نطق كل ما عنده من اسماء. لا احد يدنو منه. لا احد يضع وسادة من حجر تحت قدميه. ارتطمت روحه بجدار اصم .اختفت الاشباح والرسل والخيوط الربانية. لا احد يوقف هذا التداعي. ترك لهم جسده ومضى. لم يعد يعنيه أمره. تركه معلقا مثل خروف المسلخ، وغادر. يمنحهم البرهان على صواب طرائقهم ومعتقداتهم. يقلبونه على كل الجوانب. يجلدونه، يحرقونه، يضعون فيه مسا من الجنون. يجربون دعاباتهم. يضعون ختما في أليته. خرج من جسده، من العبء الثقيل الذي لا يحميه، وفوق ذلك يطلب منه حمايته، وانقاذه من عبثهم. يفتش عن وعاء اكثر اغراءا. لم يجد افضل من الصفر: ان يكون بلا ابعاد. لا يشمله الأختراق وليس له فضاء للتشكل. صفر ليس الا. لا يعلق،لا يثقب، لايمسك، ولا يعني شيئا. اثقبوا واحرقوا وعلقوا. بددوا سأم الليالي واشبعوا غرائز العبث. لم يعد له وجود بأيديهم، فهو يفيض ويصغر حد التلاشي. يغدو صفرا. لن يقدروا على الامساك به. ولتبديد السأم يخترع احدهم نايا من أنف سعدون. يسد فمه ويمد اصبعين ليسد بهما منخريه. ولكي يحصل على لحن، يحرك أصابعه توافقيا. براءة اختراع لناي محلي الصنع، لمحض التسلية. يخرج لحن من نغمتين فقط هما: الموت والحياة. ما افضع الحشرجات وما اسهل الاختناق. سوف يترك سعدون أنفه أيضا. يخرج من فمه الذي يشبه البعير، ولا يمل الثرثرة والمضغ. يخرج من فتحة الغائط والمسامات النتنة، من نظام البول اليومي، من الشبق والجوع الدائم، من احتمال العجز الجنسي، من كارثة التناسل، من استنساخ حيوانات بالغة الرداءة. يخرج من خصيته، من تجاعيده، من شيخوخته وقبحه المتصاعد مع الايام. يخرج: من عيوب لا يراها، من قصوره السرمدي. يخرج من الارقام التي تحاصره من كل جانب. ترك لهم مايمكن ان يثقبوه. بحث عن نواة ضائعة، عن حجر رماه في الماء منذ اربعين عاما وما زال يطفو،عن ساقية وضع فيها قدميه ليغسلها من الوحل فارتدت الى الوراء، عن قمرية للعنب تدلت عناقيدها البنفسجية وحين رفع لها فمه تراجعت وباضت ديدانا. يمد يديه العطشى ليتناول الماء فتغطس في الملح. يبحث عن ظمأ يرويه، عن أسئلة تثقب جدار البديهة، عن فم غريق مغطى بالزبد. تراكمت الارقام فوق الصفر، وكان عليه ان يزيحها جميعا قبل ان يصل اليه.

يدخل وحده غرفة الموت. يبحث عن جثة في دكة غسل الموتى. الوجه البارد كان في يوم ما موظفا محترما. هذا اللحم الصامت ليس لسمكة مجمدة. اعيدوا اليه ثيابه. استروا عورته. لم يعد قادرا على تغطية جسده ولا الشكوى. اصبح وحيدا طريدا، يحوم حول عريه. لا يريد سوى ظلا يغطيه، ويبعد عنه الفضول. يترك لهم جسده. يبحث عن اول الاشياء، عن الافق المستحيل، عن منفذ يلج منه، عن اسئلة توصله الى الصفر المرتجى، الصفر البعيد مثل نجمة في طرف الكون. يعدهم انه لن يكبر ابدا. لن يصبح اكثر من صفر. يلتقطوا صورة للذكرى. هنالك صفر عار معلق بلا حراك، حين يقفون على يساره تتضاعف

قيمتهم. يرسلوا الصورة الى المراجع العليا. لقد نفضوه، ولم يعد به شيئا. يتعهد لهم ان يظل صفرا الى ما تبقى من العمر.

***

يحسن هنا التوقف لاسترداد الأنفاس.

بعد أن أمر المحقق بأرخاء الحبل، سقط الجسد على الارض وتكوم جثة هامدة. سجل وقت التعليق في دفتر صغير. وسحب الشريط الصوتي الذي يحوي كل ما تفوه به. سوف ينتقل المحقق الى بهو (كنتينة) الضباط ويشرب الشاي مع زملائه. يجدهم يتابعون البرنامج التلفزيوني (الرياضة في اسبوع) وهو يعرض استعدادات فريق الجمباز الوطني للمشاركة في الالعاب الآسيوية. ينتظر الضباط معرفة الوقت الذي يسجله اللاعب المرشح لجهاز الحلق، فالوقت هو العامل الحاسم في جني الذهب. حين وصل المرشح الى ذروة العرض كان عليه ان يقوم بحركة اجبارية: يمد ذراعيه الى الجانبين بوضع افقي، يقف وجسمه بكامل استقامته (على شكل صليب) ويتجمد لأطول فترة ممكنة. حين افلت يديه وهبط بسلام على الارض كان وقته يسجل **70** ثانية. وجد الضباط الرقم هزيلا جدا، وليس كافيا للمنافسة في آسيا، اين قوة التحمل !؟ اتفقواعلى ان مثل هذه الأستعدادات ينبغي ان تشرف عليها وزارة الداخلية (تحديدا مديرية الامن)، وليس وزارة الرياضة والشباب. تحدثوا عن النزلاء الذين يتميزون بالعناد، اصحاب الملفات الساخنة أو مايسمى ب (المناضلون). هذه الفئة يمكن ان يسجلوا في جهاز الحلق ارقاما تفوق تلك التي يسجلها اعظم ابطال العالم. اشار المحقق الى احد زبائنه، وهو موظف حكومي ومهندس، لايعد ضمن قائمة (المناضلين الاشاوس)، لكنه سجل في فقرة (التعليق بالسقف) وقتا قدره (300) ثانية، افضل ثلاثة مرات من مرشح المنتخب الوطني. اتفق الضباط على مخاطبة وزارة الشباب بشكل سري على الصاق تهم للمرشحين، وارسالهم الى مديرية الامن او الى الشعبة الخامسة في مديرية الاستخبارات، قبل ارسالهم الى سيئول.

***

أتاه سوط من ماء مثلج على فروة رأسه. أعاد اليه ما فاته من الألم. حاول ان يفتح عينيه ليرى ماذا حل به. شعر انه فقد بصره في هذه الرحلة المجهولة. هل غرق، ام نجا من الغرق ؟ هل الهمسات التي يسمعها هي اصوات الذين انتشلوه ام الذين أغرقوه. في الجلسة التالية أرسلوه في رحلة مجانية الى السماء السادسة. وجدوه يستغيث بعدد من الاولياء الصالحين دون جدوى. وصل سدرة المنتهى. رأى الكثير من الأئمة والصحابة، انتقى منهم واحدا ليتشبث به. كان المحققون في البدء يعتقدون انه خارج الغلاف الديني حتى سمعوه وهو يستغيث ب (العباس ابو فاضل). رغم المنع الصريح للرموز الطائفية، لكنهم لايمانعون بالأستغاثة اثناء (حفلات الزار). راحت الاسماء تتطاير من فمه. سمعوه وهو يؤنب مترجما، اسماء كتب غريبة، وموظفين، ومغنين ، وهدايا فولكلورية ، وسائقي عربات ، ومدرسين ، ودور نشر. ثم قرأ بصوت متهدج حزين قصيدة نثرية عن تقسيم الارض، ومجيء الشاعر متأخرا، وعن خروجه صفر اليدين. اشارات مبعثرة لم يفهموا منها شيئا. سجلوا الجلسة على شريط صوتي. كانت تأتيهم مقطعة بمحاولات بحثه عن موضع صلب يسند قدميه.

هم : (سوف تكتب كل هذه الاشارات وتضعها في مواضعها المناسبة. نريد تقريرا مفصلا، لا نريد سخافات، ولا حلويات، ولا قصص الرشاوي البائسة).

يأتيه سطل ماء دون ان يستجيب. الحواس تجمدت وكفت عن الاداء. حاولوا ايقاظه باطفاء سيجارة في اذنه فلم يحس بها. كفان من صخر ركبتا له، واحيط كل معصم بسوار اسود من اثر الحبل. جروه من قدميه، مسحوا بجسده الممر، حتى اوصلوه الى زنزانته.

***

دفء الكلمات

(ينفي المهندس تهمة التجسس الموجهة له، ويقدم صورة بريئة عن علاقته بجون ماير)

وجهوا اليه اتهاما صريحا بالتجسس. واذا ما ثبتت التهمة فالاعدام هو الميدالية الوحيدة المخصصة التي تعلق على صدره. راحوا يقذفون باذنه بكلمات مخيفة من نوع: الخيانة العظمى، وبيع اسرار الدولة، والمادة 158 من قانون العقوبات. يحاول سعدون الراهي ان يدفع القضية الى اتجاه بعيد عن هذه المنزلقات: (مهلكم ايها السادة، لقد ذهبتم بعيدا. الامر لا يستحق كل هذا العناء). يطلب منهم منحه فرصة ليوضح لهم كل شيء بالتفصيل.

هم: (سوف نمنحك الفرصة الاخيرة. مرة اخرى نحذرك. لا نريد سخافات، ولا معلومات هامشية. سوف تكتب لنا قصتك مع المستر جون الدبلوماسي في السفارة الامريكية. ماذا اخذ منك، وماذا اعطاك. ولابأس ان تكتب عن علاقتك بالكتب. ومن اي باب دخلت الى السفارة؟)

اعادوه الى الزنزانة وحملوه من جديد باوراق بيضاء. بدأ جولة جديدة في تقليب مصيره. الدائرة تضيق عليه ولابد ان يعطيهم شيئا. ولكن عليه ان لاينسى كلمات المحكوم بالاعدام: كلما اعطاهم كلما طلبوا المزيد.

سيدي ..

احب ان الفت نظر سيادتكم، ان المحولات والعوازل والاسلاك تحتل نصف دماغي، اما النصف الآخر فيتألف من روايات وقصص قصيرة وقصائد وأغان قديمة. انا دودة كتب عتيقة جدا. بدأ اهتمامي بالادب الامريكي، منذ ظهور الترجمة العربية لرواية (الشيخ والبحر) لارنست همنغواي، و(عناقيد الغضب) لجون شتاينبك، و(الصخب والعنف) لوليام فولكنر. بعد قراءة هذه الاعمال سحرتني طريقتهم في النظر الى الانسان والعالم من حوله. ياسادتي هؤلاء هم الجواسيس الذين عرفني عليهم المستر جون ماير. كان عتبي كبيرا على الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا؟ لماذا اكتفى بترجمة عمل واحد؟ لماذا اختار ان يكون روائيا من الدرجة الثالثة، بدل ان يكرس نفسه كافضل مترجم في العالم العربي للادب الانجليزي؟ كانت لدى هؤلاء الثلاثة اعمالا اخرى عظيمة لم تتلبس الحرف العربي، او ترجمت من قبل هواة لاعلاقة لهم بالادب: الرجال والفئران، شتاء الاحزان، لمن تقرع الاجراس، وداعا للسلاح، ضوء في آب، وانا احتضر. اصبحت درويشا لهم. حفظت سيرتهم، وفهرس اعمالهم. صارت حياتهم وكلماتهم تعنيني كما سيرة الانبياء وكلماتهم للمؤمنين. سافرت معهم في رحلاتهم: مع همنغواي الى كينيا وكوبا وفينيسيا، ومع شتاينبك طفت اربعين ولاية امريكية في رحلة واحدة، ومع فولكنر في رحلته الفاشلة الى هوليوود وسلاح الجو الملكي الكندي. اوصيت جميع ديدان الكتب من اصدقائي ان يأتوني بأي شئ يعثروا عليه عنهم. قابلت سيدة عراقية حاصلة على الدكتوراه في الادب الانجليزي. عرضت لها هوسي بالثلاثة. كانت سعيدة بان تعثر على من يهتم بفولكنر، فهو كاتب ليس جماهيريا حتى في بلده. زودتني بنسخة من اطروحتها عنه. وتمنت لي حظا سعيدا في فهمه.

سيدي ...

اسرد اليكم هذه التفاصيل لكي اصل الى اللقاء المرتقب، الذي فتح الباب على مصراعيه، وادخل الي هؤلاء الثلاثة دون عناء. شهدت بغداد عاصفة هوجاء. سقطت على اثرها الكثير من الاعمدة الكهربائية والاشجار. بقينا ثلاثة ايام بلياليها نلاحق الشكاوي. كنا نسجل مالا يقل عن خمسين شكوى في الساعة الواحدة. كنت انام في مقر عملي الى جانب العمال والفنيين. في واحدة من تلك الايام الثلاث دخل علينا شخص اجنبي يتكلم العربية بطلاقة. قدم نفسه بأسم المستر (جون) ، وانه يعمل موظفا في السفارة الامريكية. استقبلته وقدمت له كرسيا، ورحت استعرض امام موظفي الدائرة قدرتي على التحدث بالانجليزية، رغم عدم الحاجة اليها. قدمت له الشاي. سألته عن مشكلته. تبين ان بيته بلا كهرباء ليومين، وانه يعيش مع زوجة وطفل، ولد في بغداد، عمره ثلاثة اشهر. تركته في مكتبي وذهبت الى غرفة الشكاوي، واتصلت بنفسي بمجموعة الصيانة والعطلات. وكان عليه ان ينتظر حتى نجد له حلا. دعوناه ليأكل معنا، لنريه قدرا من ضيافتنا العربية. اغرقناه باقداح الشاي. وجد الشاي لذيذا، واعجب على وجه الخصوص بالقدح، وسألني عن اسمه. سألني ان كنت اعرف امريكيين من قبل. فسميت له ثلاثة: همنغواي، وشتاينبك، وفولكنر. شكوت له فقر المكتبة العربية. فوعدني بتأمين اعمالهم بالانجليزية. ثم حدثني عن قراءاته: قال ان جذوره الألمانية لازالت هي التي تتحكم في مزاجه الادبي. في الشعر لايوجد في ذهنه سوى فريدريك شيلر. قال انه يحفظه بلغتين. ونصحني باضافته الى عالمي الادبي. انقطع الحديث بدخول (فريدة) مسؤولة الشكاوي علينا تبلغنا عن اصلاح العطل واعادة التيار الى العنوان المذكور. شكرني بحرارة وقبل ان يودعني سجل في مفكرته اسماء المؤلفين الثلاثة واضاف لهم اسم الشاعر الألماني شيلر. كل هذا الذي ارويه لسيادتكم حصل بوجود متولي المصري، وفريدة، وام سلامة. بعد مضي اشهردخلت مكتبي فوجدت صندوقا، فتحته فارتدت عيني الى الوراء ودب فيهما فرح غامر، فقد راحت الاسماء الخالدة تقفز من غلاف الى آخر. الى جانب الامريكان الثلاث، كان هناك شاعر المانيا الخالد فريدريك شيلر. افرغت الكتب على الطاولة، ورحت اتأمل عناوينها. ناديت على اقرب الموظفين لأريهم فرحي. حملت الكتب، وخصصت لها رفا جديدا في غرفة الاوراق. تعرفت على فريدريك شيلر من خلال ديوانه. توقفت عند قصيدة (تقسيم الارض) ضالتي. قرأتها بالانجليزية فلم اجد صعوبة. قصيدة مطواعة، قمت بترجمتها على الفور. وجدت فيها كل الاصوات التي ترن باذني. يروي فيها الشاعرحكاية الارض.

***

قصيدة (تقسيم الارض)

للشاعر الالماني: فريدريك شيلر

ترجمها عن الانجليزية : المهندس سعدون شبيب الراهي.

) خذوا الدنيا ...
نادى جوبيتر الناس من عرشه في السموات،
خذوا الدنيا، ارثا ونعمة للابد،
ولكن قسموها كأخوة فيما بينكم .
وهنا أسرع كلٌّ من لديه ذراع لينال مراده.
تسابق الشبان والشيوخ.
استولى المزارعُ على فاكهة السهل.
والفارس على غابة الصيد، وراح يطارد الغزلان الشاردة.
التاجر أخذ أكثر مما تستوعب مخازنه

وانتقى رئيس الدير أفضل الخمور.
والملك وضع حواجز على الجسور والطرقات، وقال: انتبهوا، هذا لي
.
متأخراً جداً، وبعد أن تم التقسيم، جاء الشاعر من مكان بعيد، فوجد لكل شيء مالك.
انا ابنك الاكثر اخلاصا،
ارتمى باكيا امام عرش جوبيتر.
هل ينبغي ان اكون وحدي منسيا؟
أجاب الرب : اين كنت عندما قسمت الدنيا؟
قال الشاعر: كنت بقربك، عيناي تحدق بمحياك، واذني تصغي الى لحن قدرتك،
كيف التفت الى غيرك في تلك الساعة ؟
) ما العمل ؟) قال الرب) الدنيا منحت، ولم تعد ملكي الآن.
إذا أردت أن تعيشَ معي في السماء، فهي مفتوحة لك، متى شئت (

***

التفسير الذي قدمه المهندس للعلاقة بجون ماير لم يقنع المحققين. اعتبروه محاولة جديدة للتضليل.

(نحن مضطرون لتلقينك درسا أضافيا، لتتوقف عن التذاكي علينا)

احضروا الكتب التي حصل عليها، وضعوها في وعاء مع آخر اوراق كتبها للمحققين، رشوا فوقها زيتا ليحرقوها.

هم: (ما حكايتك ايها المهندس؟ هل كتبت محاضرة لتلقيها في اتحاد الادباء؟ مرة تتحدث عن كيكة بطابقين، ومرة عن اقطاعي بخيل، او موظف مرتشي، وهذه المرة عن ولعك بالقصص، وترجمتك لقصيدة شعرية. هل تعرف أين انت الآن؟ هناك شيء يخص أمريكا، المطلوب منك ان تتحدث عنه، شيء ليس له علاقة بالأدب اطلاقا)

لم يكن لديه جواب، هذا كل ماعنده .

عروه تماما. اجلسوه على هيكل حديدي على شكل مقعد بلا احشاء. براءة اختراع لهذه المديرية العتيدة، صنع خصيصا لمثل هذه الاختبارات، ويوصى به لمن يشكو من برد لايغادر تجاويف العظام . اخبروه ان شكواه تلك لن تدوم طويلا. سوف يتلقى العلاج الناجع. سوف تتدفأ أردافه من حرارة السرد الروائي، والبلاغة المفرطة التي كتب بها اعترافاته. وضعوا ايضا مسحوق ابيض سريع الاتقاد.

هم: (سوف نرى ان كانت الكلمات تمنحك الدفء اللازم)

عادت عبارة(سوف نرى)، لتؤكد نهاية الكلام. احرقوا الكتب بالتدريج. اشعلوا النار في (الرجال والفئران). صعد دفء الكلمات اليه، وقبل ان تخبو اضافوا (شتاء الاحزان). تصاعدت النيران فلامست اليته. رموا في الموقد (لمن تقرع الأجراس)، (ثم وداعا للسلاح). عض على شفتيه من الوجع والشعور بالذل. احترقت الرواية فتحولت الى أبر تخز لحمه وتفتته. شبت النار في ترجمته ل قصيدة (تقسيم الارض)، بدأ يئن من

حرارة اوراقه، ثم وصلته حرارة ديوان الشاعر نفسه. جاء دور وليام فولكنر، احترقت (ضوء في آب). بدأت قطرات من شحم اليته تسقط فوق النيران، فتحدث صوتا أكثر ايلاما. رموا في الموقد آخر الكتب (وانا احتضر). بدا واضحا أنهم زعلانين منه فعلا. كان العرض مخزيا. رسالة موجعة: ان يكف عن تقديم تفسيرات غير مقنعة، وساذجة الى حد ما، ان يكف عن اللعب، ويدخل معهم في الجد، ان يذهب الى تلك الحوادث التي تخص الدولة وبقائها. ان وقت المحققين لا يسمح بالعبث والتذاكي. تركوا اليته تنتفخ لتصبح عجينة رخوة، مليئة بالفقاعات، يمكن ان تأخذ أي شكل. وكنوع من العزاء الفائق ابلغوه ان الجهد الذي بذله في ترجمة فريدريك شيلر لن يذهب سدى:

(نود ان نطمئنك اننا احتفظنا لك بنسخة من ترجمتك للقصيدة، وسوف نرسلها الى مجلة الاقلام، و نوعز لهم بنشرها في العدد القادم)

***

حريق دائرة الطابو

(يحاول المحققون ربط حريق دائرة الطابو بسعدون الراهي. لايكتفون بتقرير وزارة العدل. يقومون بزيارة للطابو، واجراء التحريات)

مع تصاعد اصوات سيارات اخماد الحريق الذي شب في دائرة الطابو، استدعي المهندس لقطع التيار الكهربائي عن المبنى. حين انتهى دوره، وجد نفسه مندفعا بقوة الى مشرب صهيب، ليحتفل بذكرى دفينة في صدره. وجد نفسه ينتمي الى الطاولات المكتظة بورثة العشوائيين. صعدت ذاكرته الى كتفيه، فرقص ثملا وهو يستعيد بيوت الطين وصرائف القصب والصفيح، التي كانت ترقص هي الاخرى. رآها في وجوههم، اسمالهم، افلاسهم القديم. وجد نفسه يتقاسم طاولة الخمر مع ابناء السلالة الهامشية المجردة من اي اعتبار، والذين نقش أسماء آبائهم في سجله المزور، ودسه بين صفوف السجلات المقدسة، في ارشيف دائرة الطابو. قرأ لهم ترجمته لقصيدة (تقسيم الارض). تحدث عن قدسية سجلات الطابو. عن مجلدات رآها، وحملها بيديه، واخرى أعاد استنساخها بقلمه. لم يعد ابناء العشوائيين مثل آبائهم. تحولوا الى جمرة متقدة تحرق نفسها، وكل ما تمسه في ذلك الزمن الاجرب، حاقدين وملحدين وسريين للغاية. كبر الصغار وهم يشربون العوز المتوارث فتحولت عقولهم الى ماس، وقلوبهم صخرة بازلت تتكسر عليها اكبر المغريات. غاضبون على الزمان وسجلاته وابنيته، وعلى الناس أيضا. وجد المهندس نفسه محاطا ببركان متفجر، فافاض بالحديث. عثر على لحظة البوح القصوى. أماط اللثام عن سر دفين: عن مشاعية بدائية مبكرة، و صبي يحاكي في ثوريته دجلة حين يفيض، فيمحو كل ما دونه الرب في كتبه المنزلة. لقد انتزع شعرة من جلد الخنزير، وسجلها بأسمهم (ملك صرف)، ففاضت عيونهم بالدمع، وعانقوه بعدد اعناقهم، ورفعوا كؤوسهم نخب بقائه حيا. اضافوا له مأثرة جديدة، لا تقل جسارة عن تشغيل الهاربين من الحرب في دوائر الدولة.

***

كان على تلك الروح الغارقة بالحلم ان تواجه تعذيبا وحشيا في دائرة الأمن. في غرف التحقيق يمر الوقت بطيئا. من كلمة عابرة يبنى المحققون هيكلا. جاءت حادثة حرق دائرة الطابو لتدفع سفينة المهندس الى المزيد من الغرق. صناعة المجرم أجراء يتم اللجوء اليه حين يعجز ضباط التحقيق عن الوصول الى الفاعل الحقيقي. تنتظر المراجع العليا بغضب وتوتر سماع نبأ القاء القبض على (العقل المدبر). مع كل نشاط معارض في المدينة ترتبك ماكنة الجهاز السري. تواجه مجموعة اشباح يصعب أيقافهم في نقاط التفتيش. يتحركون متلفعين بسواد الليل. يمكن ان يصلوا الى أي موضع يريدونه. يضعون ختمهم على الهدف خلال زمن قياسي، ثم ينسحبون دون خسائر. يتنقلون بسرعة البرق وهم يزرعون حضورهم ورسالتهم الموجزة: تحطيم جدار الخوف. تتحرك الاشباح وهي ترافق توابيت الحرب الملفوفة بالعلم

الوطني. في ذلك الموكب الطويل تزرع بذرة التحدي، وتملأ الحيطان بالشعارات الجريئة. تتطاول على جداريات الرئيس. تزين بزته العسكرية بالأحذية العتيقة، وترسم بالفحم فوق جبهته علامات التقاطع. لايخلوا التحرش من الطابع الترفيهي احيان. سيروا حمارا وسط القاسمية يحمل صورة الرئيس. هرب الناس من رؤيته. تصدى له الحزبيون واردوه قتيلا. سرعان ماندم الثوريون على فعلتهم. هذه رسالة باهضة التكاليف، ولم يكرروها ثانية. لابد من عمل يخلو من شعرة الجبن، عمل يحمل قوة الخيال وقدرته على تجاوز الخوف. لابد من الدخول من بوابة الذعر السائد، والتحرش بأجهزته التي تمسك بالبلاد. نجحت الخلايا في بناء الاوكارالسرية، وجر أعداد كبيرة من الجنود لتضمهم الى جيش الهاربين، وتوفر لهم المأوى، ثم انتقلت الى مرحلة مهاجة الدوائر الرسمية.

***

حين تتساقط الاسنان تخرج الأسرار دون عناء من افواه المعذبين. كلما سقط سن تفلت كلمة مخبأة كان يقبض عليها بقوة. في غرف التحقيق يحرص الفنيون على سد جميع ثقوب الجسد وترك الفم للاعتراف. الكلمة المنفلتة تجر الى سلسلة من الكلمات. المحققون لايشبعون. الاعترافات زادهم اليومي، لذتهم في رؤية المتهم عاريا جسدا وروحا. في غرفة التحقيق حاول احدهم أن يغلق فمه، وبالتعبير المتداول: يجرب (الصمود). كان يقبض على أسرار مشرب صهيب بأسنانه. انتزعوها منه واحدا بعد الآخر. ومع كل سن يسقط على طاولة التحقيق يتدحرج أسم مخبأ لواحد من ممولي هذا الوكر السري. لم يبق سوى سن واحد يخفي وراءه اسم المهندس سعدون الراهي. اطبق المعذب بكل مافيه من عناد ويأس. اغرقت الدماء حنكه. سالت على عنقه، صانعة دروبا حمراء. اختلطت الدماء بالاسماء المتدحرجة من فمه. لو رأى المهندس منظره لبرز لهم من تلقاء نفسه. هذا الفم المتشقق مازال مغلقا، يقبض على اسم بعينه بقوة مثل شلل او عصاب. الجنون مازال متواصلا. ثمن النقاء الثوري باهض جدا. حاولوا ابعاد فكيه عن بعضهما، لكنه واصل تمسكه. اصطكت فكاه. كان معصوب العينين، لا يرى تلك القبضة المدربة وهي تستعد لتسديد لكمة الى فمه. انشق الفم مثل اصبع نبات الماش، وتباعدت الشفتان، والتصق السن الاخير في سقف الفم، فتدحرج الاسم المخبأ مثل حبة لؤلؤ: سعدون الراهي عراب المشرب والمشغل الاكبر لرواده.

في نهاية الجلسة يجمع ما تساقط على طاولة التحقيق. يتم فصل الكلمات عن الاسنان. يحاولون ربط الكلمات المتساقطة من افواه المعذبين. ايجاد صلة بينها، ووضع علامات استفهام للعثور على (العقل المدبر). اصطفت الكلمات التالية : شبيب الراهي (والد المهندس) كاتب سابق في دائرة الطابو، حريق دائرة الطابو، مشرب صهيب، الخلايا السرية، تشغيل الهاربين، اوراق رسمية ودفاتر خدمة مزورة. من ذلك الخليط المتراكم يمكن سحب خيط رفيع يربط الماضي بالحاضر. قد لا يكون حريق دائرة الطابو بفعل تماس كهربائي. لكي يصل المحقق الى (العقل المدبر) ينبغي التمسك بكل الخيوط، حتى الرفيعة منها. واذا ما انقطعت فالامكان عقدها من جديد. لايستبعد المحقق شيء. المتهم نفسه اعترف بشكل عابر على تزوير سجل رسمي. تحدث لهم عن فيضان لنهر دجلة، وصبي يحسن الكتابة بخط الثلث و بحروف دقيقة متقنة. يستعين به أبوه (امين السر لدائرة الطابو) في اعادة نسخ السجلات التي أذابها الفيضان. غير ان الصبي، ولعلة غريبة، يجرب ان يعبث قليلا في نواميس الكون، يريد ان يغير سنة الحياة كأي مراهق متهور.

ارسلت اللجنة التحقيقية في وزارة العدل الى دائرة الأمن رسالة تفيد بغلق التحقيق: (الحريق سببه تماس كهربائي، وليس بفعل فاعل)، مع توصية برفع التاسيسات الكهربائية القديمة، واستبدالها بجديدة اكثر سمكا وتحملا للتيار. لكن قسم الامن الاقتصادي لم يقتنع بالنتيجة. وضع علامة أستفهام. وصف النتيجة:(روتينية)، ولا تدل على وجود تحقيق أصلا. العقل الامني لا يكتفي بالنوايا الطيبة: (المسؤولون في وزارة العدل لايرون الا ما يجري في اوقات الدوام الرسمي). الوجوه المكفهرة والحركة الدؤوبة لرجال الأمن تفصح عن مأزق حاد. لابد من العثور بسرعةعلى مغاور الجن: الخلايا الثورية المنفلتة. العدو انسحب من النهار، وبدأ يعمل في السر. خلية في اقصى اليسار انفصلت عن الخلية الام. رفضت الوسط المتهافت، والذي قبل بوزارة للري، ومقر تحيطه مفارز الأمن، وجريدة من ثمان صفحات تشتم بكين وتحيي موسكو، تاركة ماتبقى من الدولة بيد عصابة منظمة. الاشباح تتحرك في العاصمة وتلقي برسائلها الخاطفة داعية لنزع الخوف، شارحة لهم ماهيته، وعدد السعرات الحرارية، وطريقة تحضيره وامتصاصه وهضمه. لايوجد ماهو افضع من التضخيم المجاني للأجهزة السرية، يقود تلقائيا الى الاستسلام التام، وتحويل الخوف الى عرف. كانوا خارج السجلات الرسمية، خارج جميع الموائد والضفاف والخضرة والنسيم العليل، ولا يذكرون الا عند استدعائهم لأرتداء البدلة الخاكية وحمل السلاح. اكتشفوا في ساعة خمر انهم ليسوا اكثر من وقود لمحرقة الحرب، او ملأ الفراغ في السجون والمعتقلات. كان افلاسهم المدقع وهامشيتهم وجلوسهم اليومي على الرصيف يدفعهم الى اقصى اليسار، ويغذي الرغبة في التخريب. اصدروا بيانا حول قطع الاراضي السكنية وتوزيعها، وقدموا لائحة باسماء ال (227) الذين يملكون ثلاثة ارباع الاراضي الزراعية في البلاد. سجلات الطابو هي الكتاب المقدس: التوراة والانجيل والقرآن في غلاف واحد. القديسون هم الملاكون. اسماؤهم محفورة في اللوح المحفوظ. من لا اسم له في سجلات الطابو فهو بلا ظل رباني. مخلوق عائم لم يتجذر. حاول سعدون الراهي بكل الوسائل ان يدخل السجل، لكنه لم ينجح. هناك اكثر من عشرين مليون لاصفحة لهم، مقابل (227) اسما يحتلون الكتاب كله، ويرد ذكرهم في معظم الصفحات. الخاصية العجيبة لهذا الرقم (227) أنه لا يتغير. تغرق السجلات او تحترق، تذوب الاسماء او تحترق، لكن الرقم لايتبدل. طبع الثوريون كراسا عن نظرية الحلقات للدكتور سالم مهاوي ووزعوه سرا. عضدوا الكراس بنشر بيان مفصل عن تمليك ضفاف دجلة الى عائلة الرئيس وعشيرته وكبار ضباط الجيش والحزبيين. لم يخفوا عداءهم لرجال الدين فهو أمر لامفر منه. اعتبروهم الحليف التقليدي للاقطاع ولأصحاب الثروة. وكان رأيهم واضحا في الحرب العراقية الايرانية، اذ رفضوا كليا المشاركة فيها. اصدروا بيانات عديدة بهذا الخصوص. لصقوها على اعمدة شارع الرشيد. نثروها في الساحات العامة، فتكفلت الريح بتوزيعها على احياء العاصمة. قدموا اطروحة عن الحرب، واعتبروا المشاركة فيها خيانة للصراع الحقيقي. حرب قذرة، بدل ان تكون بين المالك والمفلس، اصبحت بين المفلسين انفسهم، معدم يقتل اخاه المعدم. كانوا يشكلون السواد الاعظم من حملة الوثائق المزورة. لم يكن لهم مقر محدد، لكنهم موجودون في كل مكان. شعارهم لا للخوف، نعم لتحطيمه. هاجموا دوائر التجنيد، وسرقوا اختامها، واحرقوا ملفاتها. كانوا على صلة بنظرائهم الايرانيين وينسقون معهم في التوقيت والخطاب. بدأوا سلسلة اعمال تحولت الى حديث الناس. احرقوا مرآب محافظة بغداد، عدد من المنظمات الحزبية في الرصافة، حافلات عسكرية لنقل الجنود الى الجبهة (كراج النهضة). ليس مؤكد تماما ان كانت حرائق دوائر الطابو من صنع ايديهم، لم يعلنوا مسؤليتهم عنها. هناك من يشك ان كل هذه الحرائق من صنع جهاز الامن. من خلف الشاشة الصغيرة صرخ مذيع مربع الشكل بصوت نحاسي: (نزف البشرى للمواطنين). تحركت الاشاعة اسرع من بيان الحكومة حول القاء القبض على (العقل المدبر). الناس لاتثق بشاشة التلفزيون. لايوجد عقل مدبر خارج السلطة. سربت الاجهزة الامنية انها تمكنت من اختراق المخربين، وتركت لهم الحبل، وانها عالمة بتحركاتهم منذ الساعات الأولى. ما ان سقط

المشتبه بهم حتى نزل جبل الانهيار الكلي، وبدأ تساقط الاسنان، كل واحد يجر سبعة وراءه. بدأت المعلومات تتدفق بغزارة. تكدست الأعترافات فوق بعضها، بحيث أصبح من الصعب فرز ايها الجدير بالتصديق وايها التي ادلقت بفعل التعذيب. وجد المحققون اكثر من سبب للنظر الى سعدون الراهي بعين اخرى. لم يكن فقط الممول والمشغل لوكر صهيب، بل المنظر ايضا. تحت وطأة التعذيب الوحشي اعترف الندماء بادق التفاصيل، ودونوا ليال بكاملها، ذكروا فيها حتى عدد الاقداح ونوع المزة. تطرقوا الى تلك الحوادث التي يختزنها في ذاكرته، وتنساب مع سيلان الخمرة، عن صباه ومشاعيته المبكرة. بدت استقلاليته السياسية تتزعزع، بعد ان دافع عنها بشدة طوال جلسات التحقيق السابقة. هناك احتمال ان يكون زعيما لتلك التنظيمات. ولو ادرج في ملف اليسارالمتطرف فسيكون وضعه اصعب كثيرا. ان ما فيه يكفيه. كان عليه ان يقول الحقيقة، ولا شيء غيرها. ولكن ماهي الحقيقة؟ لم يعد هناك فرق كبير بين ماحدث وما لم يحدث. لم يعد هناك فرق بين ان يكون شريكا او غير شريك. اعطوه اوراقا من جديد. وطلبو منه ان يملأها بكل ما عنده عن سجلات الطابو وتجربته في الصبا(حادثة التزوير التي ذكرها عرضا)، ما فعله وما لم يفعله.

***

يعشق (عادل جوجي) البيرة، ولا يمر يوم دون ان يلثمها. كان ضمن الوجبة الاولى من المعتقلين. لكنه بقي هامشيا في نظر المحققين. لم يعترف احد عليه ولا دوره في وكر صهيب. في اول جلسة صوفية اكتشف المحققون نقطة ضعفه فراحوا يمزحون معه. سألوه عن احب الاشياء الى نفسه فذكر لهم البيرة والسيدة ام كلثوم. فجلبوا له جهاز تسجيل وادار وا له شريط (انت عمري). قاموا باجراء عملية غلق محكمة لجميع المنافذ في جسده. ختموا على دبره بالفلين وشدوا عضوه الذكري بسلك نحاسي. سدوا عينيه بالطين. اصبح من المستحيل عليه ان ان يقذف فضلاته. ابقوا له فتحتان: واحدة (الفم) لخروج الاعترافات، والثانية (الاذن) لسماع ام كلثوم. كان المطلوب منه تقديم ما يعرفه عن تمويل الخلايا السرية. صمد ثلاثة أيام. كان فمه مفتوحا خلالها، لكنه لم يدل بمعلومات هامة، ماعدا كونه شيوعي سابق، ترك الحزب ليتفرغ لشرب البيرة وسماع كوكب الشرق. عندئذ افرغوا في جوفه خمسة زجاجات مثلجة من البيرة ماركة (فريدة). كان من الممكن ان يكون اسعد المناضلين لو انهم تركوا له منفذا لخروج البول. بدأ الانتفاخ اولا في عينيه. تضاعفت وجنتاه. راح انفه يصدر صوتا يشبه الضراط. صرخت مثانته مثل حامل في لحظة الطلق. تحول عضوه الذكري الى مرجل يغلي. عبثا حاول السر ان يظل مختبئا او يجد له منفذا آخر غير فتحة الفم. عندئذ اندلق مع عصارة صفراء من القيء. ابتدأ الاعتراف بطاولة الخمر في مشرب صهيب، عن جلسة خمرية رائقة مع مسؤول دائرة الكهرباء. بعد قرع ثلاثة كؤوس اخرج عادل جوجي جيوبه الفارغة. كشف له عن هروبه من الجيش، وعن افلاس طويل الامد، جعل العناكب تحتل جيوبه، وعن ستة افواه فاغرة تنتظره في البيت. كان يكسب قوت عياله من معمل للمرمر في(بوب الشام) قبل ان تداهمه مفارز الحزب للبحث عن الهاربين من الحرب.

عادل جوجي: صاحب المعمل سرحني، كي لاتطاله تهمة التستر على الهاربين.

ابتسم المهندس وقرع معه كأسا أخرى.

المهندس: لا عليك، سوف اجعل الدولة تتستر عليك. من اليوم انت عامل غير ماهر. سوف تحمل سلما اطول منك قليلا. وسنصرف لك مايكفي للأفواه الست وللبيرة.

***

في دائرة الطابو، طلب من المهندس سعدون الراهي ان يدلي برأيه في الحريق الذي اندلع في غرفة المفاتيح الكهربائية (القواطع). كان الاستدعاء شفافا والاستجواب روتينيا الى حد ما. افاد المهندس ان فشل (القواطع) هو امر لايمكن تجنبه. هناك احتمال ان يواصل التيار الكهربائي سريانه في الاسلاك وعبوره حاجز السيطرة. القواطع ليست آلهة حتى لو كانت المانية الصنع. انها خليط من مغانيط ونوابض. تقتضي المصلحة العامة ان لايكون رجال الأمن من ذوي النوايا الحسنة مثل لجان وزارة العدل. ان عملهم هو الشك وليس اليقين. دخلت قضية المهندس سعدون الراهي في منعطف جديد. تمت مخاطبة الدائرة الفنية في مديرية الكهرباء، ومن خلالهم الى مقر (سيمنس) الشركة المصنعة للقواطع، لابداء الرأي.

دخلت المقابر في القضية. استدعي الموتى لتدوين افادتهم. ذهبت مفرزة امنية عاجلة الى الموظف السابق في دائرة الطابو المرحوم شبيب الراهي. اخذوا معهم صورة فوتوغرافية التقطت له في أواخر خدمته بين مقتنيات ابنه. اقتحموا القبر. اسقطوا ضوءا من مصباح يدوي على وجهه. ازاحوا التراب عنه، ومسحوه بخرقة مبللة. قارنوا الصورة بالأصل. مازال الاب يحتفظ بالكثير من ملامح ذلك الموظف العتيق. وجد من يهزه من كفنه المتهرئ ليوقظه من نومته الأبدية. وقبل ان يجروه وصل الدفان المسؤول عن المقبرة. وجد ضياءا يخرج من احد القبور. نزل وراءهم. طلب منهم تصريحا رسميا بالدخول الى القبر. اجابوه بالعامية: (هذا مو شغلك)، فادرك انهم رجال الأمن. وانسحب تاركا اياهم يكملون مهمتهم. نفضوا عنه الزمن الغابر واقتادوه الى دائرة الأمن. لم يستغرق التحقيق معه طويلا. سألوه ان كان قد شارك او على علم بما فعله ولده. انكر معرفته كليا، بل انه لعن فعلة ابنه. سألوه عن مكان السجل فلم يكن لديه جواب. فتشوا دائرة الطابو، فلم يعثروا على السجل المزور، شكوا ان النيران ابتلعته مع السجلات المحترقة. لقد قام ولدك بتمليك الرعاع ارضا لا يملكها اصلا. وكما يقال (اعطى من لايملك، الى من لايستحق). لقد زرع ولدك في خاصرة العاصمة مستعمرة للهمج والمعدان. هذه الارض تعود لبيت الكيلاني وهي بحوزتهم لاكثر من الف عام. هل تدرك الفرق بين الكيلاني والمعدان !!؟ انكر الاب كليا معرفته. كيف حصلت هذه الجريمة المخلة بالشرف دون علمه؟ كان من العبث اخضاعه لموجة من التعذيب فقد كان ميتا اصلا. لذلك اكتفوا بتوجيه توبيخ له واعيد الى القبر. وضعت ورقة التوبيخ في ملفه الشخصي الى جانب اطنان من كتب الشكر. راح يبكي حزنا على تاريخه الوظيفي الناصع بعد تلوثت بخرقة سوداء.

***

قام ضباط الأمن بزيارة دائرة الطابو وفتشوا الجناح المحترق. حاول مدير الطابو تخفيف وقع الحادث مبينا ان المبنى ماهو الا وجه واحد من اوجه عديدة لتثبيت حقوق الملكية. خاطبهم بكلمات ونظرات ملؤها الثقة والايمان بكفاءة هذه الدائرة:

(اي عمل تخريبي مهما كان حجمة، لن يؤثر على استقرار الملكية).

بسط امامهم مخطط البدائل، قسمها الى: بدائل حية، وأخرى غير حية. فتح لهم صفحة في سجل الطابو الورقي تشير الى قطعة ارض في محافظة واسط. قرأ بعلو صوته مساحة الارض واسم الملاك مع كافة التواقيع والاختام. ضغط على زر فدخل عليه سكرتيره. طلب منه احضار نماذج للسجلات المرمرية. لم يمض وقت طويل حتى دخل عاملان يحملان لوحا من المرمر. طلب من الضباط ان يدققوا في

الصورتين: الورق والمرمر. وجدوا تطابقا مذهلا. اللوح المرمري صورة طبق الاصل من السجل الورقي مع كافة الاختام والتواقيع. بعد ان قرأ مدير الطابو مفعول المفاجأة في وجوههم، انتقل الى السجلات النحاسية. تحدث عن ورشة للطرق على المعادن انشئت خصيصا، وعن كهوف طبيعية محفورة لتثبيت الملكيات الكبيرة. فتح لهم البوما يحوي صورا لسندات نقشت على صخور الجبال، وأخرى دفنت مع الموتى لتكون سندا في العالم السفلي، وهناك صورة لعشرة آلاف قمقم افرغت من العفاريت، وملئت بالسندات الرسمية، واغلقت باحكام، ورميت في بحيرة الرزازة، ومثلها مدفونة في مقبرة خاصة في وادي السلام بالنجف. استمع الضباط الى قصائد وأغان مؤلفة خصيصا لتوثيق الممتلكات العقارية. وتوجد نية لوضع اناشيد يحفظها طلاب المدارس الابتدائية. ومع حضور الشاي والكعك شهد الضباط ما يسمى (الخشوع العقاري). استمعوا الى تلاوة حية من الحافظ (خليل اسماعيل) لماتيسر له من سندات الطابو. قرأ سورة اراضي دانيال، ثم انتقل الى سورة الراشدية، واتى على ذكر الطارمية، وسبع البور والرضوانية والفحامة وسورة الثعالبة والغالبية واراضي سلمان باك والدورة. رتل بصوته الرخيم اسماء المقاطعات، وحجمها، واسماء الورثة، والشهود والموقعين. اخبرهم مدير الطابو ان الوزارة تعاقدت مع المقرئين (ابو العينين الشعيشع) و (عبد الباسط عبد الصمد) على قراءة سجلات اراضي المنتفك. وهناك نية لتسجيل تراتيل لسهل الموصل، واراضي النباعي بصوت قراء مصريين وعراقيين. ابلغهم عن مبادرة شيوخ السعدون والظوالم والمياح في تسجيل اراضيهم صوتيا. وان ورثة الباشا بلاسم الياسين قدموا سيارة شوفرليت الى الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بعد ترتيله (من اذاعة القاهرة) لأراضيهم الممتدة في قضاء الحي. وحين انتشر الخبر دعي المقرئ عبدالباسط في العديد من مضائف الملاكين الكبار، وراح الناس يستمعون الى قراءات عذبة عن اراضي الشامية وابو صخير والمشخاب وغيرها.

***

تحول احراق دائرة الطابو الى عذر شرعي لفض (الجبهة الوطنية) مع الشيوعيين، وشن حملة تصفية لوجودهم. حشدت السلطة امكاناتها البوليسية والاعلامية. اعادت الصحف بث صور لتلك النيران والهلع المصاحب لها في عيون الموظفين والموظفات، صور عن نيران تخرج من النوافذ، و نداءات بأخلاء المبنى. لا احد يعرف كيف وصل الفيلم واللقطات المصورة. ومع النيران تصاعدت الشكوك ان يكون الحريق من تدبير اجهزة الأمن نفسها. على أثر ذلك اصدر آية الله الطباطبائي في النجف فتوى بتحريم الشيوعية، واعيد لصق العبارة على الجدران: (الشيوعية كفر والحاد)، والانتماء اليها او دعمها هو حرام. آيات الله في النجف يدينون الحريق جملة وتفصيلا. المساس بسجلات الطابو كفر. الملكية مقدسة في القرآن والسنة ومذهب آل البيت. ولكي توضع الفتوى موضع التنفيذ، اضيف للرسائل الفقهية باب لم يكن موجودا من قبل هو (باب الطابو)، اعتبر فيه سجلات الطابو جزءا من اللوح المحفوظ، واستند في ذلك الى آية في القرآن (الارض يرثها عبادي الصالحون)، والمقصود هنا الملاكون. واعلن اية الله القزويني: ان سندات الطابو قد ورد ذكرها في (مصحف فاطمة)، وكتاب (الجفر). ونقل القزويني في رسالته الفقهية (باب الملكية) احاديث عن الأئمة، تؤكد لا محدودية الملكية، وانها موجودة من قبل آدم، وبين لمقلديه ان ما يريده الشيوعيون هو ضد ارادة الله والأئمة.

***

السعلاة

(زيارة غير معلنة للسيد الرئيس الى المعتقل، ومقابلة سعدون الراهي ومنحه هدية ثمينة. ظهور اولى علامات الجنون على السجين)

هناك بوابة للخروج من الجحيم تمرعبر سرة السيد الرئيس. تقبيل سيادته هو الخلاص. لكن احتمال الوصول اليها صغير جدا يعادل حجم النقطة الى الجسد الكامل. ابتكر سيادته معجزة للمحبوسين اليائسين من رحمة الله، اولئك المتورطين فلا امل لهم: يانصيب السجناء. السحبة السنوية تجري في عيد ميلاده المجيد. احتمال الفوز واحد من مئة الف. توضع في سلة اسماء جميع اليائسين من رحمة الله. ويسحب اسم واحد منها، لتسقط كل التهم ويخرج من سجنه، مهما كان نوع وحجم ذنبه. هذه المعجزة هي منتهى الحلم للسجين. يحاول الرئيس من خلالها ازاحة الله من عرشه والجلوس في مكانه، على الاقل في عقول السجناء وذويهم. ما على السجين سوى ان يكتب عريضة يطلب فيها تقبيل سيادته. لثم الحفرة السوداء هو الشعرة السحرية. تقترب الصورة من حكاية السعلاة الطيبة، التي تعرف دواء العيون المطفأة. حكتها له عمته وهو طفل، فظلت نائمة في باله عقودا طويلة، واستفاقت في زنزانته:

(عندما ترى السعلاة نائمة انقض على ثديها وارضع منه، عندئذ سوف تستيقظ وتمنحك ثلاثة شعرات: تطير بواحدة، وبالثانية تحصل على السيف السحري، لتصرع به الأسود السبعة، التي تحرس قارورة الدواء، والثالثة لتعود بها الى ابيك الأعمى وتشفيه).

ولكي يحدث التطابق رفع السجين ثدي السعلاة من الحكاية، ووضع مكانه سرة السيد الرئيس. انتظر مروره القدري. كان سعدون يتخاطر معه يوميا. يرسل له اشارات (تيليباث). يعرب فيها عن رغبته الملحة في تقبيله.

(الم يرد اسمي امامكم ، سيدي؟ لقد كتبت لكم من قبل عن رغبتي الملحة في تقبيل جسدكم، قبلة اليانصيب العقاري. سلمت عريضتي الى استعلامات ديوان الرئاسة، لكن حظي العاثر لم يسعفني في الوصول اليكم. انا الآن في ورطة، سيدي. وقد استبد بي الشوق لرؤياكم وتقبيلكم، وفي الموضع الذي تعينونه، سيدي).

جاء الرئيس لوحده. بلا موكب او مرافقين. دخل مديرية الامن ببزته العسكرية. اجتاز جميع البوابات ونقاط التفتيش دون ان يراه الحراس. اتجه الى جناح الموقوفين. كل ينتظر ذات المعجزة: ان يكون هو الفائز باليانصيب. كل يحلم بذلك اللقاء. خطا الرئيس في الممر يقلب الوجوه الملتصقة وراء القضبان. يفتش عن سجين بعينه. هاهي المعجزة تلوح قريبة. لم يبق سوى بضعة وجوه يعبرها فيكون مواجها له. استعد سعدون الراهي للقائه. سوف ينقض على سرته، ويطبق شفته عليها. لن يعطيه فرصة للتراجع.

سعدون: سيدي الرئيس، لا اريد ان اموت ذليلا محتقرا، عميلا خائنا. اريد ان امسح عاري، وما اقترفت يداي)

يخر المهندس راكعا، ثم يقف ليطبع قبلة عميقة في سرة الرئيس.

يمرر الرئيس اصابعه بحنو بالغ فوق رأس السجين. يتنمل الجلد. تنزل الطمأنينة في الرأس الحائر. ينساب الامل في العروق. يباعد الرئيس ذراعيه ليسمح للسجين بفك بقية الازرار اللامعة في بزته العسكرية. تتحرك الاصابع بلهفة عارمة. يخلع عنه الجزء العلوي من بزته، فتبرز غابة من الشعر. يشرق الكنز الرئاسي بكل هيبته واتساعه. تتطلع العيون من وراء القضبان اليه بحسد لاحدود له. كل يتمنى لو يحصل على شعرة واحدة. هناك فيض من الكستناء. دغل من الشعر موزع على مساحات شاسعة من الجذع. وهناك مواضع اكثر غزارة وسحرا، لكنها مغطاة، ولا تفتح الا للأماني المستحيلة. يرفع الرئيس ذراعه اليمنى كي تظهر الاعجوبة السابعة في قامته الخرافية. يشير بعينيه الى موضع الأبط، حيث تنبت شعيرات من الارجوان المضيء. العيون وراء القضبان تتابع خيوط الضوء، تتطلع دامعة بحسرة وصمت مهيب، تراقب اصابع السجين وهي تمتد الى الابط المقدس، تنتزع منه ثلاثة شعرات بعرقها ورائحتها المخدرة. يشمها السجين قبل ان يحملها على كفه مثل طفل خرج توا للدنيا. تتبخر سترة الرئيس وقميصه الملقى على الارض. يتصاعد ظله، ويختفي تدريجيا مثل سحابة من الدخان. لا يبقى في المشهد سوى كف تقبض بقوة على عطية ثمينة. تختفي الاعين وراء القضبان ويحل ظلام الزنزانة. عندئذ يتحسس السجين ثقل الشعرات الثلاث في كفه. تحين ساعة الخلاص، وتحقق الاماني كلها دفعة واحدة. سوف يحرق واحدة ليخرج من السجن، والثانية للحصول على قطعة ارض، والثالثة للحصول على منحة لبناء الدار.

تدخل زوجته الزنزانة. تسمعه يكلم الرئيس، او يكلم نفسه، او الحائط. تقول له ان حبه للرئيس متأخر جدا، يشبه ذكر الله في الشدائد. كلما امتلأ رأسه بالقمل يجد زوجته الى جانبه. بدأ سعدون الراهي يتخلص من قيود العقل، يستدعي من يشاء، ويتخاطر مع من يشاء، لدرجة يصعب فيها الفصل بين ما يجري ولا

يجري. وحين يستذكر تلك الحوادث فانه يرويها دون اي ظل للتردد. تعبر زوجته نقاط التفتيش والاقفال والدهاليز لتضع رأسه في حجرها. يتركها تمرر اظافرها في فروته وقتل (قصع) القمل، وتلقي ما تيسر من لوم وعتب وحزن دفين. لم يعد يبالي، ترك القمل يعشعش في رأسه. الصئبان تتفقس دون انقطاع مخلفة جيشا من مصاصي الدماء. قمل الزنزانة لا ينتهي، يخرج من الحيطان ليهاجمه. تتناول ثيابه قطعة بعد أخرى لتفتش (تفلي) عن الصئبان والقمل المختبئ بين طياتها.

زاره والده مرة واحدة ثم عاد الى قبره حانقا. كان غير راض عنه. لقد اتى الابن بفعل منكر يساوي الكفر. كيف يسمح لنفسه بتحريف سجل مقدس!! لقد لوث تاريخ أبيه وسنين خدمته الطويلة الخالية من الأثم. (ما الذي حل بك ياولدي؟ كيف انحدرت الى هذا المنزلق؟ كيف تعمل ضد الدولة بينما انت عضو من اعضائها؟ كيف تطعنها في الظهر بينما واجبك ان تحميها؟). لم يعد والده قادرا على النوم في قبره. لا حقوه الى هناك. جرجروه من مقبرة(وادي السلام) كي يدلي بشهادته. ايقظوه مرارا ليبلغوه عن تهم مخلة بالشرف. حفروا فتحة في لحده لتمرير رسائلهم. (اخبارك تصلني اول بأول: تخبرني انك مزور، وزعيم لجماعة تخريبية، وجاسوس لدولة اجنبية). اخبار يقشعر لها بدن الميت قبل الحي. أية شناعات هذه، وأية كارثة لو صحت كل هذه التهم. كيف وصلت الأمور الى هذا الحد؟ كيف اصبحت (العقل المدبر) لكل ماهو شنيع ويوقظ الموتى؟

اما (جون ماير) فقد وجده سابحا في اغفاءة طويلة. انتهى المهندس من ملأ خارطة بغداد الصماء. وضع فيها كما رائعا من المعلومات. الى جانب خطوط الضغط العالي وغرف المحولات والمحطات الثانوية، عين مواقع الاقبية والمعتقلات السرية (مزارع الدولة). طوى جون ماير الخارطة، ودسها بين طيات حقيبته، ثم اخرج أوراق التقديم (استمارة) للحصول على الكارت الأخضر(The Green Card) الذي يسمح له بالدخول الى الارض الموعودة. وضعها تحت رأسه، وخرج دون ان يوقظه.

يدخل المحقق الزنزانة وقت ما يشاء. غالبا ما يرى رفاقه القدامى الى جانبه، يحاولون ازاحة القمل الذي يسد اذنه كي يكلموه. يقف المحقق فوق رأسه. يهزه بعصاه ليقطع طريق الحلم والقمل.

الضابط: ما الذي دعاك لتشغيل الهاربين في دائرتك؟

فم سعدون الراهي مغلق. لم يعد يرى، فقد اكل القمل مقلتيه. قد يكون نائما، حالما، ميتا، او مؤجلا ليوم آخر. كل شيء فيه جائز. انه الخراب المبجل. لوعة الاصدقاء وغنائهم الحزين. بصره مطفأ، وسمعه ثقيل. وصل القمل الى معدته. يدخل حسن باشية. يرجوه ان لايموت حيا. سعدون الراهي جثة هامدة. يعيد المحقق سؤاله عن تشغيل الهاربين من الحرب. هل هو نائم كالميت، ام العكس؟ يتوقف حسن باشية عن قتل القمل، ويجيب نيابة عنه: (كانوا معوقين، سيدي، ولا يصلحون للحرب، والصلاحيات تجيز للمهندس تشغيلهم).

الضابط : لقد حققنا معهم جميعا فظهر انهم اصحاء، وان الوثائق التي تخص عوقهم مزورة. لم يكونوا معوقين، بل رافضين للمشاركة في معركتنا المقدسة. كنت تتستر عليهم، يا حضرة المهندس. هل تعلم بعقوبة التستر على الهاربين؟

حسن باشية: لماذا لا تستيقظ وتدافع عن نفسك؟

لم يعد سعدون الراهي قادرا على اليقظة، لا يعرف لم ارتكب كل هذا. لا يملك افكارا يقينية كي يدافع عنها. كل ما يحمله هش ورجراج وقابل للميل في كل الاتجاهات. لم يعد راغبا بتغيير المعتقدات.

حسن باشية: على الاقل دافع عن الهاربين من الحرب. انهم لايملكون شبرا من هذه البلاد. كيف يطلبون منهم ان يدفعوا حياتهم من أجلها. انهم خارج السجلات الرسمية، ومستبعدون كليا من سجل الطابو، هم واجدادهم . السجل الوحيد الذي يضمهم هو سجل التجنيد، لكنه لايكفي للشعور بالمواطنة. اليست هذه اقوالك ؟ لم يعد هناك حل، لقد جرى تقسيم الارض، وما تبقى من التاريخ هو خصام بين الملاكين انفسهم. بين الحين والاخر يرى احدهم أن حصته اقل من الآخر، فتندلع الحرب ويكون وقودها المفلسين. أليست هذه افكارك؟ يقترب حسن باشية من اذنه. يزيح موجة جديدة من القمل. يبث فيه كلمات قديمة، خرجت يوما ما من فم سعدون الراهي: (كلما قل عدد المتحاربين، كلما زادت فرص وقف الحرب. الهارب يجر الآخرين الى الهرب فلا يبقى أحد في الميدان. سوف يرفع احدهم راية (النصر) وينتفخ فترة معينة، ولكن لابأس، كل هذا هراء. النصر الوحيد في الحرب هو هروب المتحاربين. المفلسون وحدهم يقرون بهذه الحقيقة). اليست هذه رؤياك للحرب؟

***

عنبر الجنون المعلق

(يجري هذا الفصل في مستشفى الامراض العقلية ببغداد. اللجنة الامنية تزور المستشفى للتحقق من جنون النزلاء المودعين في القسم المغلق)

تعريف الجنون في دائرة الأمن يختلف عنه في العالم الخارجي. الاقامة الطويلة في هذا المكان تخلخل مقولة (العقل السليم في الجسم السليم)، تقف بالضد من هذا التلازم (الثنائية)، تدفع النزيل نحو (أحادية) الوجود، فاما العقل او الجسد. لابد من اختيار واحد منها، وهو الثمن للخروج من هذه الاقبية. الجنون نتاج مفاضلة بين الحفاظ على العقل او الجسد. حين يختار النزيل التشبث بالجسد، ولايتركه للجلادين، عندئذ سوف يفقد عقله. الفقدان يساعده على البقاء. هذا النوع من النزلاء هم الاكثر هشاشة ولا يتحملون التعذيب، وهم غير المؤدلجين، ولايحملون في رؤوسهم عقائد صلبة راسخة لا تقبل التأويل او التبديل او حتى التعطيل. يحتاج البت في الجنون الى مراقبة طويلة. لذلك حولوه الى زنزانة خاصة تحوي آلة تصوير وجهاز تنصت، حيث يمكنهم مراقبته في اي وقت، بل يمكنهم التنصت حتى الى

أحلامه وكوابيسه، ورؤية الاشباح التي تدخل زنزانته. الدولة لم تبت بأمره بعد ان أصبح التوازن دقيقا بين خلوه من الأثم وادانته. كانت البينات تتعاضد لتشير الى خلل ما في التكوين، وميل هستيري نحو التضاؤل، ولذة عارمة في الشعور بالظلم. اعادوا الحصة التموينية لعائلته، ومنحوا الزوجة راتبا تقاعديا. لكن الملف ظل مفتوحا. لازالت فكرة العقل المدبر تتأرجح في رؤوس المسؤولين في الدولة. وضعوا اطارا جديدا يصف هؤلاء ويخرجهم من دائرة التخريب. وأسسوا لهم شعبة خاصة بأسم (الخراف الشاذة) يتوزع عملها بين دائرة الأمن ومستشفى الامراض العقلية. وضعت الدولة احصائية بعدد الشواذ الكلي في البلاد. وجدوا ان ثلاث حافلات تكفيهم. كان في النية التخلص منهم: رميهم خارج البلاد في يوم واحد، لكن احد المستشارين نصح بالتريث. خصصوا لهم جادة طولها مئة متر لعرض الكتب وشرب الشاي وتناول طبق (الكبة) وقوفا. اما الشواذ الاكثر شغبا وذوي الاخيلة التي يتجاوز مداها تلك الجادة (سعدون الراهي وامثاله)، هذا الصنف الذي يعبر بخياله البحار والمحيطات، فقد خصصوا لهم جناحا مغلقا في مستشفى الأمراض العقلية (الرشاد) في الشماعية يطلقون عليه مجازا (عنبر الجنون المعلق).

من الجائز أن يكون مخلوقا في المكان الخطأ. حين ادرك الله الخطأ حاول تصحيحه فبعث اليه جون ماير لينقله الى القارة الجديدة. لكن (لاندكروزر) مديرية الأمن الرباعية الدفع كانت أسرع من عربة الرب.

يصعب عليه ان يتقبل هزيمة الله امام رجال الأمن. يحاول ان يقنع نفسه ان الله لا يحضر الا في اللحظات الحاسمة. ألله يحاول ان يتدارك السهو. ترك قانون الاعتباط يلعب بمخلوق ضعيف. يحاول جاهدا تنظيم روحه ليمنحها قدرا من الدفء يمنع عنها التجمد. يحاول الامساك بآخر قشة قبل الغرق التام. من اقصى الحتمية والتنظيم المحكم الذي يطوقه، من صلابة الجدران الكونكريتية والباب الفولاذي المقفل، من موت الارادة و صعوبة الفناء، يحاول لملمة ماتبقى له من رؤى قدرية. يتجلى الله في اختراق الحتمية عبر حقن الوجود بالأعتباط. حقن خاطفة تشبه النيازك. يحاول ان يبث من خلالها رسائل موجزة، مفادها ان هنالك عالمان: الحتمية والاعتباط. الله هو الحلقة التي تربط بينهما. يفتح فمه وعينيه في الماء المالح. يمد اصبعه الاخير. يبحث عن معجزة. يرى خيطا دقيقا. الله هو عالم الخوارق. دعوة خفية لتجاوز المعقول. يضعه في الوقت المناسب امام حضوره الباهر. هو زعزعة كل ما يبدو ابديا وغير قابل للتبدل. نهاية حرب طويلة. الله هو المعركة الفاصلة بين اليأس والأمل. هو الكلمة الاخيرة والاصبع الاخير الذي لايرى الا في لحظة الغرق. الله غائب في كل التعاملات اليومية. مزاجه انه لايظهر على المسرح الا في الفصل الأخير، حين ينتهي عالم الضرورة والارقام. لايتدخل الا عند لحظة الوصول الى العجز المطلق ورفع اليدين والاستسلام كليا. قد يكون الله اعم القوانين، لكنه ليس اله الانبياء، بل اله اليائسين تماما. هو الشعور الفجائي بتحقق الاستحالة. القشة التي ينتظرها الغريق، والأسم الوحيد وراء القضبان. حين تسير الحوادث في سياق رياضي منطقي يختفي الله. انه الأذن الكبرى، اذا لم يسمع السجين الانفرادي فسوف لن يسمعه احد. الله هو جائزة اليانصيب. ليس مؤكدا حتى الآن اذا كان وراء السجن الانفرادي سجن آخر. قد يكون الفراغ المطلق هو الأحتمال. انه في القعر، وهذا ما يجعله قريبا من الصفر الوجودي. في الزنزانة ثقب بحجم نقطة النون يمكن ان يخرج منه. لابد أن يتضاءل الى ادنى حد. ينسى حكاية المئة وخمسين مترا مربعا، وينزل الى درجة المتر المربع الواحد الذي يكفي جسده. من هناك يواصل رحلته الى الصفر الوجودي، الى النقطة التي ظهرت جليه في لحظة أنفصال ساقيه عن الارض التي تقف عليها، ثم تدليه وصعوده الى سقف غرفة التحقيق في دائرة الأمن. في الصفر الوجودي لن يحتاج ان يكتب رسائل استعطاف لوزير، ولا الرضاعة من ثدي الرئيس، ولن يحتاج الى عمل خارق، ولا قتل خمسة ايرانيين في حرب ليس متحمسا لها. في الصفر الوجودي لا يوجد شيء ينتزع منه، ولا يطرد من اي مكان، ولا يمكن

الوصول اليه، او الاقتران به، او تعليقه، او جره، او وضع حبل في رقبته. اذا اراد ان يصل الى الافتراق النهائي فليس امامه سوى الذهاب الى الصفر الوجودي. ولكي يبقى صفرا على الدوام، ينبغي ان لا يلتصق باي رقم آخر. عليه ان يقيم علاقات طارئة او ميتة، لكي لا يعيد الكرة. ولكي لا يكون له حقوق ضائعة، ينبغي ان لايكون له حقوق اصلا. لكي لايضيع او ينتزع منه شيء، عليه ان لا يملك شيئا ابدا، ان يكون صفرا. ولكي لا يخترق، ويتم احتلاله ثانية، ينبغي ان يصغر الى ادنى حد، ان يكون صفرا.

للتأكد من سلامة قواه العقلية نقل المهندس من زنزانة دائرة الامن العامة الى مستشفى الامراض العقلية في الشماعية. ووضع في القسم المغلق الذي يعرف باسم (عنبر الجنون المعلق) تقبع فيه فئة من النزلاء مشكوك في جنونهم، هم في الاصل زبائن الاجهزة السرية، تزورهم لجان دورية للتحقق من قدراتهم العقلية. لقد واجه خيارين: اما ضياع العقل او ضياع الجسد. في المستشفى تولت الاشراف عليه الباحثة الاجتماعية ايمان القيسي. حاولت أن تكون مهنية قدرالامكان، وان تخفي الشعور المحزن نحو جار العمر وابن الحي الذي ترعرعت فيه. كان المطلوب منها ان تكتب تقارير دورية الى دائرة الأمن عن حالته. اصبح بقاؤه خارج زنازين دائرة الامن يعتمد بشكل مباشر على هذه التقارير. ولكي تضمن له أقامة أطول في المستشفى كان لابد ان يظهر تقدما متواصلا على طريق الجنون.

كتبت الباحثة الاجتماعية عن مهندس مشغول بتشييد خط كهربائي جديد لصعق زملائه في القسم المغلق. (يقترح استبدال الصعقات الفردية التي نقدمها للنزلاء باخرى جماعية. الخط الجديد يسمح للنزيل بالحصول على الصعقة في اي وقت ودون الرجوع الى الطبيب. الهدف هو توحيد المزاج (التصفير المتزامن) داخل القسم. التجربة هي جزء من سعيه الى تحويل الجنون الفردي الى جنون جماعي، او حسب تعبيره: جمع المغانيط الصغيرة في مغناطيس واحد. نؤكد ما كتبناه لكم في تقارير سابقة عن التردي المتواصل لحالة المريض، وتوهمه العبقرية، واستقباله المتكرر لشخوص لا وجود لهم ، وعبوره لبحار لم يرها قط).

تصطدم تقارير السيدة ايمان بالنظام الاخلاقي المتبع في دوائر الأمن. الشك هو القيمة العليا، وبدونه لايستطيع المحققون مواصلة عملهم، ولذلك فهم بالضرورة لايثقون بأحد. كان لابد من الكشف الميداني للتأكد من تلك التقارير المكتوبة عن النزلاء الذين تم تحويلهم للمستشفى. الشيء الجدير بالاشارة هو قيام المهندس بادخال تغيير على طريقة عرض الجنون. وبدل المونولوجات التي اعتاد المجانين تكرارها يوميا داخل الممرات، اقترح المهندس على النزلاء تقديم عروض جماعية، وحضيت الفكرة بتأييد أدارة المستشفى.

في اليوم المعين لزيارة العنبر وصل اربعة من رجال الامن. سوف يقف كل نزيل امامهم لعرض جنونه، وبالطريقة التي يرتأيها. العرض بشبه برنامج المواهب، يمثل فيه رجال الامن لجنة الاختبار. العرف الامني يكفل حق الجنون، لكن بشرط ان يكون اصيلا، ويحمل ادلة قاطعة. عيون الضباط حادة، تخترق حالات الزيف، خبرة طويلة في فرز العقل من اللاعقل. القت الباحثة الاجتماعية السيدة ايمان القيسي (التي تنظم دخول النزلاء) كلمة قصيرة، اكدت فيها ان نسبة الخطأ تقترب من الصفر.لايقدر ان يبقى النزيل معلقا لفترة طويلة، اذ يتحول مع الايام ، ودون وعي الى مجنون، ويكون شفاؤه اصعب من المختل اصلا. ادعاء الجنون مغامرة خطرة جدا. سوف تتفتت عناصر المنطق في داخله رغم انفه، فغياب المنطق اسهل بكثير

من بقائه. هناك مايوحد النزلاء: اللحى المهملة، والاضلاع البارزة، والرقاب المعروقة، والاقدام الحافية، والعيون المطفأة، والشفاه المتيبسة، وكل ما حل بهم من خفة، واستعداد للتحليق باجنحة الوهم.

هيأت ادارة المستشفى منصة وستارة للعرض على غرار المسرح. ستتفرج اللجنة الامنية على عروض فردية وجماعية. المطلوب منهم ان يؤكدوا جنونهم، سوف يحدد الضباط الوقت، ويضع كل رأيه بمعزل عن الاخر، وفي الختام سوف يقررون بقاء النزيل في المستشفى او اعادته الى المديرية. القاعدة الامنية: المتهم عاقل حتى يثبت جنونه.

ابتدأ العرض بعضو سابق في الفرقة السيمفونية الوطنية. عزف النشيد الوطني بمناخيره. لم تكن هناك آلات موسيقية، بل مزيج من النواح والعويل يفطر القلب. جاء بعده أحد العاملين في سكك حديد الجمهورية العراقية. شكل قطارا يطوف حول اللجنة: جكجكجك .... تووووووووت ... جكجكجكجكجك. كانت فرحته لاتوصف. سألوه عن وجهته. قال انه آخر قطار في الدنيا. من لا يركب معه فسوف يموت من السأم.

حين غادر القطار، دخل المنصة صوت جهوري: (ايها الرومان، ابناء وطني الاعزاء، اصغوا الي فان الموضوع خطير). انتهى بروتس توا من قتل يوليوس قيصر: (من كان منكم صديق حميم لقيصر، فاليه وحده اقول: كان قيصر حبيبي فانا ابكيه، كان مقداما فانا اطريه، ولكنه كان جشعا طماعا ، فقتلته ......). ازاح بصوته الستارة. كان عاريا تماما. لم تتفاجأ اللجنة ولا ادارة المستشفى، فهو معروف سلفا. رمت السيدة ايمان له ازارا ليغطي به عريه، ويكون بمثابة جلبابا لامبراطور روماني. فتح الضباط ملفه: خريج اكاديمية الفنون الجميلة ببغداد، ومسرحية شكسبير هي اطروحته للتخرج. كان من المفروض ان يذهب للحرب. لكنه فضل الصعود للجبل والانضمام لقوات الانصار الشيوعيين. وقع اسيرا في مواجهة مع الجيش. انهارت قواه العقلية تحت التعذيب، وفقد ذاكرته. الشيء الوحيد الذي لم يفقده هو دوره في المسرحية، التي اخرجها بنفسه ومثل فيها. قطع احد الضباط عليه خطبته: لكن يا سيد بروتس انت لم تقتل يوليوس قيصر فقط، بل فتحت النار على فوج مشاة في جبل قنديل، وقتلت جنديا. حتى الآن لم نسمع منك سوى دورك في المسرحية، اما دورك في الجبل فلا نعرف عنه شيئا. سوف نمدد اقامتك في المستشفى، فربما تعود اليك ذاكرتك. يخرج بروتس ويظهر شراع في خلفية القاعة. يرسو المركب في الميناء. يهبط القراصنة الملثمين. يتحركون في المدينة. يقتحمون مبنى الجمارك، ثم يشعلون النار فيه، ويعودون الى المرسى، لكنهم لا يجدون مركبهم. يهربون سباحة. ينتهى بهم الأمر الى الغرق وسط البحر. تصعد الموسيقى الحزينة من وراء الستار. وينزل البحر مثل شمس الغروب. رتل من النمل يحمل جثة غريق، يسحبها بعيدا عن الشاطيء، كي يوصلها الى ثقب في الارض، يدفنها مؤونة للشتاء. فوج المغاوير يتقدم للحرب فيضيع في الغبار. زفة عرس يقودها بغل. يتصاعد ايقاع الجنون. يقود العرض مخرج سينمائي صنع فيلما في الخارج يسيء الى الحزب الحاكم، فتم خطفه وتأمين احضاره بالحقيبة الدبلوماسية. تعرض لتعذيب وحشي ففقد التسلسل الدرامي. الافلام التي يخرجها في المستشفى اقرب الى الكوابيس. بعد هذا العرض اجمع الضباط على جنونه.

من يسار المنصة دخل هندي احمر يحمل سهما وقوسا، ومن اليمين دخل راعي بقر امريكي (كاوبوي) يحمل مسدسا. بدأ كل منهما بالتسديد على الآخر. الشجرة التي تتوسط بينهما فشلت ان تكون حاجزا، فتراجعت وخرجت من المسرح، وبقي الاثنان يتناوشان عن بعد. حين انتهت السهام والرصاص، تقدم كل منهما صوب الآخر. قال الهندي الاحمر: انا قتلتك، فلماذا لم تمت؟ اجابه الكاوبوي: وانا ايضا قتلتك،

واطلب منك ان تموت حالا. فقال الهندي: لكني رميت عليك اولا، فرد الكاوبوي: طلقتي اسرع من سهمك، ولابد ان تكون ميتا. قال الهندي: انت تغش، اذا لم تمت، فسوف اشتكي عليك. فقال الكاوبوي: انت ميت ولا تستطيع ان تشتكي. فبدأ الهندي يبكي، لن العب معك، انت لاتموت. تدخل السيدة ايمان لتوقف هذا الحوار، تقول انهما لو تركا فسوف يقضيان النهار كله دون ان يصلا الى حل. تطلب منهما اللجنة التوقف واخلاء المنصة. واضح تماما انهما فقدا الشعور بأهم بديهيات التفكير وهو قانون السببية.

بعد سلسلة من جلسات التعذيب حاول عامل في مقهى ان يبقى صامدا، فلا يعترف على رفاقه. ادعى ان ذاكرته سقطت في ابريق الشاي وهو يغلي. حبسوه خمسة اشهر انفراديا ففقد عقله. حين دخل على اللجنة كان يحمل هرما من اقداح الشاي، وزعه على الحاضرين. ودخل مقلد بارع لفريد الاطرش يحمل عودا بلا اوتار. يغني عن الربيع. اللحن لفريد والكلمات من عنده. وتقدم ضابط متهم بالمشاركة في محاولة انقلابية. مازال يرتدي ثيابه العسكرية. اعلن البيان رقم واحد (بعد الاتكال على الله، وبهمة الغيارى...). كل يوم يستيقظ مبكرا. يحتل قاووش النزلاء ليذيع البيان ذاته. حينما يخلى المنصة يتقدم شيوعي متطرف، يحمل زجاجة فودكا، يرتدي معطف ليونيد بريجنييف، ويرقص البلالايكا، ويغني اغنية روسية غريبة الاطوار، ثم يقف متجمدا مثل تمثال لينين.

جاء دور العرض الذي اعده المهندس سعدون الراهي. الملابس تلعب دورا مهما، ولذلك يتوجب الاشارة اليها. سوف يخرج النزلاء من غرفهم الى باحة العرض وهم يرتدون ثوبا موحدا (دشداشة) من قماش قطني يسمى (البازة). اصطف النزلاء، واعطيت لهم الاشارة بخلع ثيابهم، وتقطيعها الى شرائط. وضعوا أسنانهم في ثيابهم، فصنعوا منها حبلين طويلين. لم يبق عليهم مايستر عوراتهم. هذه اول علامة مهمة ينبغي على ضباط الامن تدوينها: الجنون هو العري المطلق. المنظر مؤلم لو رآه ذويهم، لكنه مألوف لهم، ولجميع العاملين في المستشفى. لا يربط المجنون بين العري والجنس. لايعي ان العضو الذكري هو عورة. ومن النادر ان ينتصب، فهو لايدرك وظيفته في اختراق الثقوب. من الآن فصاعدا سيتحول المجانين الى اعمدة كهربائية وثيابهم الى اسلاك. اشار المهندس عليهم بربط الاسلاك. عليهم ان يرفعوا اذرعهم لتكون حوامل. تمر الحبال بين اصابعهم: ثلاثون زوجا من الاكف والقامات العارية، تحمل خطين متوازيين من الجنون الكهربائي. هل ينوي المهندس صعقهم مرة واحدة؟ سؤال يطوف في رؤوس ضباط اللجنة. قدمت السيدة ايمان القيسي شرحا مبتسرا عن تعريف سعدون للانسان السوي، وطريقته في صعق النزلاء. يرى ان من الافضل تصفيرهم (صعقهم) في وقت واحد، لخلق نوع من التزامن، والعيش سوية في حالة الانسان السوي حتى لو لدقائق معدودات. يحتاج النزيل الى صعقات كهربائية دورية. يختفي طنين الذباب المتواصل في اذنه، وتهبط شحن الأحتقان الى أدنى حد، وتخمد الافكار المتسلطة، وفوضى الحواس، والاخيلة المستحيلة. هذا العلاج اسرع من العقاقير في أعادة تصفير النزيل. التصفير يعني أعادة ترتيب الذات، بحيث يتشكل منها مغناطيس واحد فقط، بدل ذلك الكم اللامحدود من المغانيط الصغيرة المبعثرة، حيث التجاذب والتنافر يحتل الدماغ لحظيا. يتألف الدماغ البشري من مجموعة هائلة من المغانيط الصغيرة. الفرق بين الاسوياء والمجانين هو في أتجاه المغانيط. يكون الشخص سويا حين تتجه مغانيطه الصغيرة جميعا بأتجاه موحد، بحيث يتشكل منها مغناطيس واحد، وبذلك يعرف السوي في كل لحظة الى اين يتجه. اما المجنون فهو على النقيض يحمل في دماغه مغانيط غير موحدة الاتجاه. انه خليط من التجاذب والتنافر يسفر عنه فقدان تام لأي أتجاه. وهناك طبعا درجات بين السوي التام

والمجنون التام: نصف او ربع مجنون، يقابله نصف او ثلاثة ارباع سوي، اعتمادا على نسبة المغانيط الصغيرة التي تأكل بعضها. ولكي يقترب المجنون من عالم الاسوياء يتم تعريضه الى صعقة كهربائية لفترة محدودة جدا. الصعقة التي يقدمها المستشفى لاتخلق مغناطيس دائم، لذلك فان مفعولها وقتي. هناك شيء غير معروف في داخل المجنون يتحرك ليعيد الفوضى الى المغانيط الصغيرة. ولكي لا يتلف الدماغ وتتعطل الاعضاء يتوجب ترك مسافة زمنية كافية بين صعقة واخرى.

قبل ان يدخل المهندس سعدون الى المستشفى كان طيف الصعقة يتألف من لونين : الفولتية الخضراء: وهي فولتية منخفضة جدا لا تؤثر في المريض ولا تغير من حالته، والفولتية البرتقالية (العلاج المعتمد): وهي فولتية متوسطة تعمل على تهدئة المريض لفترة محدودة. اضاف المهندس لونا ثالثا هو (الفولتية الحمراء): وهي فولتية عالية لا تقتل المريض، لكنها تسمح له ان يكون سويا لزمن قصير جدا لا يتجاوز بضعة دقائق . وفرت السيدة ايمان ما يحتاجه لتجاربه والعرض الذي سيقدمه. اعطته الحق بالدخول الى غرفة السيطرة الكهربائية والتلاعب بمفاتيحها واسلاكها. سمحت له بتحوير بعض من أجهزة الصعق التابعة للمستشفى.

من حق اللجنة ان ترتبك امام رقص المجانين، ويصعب عليها قراءة الرسائل التي يبعثوها. كانت ايماءاتهم غامضة، لاتوصل الى غرض محدد. عراة يتحركون بعشوائية، ويضحكون بلا سبب. الجنون هو انفصال وعيش في فضاء لا يعرفه الاسوياء. الرقص فيه ليس فرحا، بل طريقة لعرض حالة الوجود الذي يعيش فيه. بركان متفجر، لكنه لايعبر فوهة المجنون نفسه. سلسلة انهيارات داخلية موجعة. لكنها لا توجع الا صاحبها. وحين تزداد الفولتية يصبح رقصهم وحشيا، ثم يأخذ شكل ارتجاجات، وتصلب في الشرايين. (العقل المدبر) الذي يفتشون عنه يبعد مترا عنهم. كان قائد الجوقة، وبيده مفتاح التحكم. يدفعهم الى البوح بكل ما عندهم قبل تمرير الصعقة الحمراء (الفولتية العالية)، التي توصلهم الى الصحو، وتفتح اعينهم امام عالم الاسوياء، وبذلك تسمح لهم برؤية بعضهم البعض بعيون اخرى اكثر صفاءا. ينبغي ان تكون النبضة (الصعقة) العالية قصيرة الامد وخاطفة كي لا تتوقف قلوبهم. دفع قائد الجوقة منظم الفولتية الى اللون الاحمر، فوصلت الارتجاجات مدى تعذر فيه تمييز وجوههم. كانوا اشبه بنابض حلزوني. دخان ابيض يخرج من آذانهم، وكلمات حبيسة تتلاطم في افواههم. لفظوا آخر حروف الوجع. لا احد يقترب، فهم يطلقون شررا. اي تماس يعني العدوى. البرق البنفسجي يوحدهم، ويجعل منهم نجوما مضيئة، ولو لزمن خاطف. الصعقة سرت في عروقهم فاستفاقوا، وارتسمت في وجوههم رغبات من عالم نائم. كفوا عن الارتجاج، وراحوا يتطلعون في الوجوه على استحياء، ويغطون عوراتهم بايديهم. العرض يشبه علاج الشلل المؤقت. لابد من نبضات كهربائية محسوبة لايقاظ الخلايا النائمة في الدماغ. ولابد ان تكون محسوبة بدقة كي لا تحترق ادمغتهم. حين تمر الصعقة في اجسامهم يتوحدون في الصحو، لزمن يعتمد على شدة التيار، ولكنه في احسن الاحوال لا يتجاوز الخمسة عشر دقيقة، يعودون فيها الى عالم الاسوياء (العقل) ويصبح بامكانهم التواصل مع محيطهم كما هو. غطوا اجسامهم العارية بمزق الثياب، ثم راح كل منهم يبوح بما ترسب على شفا جمجمته. تدون السيدة ايمان مايخرج من افواههم من جمل ووصايا باختزال شديد: قبلة لطفلة رضيعة يضعها الاب قبل القاء القبض عليه. سلام لزوجة مع اشواق حارة، ام تلفظ انفاسها في العتمة، قولي لاخي ان لا ينسى برج الطيور، معاملة تقاعد متعثرة، وبستان بلا ساقي، لقد غرقت السفينة ، قولي لشريكي في المعمل ان يفض الشراكة، قولي لابنتي ان تتزوج

من تحب و بدون مهر، انا موافق . ووووووووو. كانت السيدة ايمان حريصة في تلك الدقائق المتسارعة ان لاتنسى اي منهم، فهي ليست وصايا فقط، بل معيار لدرجة صعودهم او نزولهم في سلم العقل. الوقت يمضي وعلامات اندحار العقل تزحف الى الوجوه. يتبدل لون الشعاع من اعينهم، الاصوات الغريبة تنقر آذانهم، حركتهم العشوائية، وتدلي رؤوسهم ، وانفراط الجمع. تختفي العيون وراء غيمة سوداء. المغانيط الداخلية تتنافر. المزاج مغبر. والعقل تائه. انتهت دقائق الصحو، وتراجع عالم الاسوياء. يتركون مزق الثياب على الارض، ويعودون عراة. ويبدا الرقص الوحشي وتناطح الفوضى والصعود في سلم اللاعقل.

انتهى العرض كما بدأ. عاد الجنون ليحتل الرؤوس. دونت دقائق الصحو، وما رافقها من علامات. اخليت القاعة. وبقي الضباط لوحدهم، يتداولون في مصير النزلاء. استحوذ العرض الذي قدمه المهندس على اهتمامهم، من حيث درجة قربه الى العقل. رأوا فيه مرورا بعالم الاسوياء حتى ولو لدقائق معدودات. وتساءل احدهم عما يحدث لو واصل المهندس تجاربه في العنبر، لو مد في عمر الصحو؟ اصبحت اللجنة امام باب مفتوح على شتى الاحتمالات. ماذا يمكن ان تفعل رؤوس صغيرة لو توحدت في لحظة واحدة؟ الاصابع الاربع تشير الى خلاصة واحدة: المهندس ليس مجنونا، بل اكبر من اي عقل سوي. العرض يرجح ان يكون هو العقل المدبر لما جرى في البلاد من فوضى. وان بقائه في المستشفى يجعل من هروبه امرا سهلا.

انتهت اللجنة الى رفع توصيتها الى مديرية الامن العامة بالتحرز على المتهم، ونقله الى (مزارع الدولة)، فهي المكان الملائم له.

***

مزارع الدولة

(الحملة السنوية لقطع الاشجار، وابعاد خطرها على الاسلاك الكهربائية، تقود المهندس الى كشف معتقلات سرية تحت الارض)

قدر للمهندس سعدون الراهي ان يتعرف على (مزارع الدولة) قبل ان يكون واحدا من نزلائها. رآها من من الخارج ومن الداخل. دخلها حرا طليقا وسجينا. حين اكتشف موقعها لم يخطر بباله ان يكون واحدا من نزلائها. كأن اياد خفية تدفعه للوصول الى الخلاصة العذبة، حيث يجس باصابعه قعر الملكية، ونهاية الرحلة. في مشروع (مزارع الدولة) اكتشف حيا سكنيا تحت الارض، بمساحة لاتقل عن خمسين دونما في منطقة المدائن. رسم له مخططا. انه مستودع الاجهزة السرية الثلاث: الامن، المخابرات، الاستخبارات. هنا يحفظ الاحتياطي الوطني من الرؤوس الصعبة. هنا تمنح جذوة العقل سكنا دائما حتى تنطفيء. خاصية السكن تتلخص بالانقطاع عن الدنيا. لاتوجد سوى بوابتان: واحدة للدخول واخرى لخروج الموتى.

في أواخر نيسان تنمو الاشجار، تتسلق الهواء، وتزيح ما يعترض طريقها من اسلاك. في هذا الوقت تبدأ حملة مديرية الكهرباء لقطعها، وابعاد مخاطرها. غصن واحد يكفي لسقوط خط كهربائي يغذي حيا بكامله. يحمل المهندس ترخيصا للدخول الى اي مكان، وبتر الغصن الذي يتطاول على الشبكة الوطنية. في كل عام يدخل مزارع الدولة ليمكث اسبوعا، على الاقل، يشذب اشجارها. مزارع الدولة ! اسم يثير العجب، لا فلاحين ولا خضار ولا فواكه ولا تتطلب عناية يومية، لايوجد سوى اشجار اليوكالبتوس. انها اقرب ان تكون غابة من اشجار بلا ثمرة.

يقع المشروع في منطقة المدائن، ولايبعد كثيرا عن المفاعل النووي العراقي، في منطقة مقطوعة، حيث لايسمح بالدخول الا بتصريح امني. وسائل التمويه تخفي اي اثر لهذا المجمع السكني السري. يحيط (مشروع مزارع الدولة) جو من الغموض: لا مهندسون ولا آليات ولا موظفون، لا فواكه ولا خضروات، لا فلاحون ولا جرارات زراعية. لايوجد سوى سياج حديدي وبوابة بنقطة حراسة رئيسية واربعة اخرى، موزعة في كل زاوية. اما في الداخل فتنتشر اشجار اليوكالبتوس. بعد المدخل تنتصب لوحة كبيرة تحمل اسم المشروع، دون ذكر للمقاول ولا تاريخ المباشرة، ولا الانتهاء. كل ماموجود هو مخطط مع اشارة تفسر بعضا من الغموض وهو ان المحصول الزراعي التجريبي ينتظر نمو اشجار اليوكالبتوس. وان ما يراه المهندس ليس سوى غابة من اشجار بلا ثمرة وجدت لتغطية محصول زراعي مفترض. خطوط الضغط العالي تمر في مزارع الدولة. بعد ان يعطي اوامره للعمال، يباشرعملا من نوع آخر. سوف يفتش عن ثقب في الارض. لايحمل سوى عينين وهاجسا مفتوحا على سر خطير. انه قريب يكاد ان يسير فوقه، قد يعثر به. يسترق السمع باحثا عن موضع تحت قدميه، يعثرعلى سقيفة صغيرة بحجم برج الحمام تحوي مايشبه المدخنة. يفتح حواسه جميعا. يشم روائح حية، ويسمع اصواتا من فتحة التهوية. كان حتى هذه اللحظة يشعر ان مايروى عن قبور الأحياء هو افتراء من نسج أعداء الدولة. يضع دائرة حمراء على الموضع في خارطته. هناك ثقب في الارض. ثقب يكفي لمرور جرذ. لابد ان هناك مناخير اخرى تتنفس بها مزارع

الدولة. منخر للتنفس اوالاتصال بالعالم، اشبه بأنف غواصة، محاط بكل وسائل التمويه. لابد ان كما من الأنوف تقف في طابور يومي لتتنفس هواء الدنيا. الصلة الوحيدة بالعالم الفوقي. بدأت اولى المحاولات للأتصال بذلك العالم. أعد عصا طويلة ليمررها في الثقب، عصا يستخدمها عمال الكهرباء لقطع التيار عن المحولات، اقرب في طولها وشكلها من عصا لعبة الزانة الرياضية. في طرف العصا سوف تثبت رسائل الى ذلك السرداب الارضي. العصا تنزل رويدا رويدا في الثقب الضيق. العين تراقبها وهي تغوص بصمت في المجهول. اي هاجس جنوني يجعل المهندس يقامر برقبته. الخطوة الفاصلة بين ان تكون او لا تكون. ومع كل شبر يغوص في الارض يقترب من جذور العالم السفلي. عندئذ شعر ان هناك من يهز العصا. يسمع من يناغيه بهاجس مماثل، من يقول له (لقد وصلت، نحن هنا). اشارة واضحة. خرج قلبه من موضعه وتدحرج على الارض. ارتمى على الثقب والصق اذنه في فوهته. القلب يسمع أدق الاصوات. مر النداء خلال (القناة) الضيقة الممتدة بين القبو السري والعالم الفسيح. حمل معه جبلا من الحنين واللهفة، حيث يتعذر الارتماء والتمرغ في احضان الدنيا. تختلط الازمنة والاصوات ببعضها. يكاد المهندس ان يفقد عقله. انهم بشر احياء، يسمعهم يولدون من جديد. لم يعد يفرق بين ثقب الارض ولحظة الولادة: صيحات الطلق وصرخة الجنين ونداء المقبورين وخروج الحياة الى النور. يتحول الثقب الى حبل سري. كان كمن يستشرف المستقبل، اراد ان يعرف حصته من العالم السفلي. واجه ذلك في موضعين: الزنزانة الانفرادية ومستشفى الامراض العقلية. ماذا لو نقلوه الى ذلك السرداب الحي؟ دفع العصا وهي تحمل الى المقبورين رسالة يسألهم عن عددهم، ومساحة السرداب المخصص لهم. النتائج الاولية تفيد بضيق العالم السفلي. الشيء الذي يفتقرون اليه هو الفراغ. سألهم عن عددهم، ودفع اليهم اداة قياس الطول ليقيسوا ابعاد السرداب. جاءت النتائج متطابقة تماما مع التوقعات: بعد قسمة مساحة السرداب على الموجودين فيه ظهر ان حصة كل فرد منهم هي متر مربع واحد. وبذلك استخلص المهندس انه يقف فوق المكان الذي يمثل غاية نظام الملكية.

***

للتقرب من المغزى العميق لمزارع الدولة، ينبغي التخلص من التفسير الاحادي، الذي يحمله المعادون للنظام (انها معتقلات سرية). فهو لايكفي امام قدرة الدولة على تصفيتهم جسديا. ما رآه المهندس وكتب عنه يؤكد ان الدولة كانت حريصة على حياتهم، وكانت تصرف الوقت والجهد والمال لهذا الغرض. للعلم انهم يتلقون علاجا، وان الحصة التموينية تصلهم اولا باول اسوة بمن هم فوق الارض. حين نقل المهندس من مستشفى الشماعية الى هناك، حمل مايكفي من الجنون، ليستنتج ان مزارع الدولة هي مجمعات سكنية تحت الارض، لفئة من المواطنين، لاتسمح المصلحة العامة باسكانهم فوق الارض. انهم الصنف الاكثر خرقا للنواميس. تيار العقل المتهور الذي ينبغي حصره في اضيق مساحة ممكنة. لايمكن وفق هذا التعريف الجزم بسلامة قواه العقلية، فحالة التموج بين المعقول واللامعقول اصبحت صفة ملازمة له. حين دخل عليهم سألوه عن الشمس: هل مازالت تشرق؟ سألوه عن النهار والشوارع والاسواق والمطاعم والسيارات، هل مازال العالم كما هو؟ انطمرت الكثير من المعالم البشرية في السراديب: ضمر كل ما لايستخدم في الجسد. اختفى العضو الذكري، لم يبق منه سوى فتحة صغيرة للبول، بعد ان اصبحت المرأة مخلوقا خرافيا مثل السعالي. تضخمت حاسة اللمس. انتفخت المخيلة فابتلعت ماتبقى من الجسد. توسع بؤبؤ العين ليستوعب القدر الضئيل من الضوء. وبسبب الرتابة المطلقة للطعام اصبح اللسان اقصر، واختفت حاسة الذوق. اختفت بعض المصارين وضمرت الاطراف. وبمرور الوقت بدأ هو الآخر يفقد من حواسه وجسده، يضمر ويقصر، وتغدو قصصه قديمة. في الخارج سوف تولد ثلاثة حروب اخرى، وتتساقط جسور، وتدخل جيوش، ويجوع الناس، ويهرب الكثير منهم، لكن السراديب تواصل

ديمومتها بهدوء. كل شيء ينهار الا مزارع الدولة، فهي عصية ومحكمة وبعيدة عن الفوضى. وفي ساعة بدت كأنها تعيش دون سبب خارجي، كأنها تمون نفسها بنفسها مثل اية نجمة في الكون. انها باقية بارادة عليا. الساكنين فيها يواصلون البقاء حتى يأخذهم الموت، فينتقلون الى السكن الابدي،حيث يتطابق الجسد تماما مع الفراغ المحيط به. جمعت العقول من كل العصور، وحشرت في تلك المستودعات الارضية. وبمرور السنين فقدت قوتها فاستحالات الى خليط من الزواحف والقوارض. الهشاشة في الجسد والعقل والروح. كانوا حقلا مثاليا للأختبار. الدولة السرية تتلاعب بهم: تحقنهم بين الحين والآخر بتفسير لوجودهم. ترسل اليهم ضباطا مدربين يمثلون عليهم دور الملائكة او الانبياء النازلين من السماء. تحولهم من العقل الى نقيضه، ومن اقصى المنطق الى الخرافة. حين دخل المهندس عليهم وجدهم يعتقدون انهم يقبعون في قعر الجحيم، عقابا ربانيا على اختراقهم حدوده. وجد الكثير من الاسماء الموصومة ب (الخونة) و (المارقين) و (المخربين) و (الملحدين) و (الفوضويين) و (العملاء) و (اعداء الشعب) و (الجواسيس). وكان هناك الكثير من تلامذة البروفيسور سالم مهاوي. وجد عقولا جبارة تم مسخها، ووجوها مشعة تم اطفاؤها، والسن فصيحة تم بترها، وجباه عالية تم هدمها. وجد مستودعا لكل الشموس المنيرة وقد اطفئت وتركت تتعفن بلا انتهاء. وجد نسخا مدمرة من: توماس مور، توماسو كامبانيلا، روبرت اوين، كلود سيمون، شارل فورييه، كارل ماركس. الغالبية منهم فقدوا خصائصهم الاولى، وفقدوا الامل في الشفاء، ولم يبق لهم سوى فسحة البقاء. لم يدر بخلده انه سيكون واحدا منهم، وسوف ينحدر بالتدريج ليكون مثلهم. كانت فكرة الله تندفع بقوة لتتسيد المنظومة السببية لما يجري. هل كان يتصنع الجنون، ام هو مجنون فعلا ؟ هل ان الله هو الذي يتولى عقابه؟ الله هو الراعي الرسمي لمزارع الدولة. على هذا النحو يفكر النزلاء. ارتباك لامفر منه، ينطبق على كل من يدخل الى تلك السراديب. ماتفعله الدولة هو تنفيذ لمشيئة الله. لمزارع الدولة تفسيران: من فوق ومن تحت. حين ينظر المهندس الى المشروع من فوق يراه صورة لارادة الدولة: المتر المربع من صنع السلطة، وهو لب النظام الاجتماعي. وحين ينظر اليه من تحت (نزيلا فيه) يراه صورة لأرادة الرب، وسوف يتخلى عن ادانة الدولة، بل انها (اي الدولة) سوف تتلاشى تدريجيا ليحل الرب محلها، ويتحول من يحرسها ويديمها الى ملائكة سماويين. الكل يفقد صلته بالدولة. يفقد الضباط (خلال ساعات الدوام الرسمي) صلتهم بالدولة، وينتمون الى عالم الغيب، ويسخرون للحفاظ على العقاب الألهي المؤبد. واجبهم حراسة المارقين حتى يلفظوا انفاسهم. الحل في توسيع رقعة الجنون. فقدان العقل هو الأمل. بالامكان تحويل الجنون الى فعل ارادي: ان يترك ذاته تنزل طواعية الى القعر. يطرد كل ماهو عقلاني من ذاته، ويسمح بدخول كل ماهو عبثي. بهذه الطريقة يمكن ان يصل الى الصفر المرتجى. من المستحسن ان لايشكك في اي شيء. هناك احتمال ان يكون الله هو الذي يدير هذا المسرح التمويهي، وليس الاجهزة الرسمية.

***

يتألف سلم العطايا (المعتمد من قبل وزارة الاسكان) من درجات: في اعلى السلم تقف فئة الانسان الخارق للعادة، وفي القعر فئة الانسان العادي، وهو مستوى الصفر الذي لاتشمله العطايا. فئة الصفر من حقها ان تأكل وتشرب وتتنفس الهواء الطلق فقط، ولكن لاتدخل في سجلات الطابو (لا تمتلك عقارا). تحت الصفر تقع الدرجات السالبة من السلم: الخنادق الشقية والزنازين والسراديب وصولا الى القبور الجماعية. وحدات سكنية لها نظام طابو مصغر. انها فيزياء الطابو في حجمه الذري، وهو يخضع لنظام يختلف عن الطابو المكبر. لايمكن لهذا العسر الروحي من تفسير منطقي. لايوجد سبب منطقي يمنع بلاسم الفياض (الذي لم يكن يملك شيئا اصلا) ان يعطيه مئة وخمسين مترا سوى ان يكون مخولا من قبل الله نفسه، وان سخريته هي سخرية السماء نفسها. الجنون يقترب من الكفر.

من غير المعقول ان يبقى متمسكا بالمنطق. سند الطابو يتخذ حجمه الاخير: انه الواحدية المطلقة. ومثلما ان هناك في العالم الفوقي من يمنح خمسة الاف متر على نهر دجلة، فهناك من يمنح مترا مربعا واحدا تحت الارض. انهم فئة الواقفين تحت السلم، الرافضين تسلقه، اولئك الحاملون لجرثومة الارقام، الداعون ضمنيا لتحطيم السلم نفسه، وبناء كسر اعتيادي من البسط (المساحة)، والمقام (الناس)، اولئك المبشرون بتوماس مور.غير ان السماء كان لها رأي آخر: وضع رقم فوق آخر لايمثل الرب. السماء غير معنية بالرياضيات. ماذا يتبقى للرب اذا ادير الكون بالارقام؟ المعادلة الربانية لاتشبه يوتوبيا توماس مور.

***

استطاع تفكيك منظومة التمويه: ابنية فارغة، وابراج تحيط بفتحات التهوية، كلمات غامضة، وسيارات خط عليها (آيس كريم)، ومتعهدو الثلج والمعلبات، المخبرون بثياب عمال النظافة، وعربات نقل الموتى بماركة بيبسي كولا. لوجستيك الجهاز السري، الذي يعمل بكفاءة عالية. لم يدر بخلده انه سيراه لاحقا ومن الداخل، وان الدولة قد اعدت له مكانا هناك، بوصفه (عقلا مدبرا)، يحتاج الى مطحنة لتفتيت قدرته على التدبير. الوحدات السكنية الارضية توفر ضمانة لهذا الهدف. كان يعد العدة، دون ان يعلم، للمسكن المقبل، او ثم لاحقا للهروب منه. من اين واتته الجرأة؟ عبر منظومة التهوية مرر ادوات حفر: سكاكين ومجارف ومناشير ومفكات، شموع ، اوراق واقلام. يريد النزلاء حفر ممرات توصلهم ببعض، ورسم صورة لعالمهم. استطاع ان يحدد مالا يقل عن اربعين وحدة سكنية مساحة كل واحدة منها مئتي متر. هنالك وحدات لازالت فارغة، بانتظار نزلاء جدد، يحاول الحفارون الوصول اليها. الخريطة التي رسمها تمثل المجمع الخاص بالعاصمة. هناك مجمعات اصغر في المحافظات. حيث عثر على نزلاء تم نقلهم من جنوب البلاد. بفضل العمل الخارق الذي صنعه انفتحت الوحدات السكنية الارضية على بعضها. ادوات الحفر سمحت بشق انفاق، فالتقت الوجوه المغيبة، وبدأت حقبة جديدة. الحفر الافقي اخل بقيمة الكسر: زاد البسط (المساحة)، وبقي المقام (عدد النزلاء) على حاله. العمل يتواصل لكسب المزيد. وهناك حفر عمودي اصعب كثيرا بسبب صلابة السقوف الكونكريتية. الهدف الستراتيجي هو ايجاد منفذ للهروب. ربما يحتاج العمل الى سنوات كي ينتج ثماره. البسالة وروح المغامرة التي تحلى بها تسجل بحروف من نور. وضع تحت تصرفهم خرائط تفصيلية عن مكانهم، موضح فيها كل الثقوب المتصلة بالدنيا. كأنه يرسمها دليلا يستنير به في المستقبل. مصادفة قد لايعيش ليشرب نخبها. لم يدر بخلده انه سيكون هناك، وسيعثر على كل الوجوه التي لم يكن يعرف عنها سوى اسمائها وخصائصها الاسطورية. سوف يفقد صلته بالعالم، وسيمارس مثلهم عملية النبش في الاسمنت المسلح، قد تأكل من عمره سنينا قبل ان تأتي أكلها. عند مزارع الدولة يكون المهندس قد وصل الى نهاية الرحلة: فحاصل قسمة مئتي نزيل على مئتي متر هو الوحدانية، هو الرقم الألهي. سيدرك لماذا يحجم الاقطاعي فياض البلاسم عن منحه مئة وخمسين مترا رغم انه يملك مئات الألوف منها، ولماذا تزال قرية شنينة، ولماذا يتعذر عليه الصعود في سلم العطايا (دستور وزارة الاسكان). وسيدرك ابعاد الزنزانة الانفرادية، وقاووش مستشفى المجانين. انه قطار الملكية في سيره الحثيث الى المحطة الاخيرة. هل هي رحلة اليأس ام نهايته؟ هل هو جنون ارادي ام قسري؟ لم يعد الفرق واضحا او مهما. الاكثر جاذبية ان الجنون هو الحل الاوحد امام استحالة الكونكريت. اصبح سعدون الراهي اكثر قربا من العبث. عاش سنوات طويلة تحت طائلة المنطق، لكنه لم يجن منه سوى المرارة. اثبت العقل انه مهزوم على الدوام، بل هو وهم، مثل تبرع اقطاعي بمئة وخمسين متر من ارضه الى جمعية المعوقين. لماذا لا يجرب الان الذهاب الى اقصى الجنون؟ ان يترك ذاته تتمرغل في العبث، حيث تغيب السجلات كلها، وتغيب سندات الطابو، ولا يعود هناك

ضرورة للالم. ينتهي العناء طالما اصبح الشعور بالظلم لامعنى له، بل لا وجود له. لابد ان يطلق هذا المعقول .

***

الآن وقد اقترب كتابي من نهايته، لابد ان اكشف قدرا من هويتي، وموضع الهشاشة، ونقطة التردد التي تلازمني وانا اكتب رحلة المهندس سعدون الراهي الى نقطة التلاشي (الصفر الوجودي). انا باختصار واحد من رواد مشرب صهيب. كنت اراقب المهندس، واكتب عن تحركاته، دون ان اكون متيقنا من اي شيء. لم اكن عضوا بارزا في الوكر، لكن الفضول الخارق جعلني شعلة من النشاط.

صرت اميل الى ربط الثلاث ببعضهم: سعدون الراهي وجون ماير والدكتور سالم مهاوي. ولكن ماهي حدود العلاقة بينهم؟ هذا ما لم اتوصل اليه. فبعد اكتشاف مزارع الدولة اضيف فصل جديد لكتاب الدكتور مهاوي، يحمل نفس العنوان، مما دفع بعض الاخوة في مشرب صهيب الى التكهن ان جون ماير هو الوسيط. قد لايكون المحرض او الدليل. هناك سيناريوهات عديدة تم تداولها في مشرب صهيب. اني اتكلم الآن كعضو قديم في المشرب، وعلى تماس شبه يومي. ولقد اخذت على عاتقي مسؤولية تدوين ما جرى للمهندس سعدون الراهي، الراعي لوكرنا، والذي دفع عمره من اجلنا. لابد من وضع العلاقة بينه وبين جون ماير في اطارها الصحيح. هناك من نصحني بتوخي الحذر قبل زج اسم جون ماير في نشاط المهندس، قد يكون السيد ماير على علم ، أما ان متورطا او مخططا فهو امر لم يثبت بعد. واحب ان اعترف انني رأيت السيد جون ماير مرتين في مشرب صهيب بصحبة المهندس ثم انظم حسن باشية اليهما. ولقد حظيت بمصافحة الثلاثة لكني لم اجلس معهم. من البديهي لديبلوماسي قديم مثله ان لايرتكب اخطاءا تضر بسمعة بلاده، وان يكون ملتزما بقواعد الدبلوماسية، واحترام سيادة الدول. قد يكون المهندس هو المتبرع عن طيب خاطر بتزويده ببعض المعلومات والخرائط. ولكن حتى هذا الاحتمال لم يثبت بعد. هنالك بقعة غامضة جدا تقع بين المهندس ومشرب صهيب. بدأت اشك ان عضوا ما في الوكر هو الذي يشوش علينا جميعا. يحاول بذكاء مفرط بث اكبر كمية من الضباب في وجوهنا. هل كنا مخترقين، نحن اللب الاصلي لمشرب صهيب. كانت تصلتنا رسائل من جميع المحطات في رحلة المهندس، رسائل تعبر كل الموانع لدرجة الفزع، تحوي ما لايمكن التحقق منه. هذه الرسائل كانت المادة الخام التي اعتمدتها في تدوين محنته. من كان يبعثها لنا؟ وكيف تدخل علينا؟ قد لايكون الامر له علاقة بجون ماير اصلا، وقد يكون جهدا عراقيا بحتا، لا استبعد ان يكون الوسيط هو مشرب صهيب نفسه، بل هناك احتمال ان يكون الدكتور سالم مهاوي هو الذي يحرك هذه الخيوط عن بعد بالتعاون مع شبكة لازالت مجهولة. لا استبعد ان يكون واحد من تلامذته في المشرب هو العنصر الوسيط والخفي ايضا. سوف يتعقد الامر اكثر بدخول ملف البحث عن اسلحة الدمار الشامل من قبل لجان التفتيش التابعة للجنة الدولية للطاقة، وستكون مزارع الدولة من ضمن المواقع المطلوب تفتيشها. ان تعيين الدكتور مهاوي مستشارا في المجلس الاوربي لشؤون اللاجئين والمنفيين (ECRE) جاء متزامنا مع اضافة الفصل الجديد (مزارع الدولة) الى كتابه، وقيامه بنشاط اعلامي مكثف لضم هذه الفقرة الى عمليات التفتيش التي تنوي الامم المتحدة القيام بها في العراق: ندوات ولقاءات ومقالات في الصحف ومع لجان التفتيش، داعيا الى التوغل في عمليات الكشف وعدم اقتصارها على اسلحة الدمار الشامل. هناك مواقع يندى لها الجبين، لا تقل عن صدمة العثور على مستودعات غاز الخردل. حفريات من جنس جديد. سكان

السراديب (المخلة بالشرف)، الذين لايشملهم العفو او الرحمة. وجوه عراقية مطمورة منذ زمن طويل تحت الارض، تستحق التنقيب عنها اسوة باسلحة الدمار الشامل.

***

الخروج من القمقم

(خروج سعدون الراهي من القبو السري، وعبوره الحدود، وانضمامه الى جموع الملايين المكتظة في ميناء ازمير للهجرة الى اوربا. حصول مفاجأة مدوية، يحقق فيها امنية عزيزة على نفسه)

حان الوقت لاخراج العفريت من القمقم. لابد ان يكون هناك فسحة زمنية للهواء الطلق. لقد حصل تبدل في حكاية المصباح السحري. لم يعد العفريت خادما لأحد، وخرج ليلبي امنية ذاتية محضة، تراوده منذ زمن طويل. غير اني لا املك تفسيرا للطريقة التي خرج بها. في المشرب ثلاث طاولات، بثلاث سيناريوهات مختلفة: الاولى تعتقد ان العفريت خرج بجهوده الذاتية، بعد ان احدث ثقبا في غطاء القمقم وصعد مثل دخان ابيض. والطاولة الثانية تعتقد ان جون ماير هو الذي دعك المصباح السحري؟ اما الطاولة الثالثة فتستبعد وجود مصباح سحري اصلا، و تعزي خروجه الى قرار حكومي بالعفو شبه سري، حيث افرغت المستودعات، واطلق سراح ساكنيها، بعد ان ادرجتها لجنة الامم المتحدة ضمن المواقع المطلوب تفتيشها؟ ولابد ان اعترف، وان كان متأخرا، انني كتبت ما كتبت وانا جالس في طاولة منعزلة في مشرب صهيب. من هذا الوكر السري خرجت سيرة المهندس سعدون الراهي. انني اعتذر عن كشف هويتي كاملة، كوني اكتب عن شخص مهم في مسيرة وكرنا، دون ان اكون متيقنا منها. ولقد كتبت بعض الفصول

تحت تأثير خليط من الحزن واليأس والخمرة. لازلت مترددا في نشر هذه السيرة او تقييمها، فهنالك الكثير من الفجوات واللحظات الشاحبة، وهنالك مواضع تركتها كما هي، ينبوع متفجر في قمة جبل، يهبط كشلال هادر ثم ينساب هادئا في الوديان. وكما واجهت صعوبة في العثورعلى الوثائق التي تدعم سيرة المهندس، فالتحقق عن دور السيد جون ماير مازال اصعب من ذلك. هناك تكهنات عن ابعاده خارج العراق، بعد ورود اسمه في التحقيقات، لكني لا املك دليلا لاثباتها او نفيها. المشرب لايستبعد ان يكون له دور، حتى لو عن بعد. هناك من يوصل له المعلومات تكليفا او تطوعا. بت احس ان شعرة واحدة تفصلني عن رؤية الشكل الذي تتصل به الحلقات الاربع : المهندس، جون ماير، المشرب، والبروفيسور مهاوي. ما ان امسك بها حتى تتصل الحلقات ببعضها وتختفي الفجوات. هناك تقولات تفيد ان جون ماير على صلة بالبروفيسور سالم مهاوي، وهو الذي زوده بملف مزارع الدولة، وعلى اثره نشر كتابه الثالث الذي يحمل نفس الاسم، وكشف فيه هذه الاعجوبة. اصبح البروفيسور مرجعا هاما لكل المعنيين بحقوق الانسان في العراق، وضيفا لابرز القنوات الاعلامية في اوربا وامريكا. وربما يكون جون ماير هو الذي وقف وراء تعيينه مستشارا في المجلس الاوربي لشؤون اللاجئين والمنفيين(ECRE). هذا المنصب الذي يبدو وكأنه معد لتحقيق حدث تاريخي يهز العالم برمته.

لم يعبر المهندس الحدود لوحده. اخذ معه شلة من سكنة السرداب الارضي. دخل تركيا سرا. قصد ازمير لينظم الى الملايين الواقفة بانتظار وصول البواخر، التي ستحملهم الى اوربا. نازحون في العراء ينتمون الى اربعة بلدان، لم تعد الحياة تطاق فيها، بعد ان مزقتها الحروب الداخلية، وارتفاع درجات الفقر والفوضى. وكان بينهم من لم يعد له مكان سوى السجون. كان العالم يراقب بشكل حي هذا الفيضان البشري، وتتفنن وسائل الاعلام في اظهار صوره المأساوية، وتحميه دوليا ضد اي تلاعب في انسيابيته. العدد الكلي وصل الى اربعة مليون، بواقع مليون لاجيء من كل بلد من البلدان الاربع: العراق، سوريا، اليمن، الصومال. وقبل ان تتحرك اوربا لانقاذهم، كانت وسائل الاعلام قد انتقلت الى مواقع المأساة: في الشواطيء، وطائرات الهيلوكبتر، وزوارق الانقاذ، وملأت ازمير. سجلت لقطات هزت الوجدان العالمي مثل: جثة طفل نائم على وجهه، لفظته امواج البحر الى الشاطيء، او دوريات لاسماك القرش، في طريقها لتمزيق الباحثين عن قشة، وبطون منفوخة بالماء المالح، او مخدرة بقناديل البحر. مطاعم النجوم الخمس في لندن وباريس اصبحت خاوية. فقد العالم الغربي شهيته للطعام. فصعدت الاصوات لفتح الحدود والاذرع.

كان رأي السيد (مايكل وولارد) السكرتير العام في المجلس الاوربي لشؤون اللاجئين والمنفيين (ECRE): ان اوربا لا تستطيع ان تقبل كل هؤلاء المتكدسين في الضفة الاخرى من البحر المتوسط. وكان الحل برأيه يتمثل: في قبول تركيا باقامة (مخيمات انتظار)، لحين وضع برنامج لاعادة توطينهم في اوربا،هذا من جهة، ومن جهة اخرى زيادة الضغط على بلدان اللجوء لقبول عدد اكبر من اللاجئين، ثم توسيع النطاق لفتح بلدان اخرى، ضمن الاتحاد الاوربي، لاستقبال اللاجئين.

في هذه المرحلة برز اسم العراقي سالم مهاوي الاستاذ في جامعة اوكسفورد، والمستشار المعين توا في المجلس (ECRE)، ليكون قطبا في مشكلة اللاجئين. دخل بقوة غير اعتيادية. كان صوته موجعا وملتهبا مثل علاج الجرح بالكي. وجه نقدا حادا لعملية اللجوء، واصفا اياها بصمام الامان للانظمة الاستبدادية: (....عملية اللجوء، بشروطها الحالية، توفر لهذه الانظمة تفريغا مضمونا للضغط الشعبي، ولقد آن الاوان لوقف هذه المهزلة......). لابد من وضع شرط مضاد وحاسم. تفتق فم البروفيسور عن قهقهة مرة ظلت تتردد في بروكسل، سخر فيها من مقابلات اللجوء، وعمليات الكذب المتبادل الذي يمارسه الطرفان: اللاجيء والموظف المسؤول. اما الحل الذي جاء به الدكتور مهاوي فكان انقلابيا، يقوم على نسف كل

شروط اللجوء المعمول بها، وتبني شرطا جديدا واحدا فقط، سوف يعلنه، بعد ان يوضح هشاشة الشروط التقليدية وعدم جدواها، حيث تحولت عملية اللجوء من انقاذ الى امتياز وتجارة رابحة للمهربين. كل لاجيء يعرف مسبقا كيفية التعامل مع هذه الشروط وتلبسها، واسهل من ذلك اختراع القصص وتزوير الوثائق. ومهما وضعنا له من شروط ومرشحات فسوف يبتكر وسائل مضادة. العملية اشبه بالعلاقة بين اللص والقفل. وعموما فان كل فرد في الشرق الاوسط (من وجهة نظره) يستحق ان يكون لاجئا، او يفكر في داخله ان يترك بلده. حان الوقت الآن للاعلان عن الشرط الوحيد الذي اقترحه البروفيسور لقبول اللاجيء:

((من حق كل نازح من الشرق الاوسط الحصول على اللجوء، بشرط التنازل عن حصته النظرية من ارض بلاده الى الاتحاد الاوربي)).

الحصة النظرية للفرد هي حاصل قسمة مساحة الدولة المعنية على نفوسها. وللتحقق من هذا الشرط يتوجب على طالب اللجوء التوقيع على اقرار بالتنازل عن حصته من ارض بلاده الى الاتحاد الاوربي قبل الدخول اليه.

كان المقترح صادما. احدث بلبلة داخل المجلس، فانقسم على الفور الى كتلتين. تزعم السكرتير العام كتلة الرفض، واتهم البروفيسور العراقي بالسعي لتحويل عملية اللجوء من موضوع انساني الى سياسي. او اقل من ذلك الى طموح شخصي. غير ان الثقة والنبرة التي تكلم بها البروفيسور العراقي كانت تنم عن تأييد مسبق من اطراف فاعلة في الاتحاد الاوربي.

شعر سكرتير المجلس ان شيئا مبيتا في هذا الانقسام المفاجيء. وبدأ ينظر بعين اخرى الى البروفيسور العراقي. خاطب السكرتير اعضاء المجلس محذرا من كارثة انسانية، وساخرا في الوقت نفسه من مقترح البروفيسور العراقي :

(هناك اربعة ملايين انسان في العراء، ولابد من التحرك الفوري لانقاذهم، سوف نرسل البواخر لهم، وسيوقعون على ورقتك هذه جميعا ، مستر مهاوي، وسيصعدون على متنها، وبعد ثلاثة ايام تعود الينا، اربعة بواخرعملاقة (كراوزر)، كل واحدة تحمل مليون لاجيء. فماذا اعددت لهم؟ كيف تحل المشكلة، ايها البروفيسور؟)

لكن البروفيسور العراقي كان له رأي آخر:

(لاحاجة لبواخرعملاقة. اطمئن يا جناب السكرتير. اعدك انني سوف استقيل من منصبي، واقدم لكم الاعتذار اللائق، اذا تجاوزت نسبة الموقعين على الاقرار واحد لكل عشرة الاف، اي مامجموعه اربعمئة لاجيء. قارب سياحي يكفيهم، وسيعود البقية الى بلدانهم. واذا كنتم من هواة المراهنة، فاني اراهنكم على ذلك).

سرعان ماتطور النقاش الى رهان فعلي، قوامه الاختلاف على عدد الموقعين، فالسيد مايكل وولارد يصر ان ورقة الاقرار لن توقف اي من النازحين، وسيوقع الجميع عليها، اي ان عدد الموقعين (من وجهة نظره) سوف يقرب من اربعة ملايين، بينما يرى البروفيسور ان عدد الموقعين لن يتجاوز الاربعمئة. ثمن الرهان هو الاستقالة وتقديم الاعتذار. ولكي لايتحول الامر الى مقامرة محضة فقد اشترط سكرتير المجلس موافقة وزراء خارجية الاتحاد الاوربي وتوقيعهم على ذلك. وبغض النظر عن المغزى السياسي للرهان

فقد قرر الاتحاد الاوربي ارسال اربعة بواخر عملاقة، تتسع بمجملها لاربعة ملايين راكب، وتحمل تكاليفها، سواء عادت ممتلئة او خالية.

بعد ذلك شرع البروفيسور العراقي بتصفية حساب قديم مع القوى السياسية في الشرق العربي. قال انهم اصل البلاء.

(حين يكون خطر الحداثة بعيدا يتصرف كل منهم ك(علماني)، لكن ما ان تقترب الحداثة او الحضارة (الغرب) من الحدود حتى تراهم يصطفون الى جانب الدين لمنع دخولها. هناك وهم بوجود تيارات فكرية متعددة في الشرق العربي، ووهم اكبر عن وجود تباين بين القوميين والاسلاميين والشيوعيين. والحقيقة انهم في اللحظات التاريخية الحاسمة شيء واحد. الثلاثة يخرجون من زقاق واحد. عندما تقترب ساعة التغيير او المدنية (الغرب او الحداثة) من الشرق العربي يتصدى لها الثلاثة سوية. ولكي يتظاهرون بالاختلاف فانهم يطلقون تسميات مختلفة للحداثة (الحضارة). المسلم يسميها اليهود والنصارى، والقومي يسميها الاستعمار والصهيونية، والشيوعي يسميها الرأسمالية والامبريالية. جذر الخطاب هو ديني(محمدي، بوجه ادق). اليهود (اسرائيل) والنصارى (الغرب) هم اعداء محمد الذين كذبوا دعوته. لايجد الشيوعي او القومي له مكانا في الشرق العربي الا بتبني الثوابت الدينية. ليس مسموحا له ان يكون مع اعداء محمد. القطاع الديني هو المهيمن، فمقابل كل حانة هناك عشرة آلاف جامع، ومقابل كل مكتبة هناك ضريح او تكية او مقام مقدس، ومقابل كل آلة كمان هناك الف عمامة.

انا ذاهب الى ازمير لاتحرش بالثوابت، وما سيحدث هناك ينتمي الى اللحظات التاريخية الحاسمة. ان زعزعة الانظمة الاستبدادية والعاجزة عن تقديم شروط الحياة لمواطنيها يحتاج الى نظام عالمي جديد، يقرر فيه الفرد مصيره بنفسه).

وصلت البواخر الاربع الى ميناء ازمير. وتم ابلاغ النازحين بالشرط الوحيد للصعود. وزعت البعثة الاوربية اربعة ملايين استمارة. اعتمدت الارقام الخاصة بتلك السنة:

العراق: النفوس 25 مليون نسمة، المساحة 450 مليار متر مربع.

سوريا: النفوس 17 مليون نسمة، المساحة 183 مليار متر مربع.

اليمن: النفوس 19 مليون نسمة، المساحة 528 مليار متر مربع.

الصومال: النفوس: 10 مليون نسمة، المساحة 637 مليار متر مربع.

بموجب الارقام اعلاه، تم حساب حصة الفرد النظرية من الارض، و تثبيتها في استمارة الاقرار بالتنازل للاتحاد الاوربي.

حصة الفرد العراقي: 18 الف متر مربع.

السوري: 10 الف متر مربع.

اليمني: 27 الف متر مربع.

الصومالي: 63 الف متر مربع.

اعطي النازحون مهلة يومين لتوقيع الاقرار.

تحركت ماكنة الارقام، وبدأت عمليات الضرب. وقف العالم على قرن ثور: لو قبلت الملايين الاربع الشرط الجديد، هل سيبقى العالم كما هو؟ في تلك الساعات صعدت اقوى التحديات: قبل ان يصل النازحون الى السفن الراسية في الميناء كانوا قد راهنوا بكل ماعندهم، باعوا ممتلكاتهم، ملأوا جيوب السماسرة، نفذوا كل شروط المهربين. هاهم يواجهون شرطا لم يكن في الحسبان. مرة واحدة استدارت الملايين الى الوراء بعيون مفتوحة الى الاوطان التي غادرتها. اي شرط جزائي هذا؟ من وضعه؟ والى اين سيفضي؟ تحرك مثل موجة بحرية هائجة ليغمر تلك البلدان بفيض من القلق. استفاقت الشعوب والحكومات فوجدت نفسها تطفو على خبر ابعد كثيرا من مسألة نازحين يبحثون عن حياة افضل. موجة تحمل من العلو مايجعل منها اعصارا مدمرا. كان رد الفعل الاول هو تقليب الارقام وحساب اقسى الاحتمالات. في حسبة بسيطة. لو ركبت الملايين الاربع في البواخر، فسوف يكون مجموع الارض التي تعادلهم كما يلي: العراقيون 1 مليون لاجيء مضروبة في 18 الف مترمربع: اي مامجموعة 18 مليار متر مربع، سوف تقتطع من الاراضي العراقية. بنفس الحسبة، سوف يقتطع من سوريا 10 مليار متر مربع، ومن اليمن 27 مليار متر مربع، ومن الصومال 63 مليار متر مربع. ولو جمعت هذه المساحات فسوف تكون:

18 + 10+ 27 + 63 = 118 مليار متر مربع،

اي اربع مرات ونصف اكبر من مساحة فلسطين.

من سيقطع صمت الملايين؟

سمع صوت الابرة وهي تسقط، ومصمص رضيع صدر امه، وتنفس شيخ يعاني من الربو.

من سيطلق الصيحة الاولى؟

العازفون في اوركسترا الاعلام يأخذون مكانهم. على عجل تحركت الميكروفونات والكاميرات، الصحافة والفضائيات. بامكاني الان سماع مختلف الاصوات واللغات، فقد كانت التغطية شاملة. عزفت المقطوعة بمختلف الالات الشرقية والغربية. احدهم ينفخ بآلة غربية: من سيخرج ليقول: نعم، انا موافق؟ من الاصبع الذي يثقب الهواء الساكن؟ من القدم التي تجر وراءها الملايين الى سلم الباخرة؟ مراسل عربي يهتف امام الجموع: من سيقبل على نفسه ان يبيع اهله؟ لا اظن اي منكم سيفعلها. حين يأتيكم مبعوث الاتحاد الاوربي بصكوك العار، مزقوها بوجهه. اياكم ان تبيعوا اوطانكم. سوف تلاحقكم اللعنة الى ابد الابدين. يمكن القول ان صراعا نشب بين غريزة الحياة والثوابت العربية المتوطنة منذ اربعة عشر قرنا. ويمكن ايضا تسجيل ان النساء كانوا اقرب الى الحياة من الرجال، لكن اللوائح لاتسمح بصعود الاطفال الى الباخرة الا باتفاق الوالدين. تقف الكاميرا امام زوج يرفض توسلات زوجته بالصعود الى الباخرة:

اذا اردت ان تذهبي، فاذهبي لوحدك، بدون الاطفال. لن اوقع. لو بعت بلادي، فسوف ابيعك ايضا.

بالمقابل كان هناك دخانا ابيضا ينبثق من زحمة الملايين، ليبث فيهم قدرا من الفزع.

لابد هنا ان اعلن وبكل قوة ان المارد خرج لوحده من القمقم. لم ينتظر القدر الذي يوقعه في شبكة صياد السمك. المارد والصياد هما شخص واحد، يحمل امنية منذ قرون بعيدة. يقول لنفسه (شبيك لبيك.. عبدك بين اديك). هاهو يطلب من نفسه اول الاماني: اريد ان اكون اول من يوقع على الاقرار الاوربي. عندئذ تكثف دخان العفريت وصار لحما، وجها مضيئا، وذراعا مليئا بالعزم. رفع القلم مثل رمح هندي امام كاميرات الاعلام العالمي، وهبط على موضع الامضاء. نطق اسمه وسنه وجنسيته، وعبارة الاقرار، بعينين مفتوحتين واسارير لم تجد الفراغ الكافي لتوسعها. وضع توقيعه وسط الاختام الاوربية، والى جواره

الرقم المتنازل عليه 18 الف متر مربع. خرجت روحه الى العلن ليتشكل منها مخلوق مليء بالغبطة. ميناء ازمير مسقط رأسه، ويومها ميلاده. ما ان رفع اصبعه حتى تبعه تسعة وعشرون عراقيا، ممن شاركوه السرداب الارضي، وهربوا معه. سجل العالم اسمه، والتقطت صور له بعدد الكاميرات والزوايا. خلال لحظة واحدة تحول سعدون شبيب الراهي الى اشهر لاجيء في العالم. تسابقت الفضائيات والصحف الى التفتيش في تاريخه الشخصي. اعتبره الغربيون شخصا نادرا، ووصفوه بالشجاع، بينما هاجمته وسائل الاعلام العربية بشدة مستخدمة مفردات التنكيل الجاهزة: الخائن، العاق، المرتد، المختل، المنحل، العميل.

المراقبون يحملون عدادا فوريا. مضت ساعتان،والعدد لم يتغير. مازال سعدون الراهي وصحبه لوحدهم يطوفون بين الملايين المترددة. ينتظرون انفجارا وموجة عاتية من التواقيع. كل شيء مستنفر لاستقبال الانفجار: المنصة والميكروفونات والمذيع الداخلي والشاشة الفورية التي اعدت لتسجيل المتقدمين. طاف سعدون ورفاقه على الجموع حاملين مكبرات الصوت، يشرحون دواعي التوقيع على الاقرار، غير انهم لم يحرزوا الا نجاحا ضئيلا. بعد اربع ساعات لم يستجب لهم سوى ثلاثة صوماليين واثنان من اليمن وسوري واحد. خاطب الجمهور، حاول ان يجعل من قبولهم امرا مفروغا منه، يدغدغ رغبة الحياة فيهم: (هناك ساعات تفصلكم عن البوابة، هنالك مقصورات خاصة ملوكية، اذا لم تصعدوا مبكرا، فسوف لن تحضوا بمكان مريح. ربما ستنامون على ظهر الباخرة). كلمهم عن نفسه. قال لهم انه قضى عمره وهو يحاول مد جذوره في ارض بلاده، لكنهم كل مرة يرفعوه الى الاعلى (ليس لذرى المجد) بل الى سقف في غرفة مظلمة، كي لا يلامس الارض، فتنبت له جذورا فيها. رد الجمهور عليه قائلا: (انك تنازلت عن الارض لمن يدنسها). صعقته العبارة، وجد فيها وصفا شنيعا: (كأنكم تتحدثون عن المراحيض. لماذا تتدنس ارضنا بهم، ولا تتدنس ارضهم بنا؟ قبل ساعات كنتم تتوسلون للعيش هناك). قالوا له: ما وقعت عليه هو صك بالاستعمار. اجاب: ليكن، استعمار، ولكن ماهو مضمونه؟ الا يعجبكم ان تنتزع الارض من ايدي البلطجية لتمنح الى احفادكم؟ هل اشرح لكم هذه الاحجية؟ سوف يطير الصك مثل كرة الركبي، يعبر البحر، تتم المصادقة عليه في بروكسل، ثم يعود الى ايديكم على شكل مخيمات اغاثة بخمسة نجوم، واقطاعيات لمكافحة الفقر والبطالة. انه (الاستعمار الانساني): امنح ارضك هنا، لتعيش هناك. سوف تساعد اهلك على التحرر. لن تخسر شيئا لانك لا تملك شيئا اصلا. حقك الوحيد في بلادك ان لاتزاحم البلطجية، وتنام في العراء، وحين تجوع تمد يدك للمحسنين.

اصبح الكل في مواجهة مع نفسه. يحتاج التوقيع على الاقرار قدرا هائلا من الجرأة والملح العقلي، وهما سلعتان نادرتان في تلك البلدان. بعد عشر ساعات وصل عدد الموقعين الى اربعة وخمسين. قام سعدون الراهي بضخ قدر هائل من جرأته. حكى لهم عن شعرة من جلد خنزير، وسجل خطه بيده، بعيدا عن خلافة الارض، خرجت منه الى الوجود مدينة ملعونة، لكنها صمدت حتى وصلت الى مليوني نسمة. (بامكان اي منكم ان تعيدوا الكرة، كل باصبعه، ومن موقعه، تعيدون توزيع الارض بارادتكم الحرة، وتؤسسون لحق تقرير المصير فرديا. تعطوها لمن يجعل منها واحة تظلل احفادكم، فلا يضطرون لركوب البحر و اقتلاع الجذور).

سعدون يتحرك بين ارصفة الميناء، يحمل جرسا، يذكر النازحين العرب باشهر المنتجعات التي سيخسروها لو وضعوا امضاءهم: الشعبة الخامسة في بغداد، فروع علي دوبا في الشام، احد عشر محكمة شرعية في مقاديشو، ومنتجعات الامن القومي في صنعاء.

الساعات تمضي. الميناء المحصن بالدرك التركي تحول الى دائرة للطابو العالمي. النازحون واقفون على رؤوس الاصابع، جالسين ونائمين وساهرين ومتعبين ومشدوهين ومصدومين ومذهولين امام هول الامضاء. تلك الحركة الخاطفة من الاصابع التي تسمح لهم بالانتقال من العراء الى قلب العالم الحر. بعد خمسة عشر ساعة، عثر على ثلاثة سوريين، كانوا من الزبائن المعتقين في قوارير فرع 235 (فرع فلسطين). ووجد صوماليا فاقدا لنصف لسانه وعقله بسبب مثوله امام محكمة شرعية في مقاديشو، حكمت بقطع عنقه، ثم خفض الحكم الى بتر لسانه. وصعد الباخرة اربعة يمنيين مع شحنة من القات تكفيهم لما تبقى من العمر. تركوا بيوتهم بعد ان تحولت الى مقرات عسكرية، مرة بيد الحوثيين ومرة بيد تنظيم القاعدة. الكاميرات تدور مع سعدون الراهي، تلاحق زبد شفتيه، وعفة قلبه، ورغبته العارمة في وصول الناس الى بر الامان. شعر انه يملك القدرة على محاسبة السماء على اخطائها الاولى، ويعيد توزيع الارض بطريقة افضل من جوبيتر. العالم يقف فاغرا فمه، يتساءل صحفي آسيوي، ان كان هذا المخلوق النحيف المشكوك بسلامة عقله قادرا على اقناع هذه الملايين من العقول المتراصة. بدأت الحملات الشعواء، وتهديدات للموقعين. تحرك اهاليهم رافضين هذا الامر. خرجت مظاهرات مليونية في اربعة بلدان وفي وقت واحد. ثم تبعها مظاهرات مماثلة عمت الوطن العربي من المحيط الى الخليج. اخترق الصفوف جسد نصف عار، صعد على الاكتاف ليمزق الاقرار، ثم سرعان ما اشتعلت النيران في علم اسرائيل وامريكا. كيف دخلت الاعلام، ولماذا احرقت؟ مكبر الصوت يعلن دواعي الغضب. صيحة قوية: (انها مؤامرة امريكية اسرائيلية، وعد بلفور ينهض من جديد، هذه المرة بافواهنا وايدينا، وهذا العميل، يشير الى سعدون، هو رأس الحربة). مكبر الصوت يذيع الاسم مرارا، يحرض على مهاجمته. قوات الجندرمة التركية لا تتدخل. يتراجع سعدون الراهي الى الوراء، باحثا عن مكان آمن. مندوبون عن الحكومات الاربع، متنكرون بزي مراسلين صحفيين يلاحقونه، يوجهون اليه تهما بريئة: ماهو دورك في (الفوضى الخلاقة)؟ مراقبون يحاولون اعادته الى رشده: لقد حققت الشهرة التي تنشدها. الاقرار مازال في جيبك. هل ستفاجيء العالم وتمزقه؟ هناك من يلهث وراءه، يحاول الوصول الى سرعته في تخطي الحواجز. ابتلع تجربة الامكنة الضيقة، فلم يعد قادرا على احتواء ذاته. الصفر الذي عاشه عقودا، تحول الى رقم لا متناه. عبر الحدود فلم يعد ممكنا محاصرته، او اطفاء جمرته.السائرون معه قليلون، لكنه لايأبه.

وضعت الدولة كل العراقيل في طريقه. جلبت اقرب الناس اليه. زوجته واطفاله وضعوهم امام كاميرات التلفزيون. البث حي ومباشر بين بغداد وازمير. طلب منهم ان يدلوا بشهادتهم. ابتلعوا الكلمات وقذفوها مع زفرة من الألم والانكسار: (ماذا فعلت يابابا. كيف سنخرج الى الناس؟ جعلتنا علكة في الافواه). الزوجة ظهرت الى جانب وزير الاسكان. اخرجت سند طابو. قالت انها حصلت على ارض في بغداد، دون ان تذكر تاريخ الاصدار. اشارت باصبعها الى الاختام الطازجة، وتواقيع دائرة الطابو، وقرض المصرف العقاري، اضافت انها حصلت على عفو من الرئيس واسقاط التهم عنه. اصطف اهله في طابور. دشاديش بيضاء وعباءات سود. ذكروه بلبن امه. طلبوا ان يمزق الورقة الزرقاء التي في جيبه، ويعلن توبته، والا فسوف يتبرأون منه. (انك بهذه الورقة تبيع نفسك). طلبوا منه ان لا يخزيهم اكثر من ذلك. واذا كان لابد ان يهاجر، فليذهب لوحده ولا يورط غيره.

الضغط يتواصل لتجريده من كل شرف. من هولندا اصدر حاتم العاني عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي بيانا ندد فيه بهذه (المقايضة)، واعتبر سعدون الراهي شخصا مشبوها، ومأجورا لتخريب البلدان، مذكرا بوعد بلفور، وكان على وشك ان يقول: (اعطى من لايملك، الى من لايستحق)، لكن وجوده مع تسعين في المئة من اعضاء المكتب السياسي، كلاجئين في اوربا، احال دون ذلك.

وضع مراسل ال BBC الميكروفون في فم سعدون الراهي، وسأله ان كان لديه مايرد به على ممثل الحزب الشيوعي. اجاب سعدون الراهي بهدوء: (على حاتم العاني ورفاقه ان يهيئوا انفسهم لمرحلة اكثر احراجا. ماذا ستفعلون لو طبق القرار بأثر رجعي؟ لو رست السفينة في روتردام، ووزعت عليكم نفس الاستمارات؟ وماذا لو واصلت الابحار الى الشمال، ومسحت جميع العراقيين في اوربا، الذين يزيد عددهم على ثلاثة ملايين، معظمهم من اليساريين، هل سيوقعون على الاقرار، ام يعودون الى بلدانهم ؟). لكن حاتم العاني لم يرد، اختفى عن وسائل الاعلام، وترك الفضائيات العربية تواصل ضرباتها الى سعدون الراهي.

تطوع الألوف لشتم سعدون الراهي. جاءت عشيرته براية صفراء في رأسها جرس، وقف الناطق بعقال وغترة بيضاء ليعلن البراءة باهزوجة عن بتر الاصبع الفاسد قبل ان يأكل الكف. وليس بعيدا فتحت الارض فمها وراحت تتكلم بالعربية. بحثت الكاميرا عن سيد مكاوي فلم تجده، لكنها وجدت مطربا محليا وجمهرة تضغط بقوة على اللازمة: (الارض بتتكلم عربي.. الارض .. الارض)، اعيدت عشرات المرات، في محاولة عفوية لتجنيس الارض. تجولت الفضائية العراقية في المحافظات لنقل غضب الجماهير. اعيدت قسمة المساحة على النفوس، ثم ضرب الناتج في مليون نازح عراقي، فصعد الرقم المفزع مرة اخرى: (18 مليار متر مربع)، وللمزيد من اشعال النيران، اعيد على مسامع الجماهير الغاضبة وتم تقريبه للاذهان: ثلاثة اضعاف محافظة كربلاء. وبموجب القانون الدولي الجديد يحق للاتحاد الاوربي اختيار الرقعة الجغرافية، والتصرف بها كما يشاء. لم يخف المحلل السياسي براعته في ربط كل مايحدث بنظرية المؤامرة: (بهذا الاقرار يمكن زرع كيان استيطاني جديد، اكبر من اسرائيل بمرة ونصف). التحق رجال الدين بجوقة الغضب الشعبي. اتفق السنة والشيعة على وضع المهندس في قعر جهنم قبل يوم الحساب. رشقوه بآية (الارض يرثها عبادي الصالحون)، طبعا، العباد الصالحون هم المسلمون فقط. اعلن المذيع عن اتفاق الف وخمسمئة مئذنة في بغداد على لعنه عند صلاة المغرب. ناشده الاساقفة ان يتوب، وكذلك فعل زعماء المندائية واليزيدية والشبك. تم فصله من وظيفته في مديرية كهرباء بغداد، وقررت نقابة المهندسين طرده. وخرج وزير العدل ليسقط عنه الجنسية. وتطوع ثلاثة من اقربائه فاحرقوا ملابسه وكتبه. وذكر مدير مدرسة ان الصدفة جمعتهما في مندلي لاستلام قطع اراض مخصصة من الدولة، دون ان يتطرق الى الاحتلال الايراني، ولا المعارك الطاحنة بين الجيشين حول تلك الارض. انتقلت كاميرات التلفزيون الى مستشفى الشماعية، والى الردهة التي عاش فيها. التقوا بالمجانين وهم عراة، وضعوا صورة المهندس امام اعينهم، فعرفوه، قالوا (كان واحدا منا). سرعان ما ظهرت العبارة في الفضائيات بحروف كبيرة، ووضعت عنوانا لخبر عاجل. بعد ساعات اذيع بلاغ من مديرية الامن العامة، واعيد بثه مرارا، يفيد ان المدعو سعدون شبيب الراهي هو سجين نصف مجنون هارب من العدالة، وان الدولة العراقية تطالب تركيا بتسليمه، وفقا لاتفاقية تسليم المطلوبين الموقعة بين البلدين.

لم يرد على احد. لم يدافع عن نفسه. لم يحتج او يفند احدا. لايريد ان يخفض درجة تفرده. اسبقيته في الصعود الى الباخرة اكبر مما يقال. حين اتخذ قرار العمى المطلق، قطع الحبال جميعا، ورماها في المرسى. على هذا النحو تتلألأ الايام السود، والحيز الضيق من الوجود، الذي قضى فيه عمره.

كان يطوف على النازحين حاملا سند التنازل. اسمه مطوق بنجوم اوربا الزرق. سائرا في درب معاكس: بدل ان يأخذ الارض فانه سيعطيها. هنا سر ولادته، وسر اضطراب العالم القديم. اختفى كل الذين يشبهونه.

كلما زاد الرافضون زاد حجم تفرده. سعدون الراهي بلا حد. انتفضت الرغوة الجماهيرية ضده، فارتفع رصيده من اللذة. لم يجد الا نفرا بعدد الاصابع الى جانبه. كانت عزلتهم اكيدة، وتفردهم لايقبل الشك.

انتهت المهلة، واغلقت الابواب، ابتلع البحر شمس ازمير.

اقلعت البواخر الاربع عائدة الى اوربا، تحمل 72 لاجئا فقط، هم الذين وقعوا على السند الاوربي. تلاحقهم لعنات الملايين الواقفة على ارصفة الميناء. كانت ثلاثة من البواخر خالية الا من طواقمها. الباخرة الرابعة جمعت البعثة الاوربية واللاجئين الموزعين بالشكل التالي: العراقيون 30 ، السوريون 22 ، اليمنيون 9 ، الصوماليون 11. لقد ربح البروفيسور العراقي سالم مهاوي الرهان، ومن المؤمل ان يشغل منصب السكرتير العام في المجلس الاوربي لشؤون اللاجئين والمنفيين (ECRE) بعد استقاله السيد مايكل وولارد. على ظهر تلك الباخرة التقى سعدون الراهي بالبروفيسور وحكى كل منهما للآخر حكايته.

******

انتهت

هولندا- 2019

محسن حنيص